

جامعة القاهرة

كلية الآداب

قسم التاريخ

رسالة ماجستير محققة

مدينة مصر القديمة في القرن السابع عشر الميلادي

دراسة تاريخية

إعداد

خالد حامد السيد عبد الله أبو الروس

تحت إشراف

أ.د/ أحمد حسن

أ.د/ محمد عفيفي عبد الخالق

عميد كلية الآداب - جامعة القاهرة

[مشرف]

[مشرف مشارك]

تقديم

تعتبر دراسة المدن الحضارية من الدراسات المفيدة في مجال البحث التاريخي. هذه المدن التي حظيت بإهتمام من جانب بعض المهتمين بالتنقيب في هذا المجال وعلى رأسهم عبد الرحمن زكي وأندريه ريمون، وجاءت القاهرة محط اهتمام هؤلاء في المقام الأول بوصفها العاصمة وكل ما يأتي بعدها يدور في فلكها، كذلك اعتبرت مصر القديمة مجرد متنفس لها ينظر إليها الكثيرون على أنها حي عادي من أحياء القاهرة أصبح مهبط الجناح بعدما كانت منطقته تنبؤاً دور الزعامة على مصر قاطبة. وكل من تناولها بالدراسة من قريب أو بعيد نظر إليها على أنها شيء عظيم قد تحطم فراح يرثي مجده الزائل ويتعلق بأهداب الماضي الجميل كي يتحسس طريقه نحو المستقبل، لذلك جاءت الكتابات التي دارت حولها في مجملها فقيرة تفتقد إلى المصداقية يعوزها التنقيب بمعول من حديد من أجل إضافة شيء ذي قيمة تذكر.

لذلك وقع إختيارنا على " مصر القديمة في القرن السابع عشر الميلادي " لتكون أطروحة للماجستير، نكشف من خلالها اللثام عن تلك المدينة التي وقع عليها الغبن من قبل البعض. والتي اكتنفها الغموض لفترات طويلة. وجاء تحديد فترة القرن السابع عشر بالذات لأنه حتى هذه اللحظة لم تكن هناك وفرة من الدراسات المستقلة لهذه الحقبة التي تعد من أكثر الحقب في تاريخ مصر غموضاً. وبالتالي جاءت الصعوبة هنا مزدوجة في دراسة مدينة تعلوها الأثرية في فترة غاية في الغموض. لذلك كان إلزاماً علينا التنقيب الدؤوب والتحلي بالصبر لإخراج شيء يذكر، لذا فهي محاولة متواضعة بكل المقاييس. وقد انقسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة. حاول الباحث في المقدمة إلقاء الضوء على مدينة الفسطاط التي ورثتها مصر القديمة (العتيقة) فيما بعد، ثم كيفية ظهور مصر القديمة وأقول نجم الفسطاط. في الفصل الأول انصب اهتمام الباحث حول معالجة عدة أمور منها وضع مسمى للمدينة حتى لا يحدث اللبس، ثم بعد ذلك عالج الجوانب العمرانية فيها ليقطع بذلك

أصابع الإتهام التى وجهت إليها من حيث كونها خرائب ومأوى لأعمال اللصوصية على مر التاريخ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران، كذلك تناول فيه أهم المنشآت الدينية والاجتماعية.

وفى الفصل الثانى ركز الباحث على النظام الإدارى بالمدينة وما يتضمنه هيكل الجهاز الإدارى من أمير اللوا والقاضى والصوباشى ورجاله وكذلك المحتسب وخصص الجزء الأخير من الفصل لإلقاء الضوء على النظام المالى والجمركى للمدينة. أما الفصل الثالث فقد خصصه الباحث للزراعة والصناعة فقط. فتناول نظم الزراعة والرى وأشكال الحيازة ومدى صلتها بنظام الالتزام رغم أنها مدينة حضرية وليست ريفية، وظهرت بها العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار والزيت والشموع ونجارة المراكب والحياسة والصباغة والصناعات الغذائية وغيرها من الصناعات التى تؤكد أنها مدينة بكل المقاييس ذات شكل ونظام معين.

أما الفصل الرابع فقد استعرض فيه الباحث التجارة منفردة عن الزراعة والصناعة رغم أنها تمثل معهما محور الحياة الاقتصادية. وبدأ الفصل على غير العادة من حيث التركيز على كونها مدينة وليست حياً يؤكد ذلك النشاط التجارى الضخم بها مع وجود ميناء مستقل ربما يتبادر لأذهان البعض تأخر الإشارة الواضحة حول كونها مدينة أم لا ؟ فهذا أمر مقصود بعد تناول الصناعة والنشاط التجارى بها وإثبات أن الزراعة التى ظهرت بها زراعة بساتين أى أنها " المدينة المتريفة " ولا تنفى عنها صفة المدينة الحضرية.

وفى الفصل الخامس تناول فيه الباحث الحياة الاجتماعية والصحية بالمدينة. بدأ بتعدد فئات المجتمع التى شكلت النسيج الاجتماعى لها من أتراك ومماليك ومصريين ورقيق وغيرهم واستطرد إلى الأحوال الشخصية بها من أمور الزواج والطلاق والنفقة. وتناول أمور الصحة بها فى ضوء ما هو متاح من مادة.

وخصص الفصل الأخير لدراسة النواحي الدينية والثقافية من حيث مظاهر الحياة الدينية لدى المسلمين والنصارى بها ودور الدولة فى تنظيم شئون الحياة الدينية والأوقاف. وشملت النواحي الثقافية بها أهم الكتاتيب والمدارس وبعض المهتمين بالأحوال الثقافية بها والتى جاءت فقيرة إلى حد ما نظراً لقلة المادة فى هذا الجانب.

III

وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصلنا إليها إضافة إلى بعض الملاحق عن الأشكال والصور التي تخدم الدراسة بشكل مباشر وصريح، وبعض الوثائق الهامة عن تاريخ مصر القديمة في القرن السابع عشر الميلادي.

واعتمدت الدراسة على العديد من الوثائق والمصادر يأتي في مقدمتها وثائق المحاكم الشرعية ودفاتر الروزنامة التي توصل الباحث إلى إخراج بعض منها لم يكن معروفاً من قبل يعود تاريخها إلى عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م وما بعدها ويعود ذلك إلى أن مثل هذه الدفاتر تفتقد إلى الفهرسة الجيدة. ومن يدرى ربما نتوصل إلى دفاتر أخرى تعود إلى ما قبل هذا التاريخ، وعموماً فقد قمنا بنشر بعض أصولها في ملاحق هذه الدراسة حتى تتضح الرؤية.

واعتمدنا بعض الوقت على وثائق من دفاتر الرزق والالتزام ولكن على نطاق ضيق بما يخدم دراستنا.

واطلع الباحث على العديد من المخطوطات المحفوظة بدار الكتب المصرية - قسم المخطوطات - سواء كانت مخطوطات تاريخية أو جغرافية أو فقهية أو في التصوف والمعارف العامة وبعض المخطوطات القبطية التي تقع تحت رمز (لاهوت) ولكن على نطاق ضيق لصعوبتها على الباحث المبتدئ.

وقد قدمت المصادر التاريخية وكتب الخطط للمقريزي وغيره مادة علمية لا بأس بها. إضافة إلى كتابات الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المدينة خلال القرن فكانوا شاهد عيان على أحداث تلك الفترة. وقد حصل الباحث على نسخ هذه الكتابات من المجمع العلمي بالقاهرة.

وهناك العديد من المقالات العربية والمعرية والإفريقية وبعض المقالات التي استند إليها الباحث بشكل يسند المادة الوثائقية والمصدرية حتى يتحقق التلاحم بين جنبات الموضوعات المختلفة والتي سرعان ما ظهرت - نتيجة ذلك - كجسد واحد لا أثر للجروح به رغم العمليات الجراحية العديدة التي ألمت به.

ويوجه الباحث الشكر إلى الصديق أحمد عبد العزيز الباحث بجامعة الإسكندرية الذي أمدني بالعديد من المصادر النادرة التي يتعذر الحصول عليها، وكذلك الأخ والصديق أيمن أحمد الباحث بجامعة القاهرة الذي طالما نتناقش معاً مناقشات جادة ومثمرة تكشف لى عن معلومات وأفكار هامة.

ويتقدم الباحث بالشكر للدكتور ميشيل توشرار (بجامعة أكس بروفانس) والباحث بالمعهد الفرنسى بالقاهرة بما قدمه لى من معلومات ثمينة وكذلك بعض المقالات الهامة التى تمس الدراسة.

وأخص بالشكر العاملين بالمجمع العلمى بالقاهرة وكذلك دار الوثائق والكتب القومية ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة وغيرها من الأماكن التى تردد عليها الباحث وكذلك بعض الشخصيات التى يضيق المقام عن ذكرها من سكان مصر القديمة التى تقابل معها الباحث أثناء جولاته بالمدينة فهؤلاء قد قدموا للباحث المعلومات الغزيرة عن الواقع الفعلى الآن للمنطقة الأمر الذى سهل على الباحث محاولة تضيق هوة الزمان بما يتناسب إلى حد ما مع الواقع الفعلى للمدينة دون الإخلال بالإطار التاريخى والفكرى للعصر الذى تتناوله الدراسة حتى لا تأتى الكتابة فى جانب والواقع فى جانب آخر.

ويتقدم الباحث بجزيل الشكر لأستاذه الفاضل الدكتور أحمد حسن عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة - والمشرف المشارك - على ما قدمه للباحث من ملاحظات ومعلومات هامة أضاعت الكثير من مجاهل البحث.

وفى البداية والنهاية يبقى دور الأستاذ الدكتور محمد عفيفى عبد الخالق المشرف على هذه الدراسة فهو لم يكن مشرفاً فحسب بل كان بمثابة الأستاذ والأخ والصديق والأب الروحى للباحث، وإليه ترجع فكرة اختيار موضوع البحث. فقد ساهم بخبرته فى العصر العثمانى بإرشاد الباحث عن كيفية التعامل مع وثائق العصر ومصادره ولم يأل جهداً فى توجيه الباحث الذى طالما يحتاج إلى مجهود مضمّن بحكم قلة خبرته وإذا أتى بجديد فإن الفضل يعود إلى الدكتور عفيفى الذى غرس هذا النبت. ولا يعنى ذلك تحمله أى قصور قد وقع فيه الباحث فالمسئولية أولاً وأخيراً تقع على عاتق الباحث.

تمهيد

مصر القديمة قبيل القرن السابع عشر

قبل الخوض فى دراسة مدينة مصر القديمة (وريثة الفسطاط) خلال القرن السابع عشر الميلادى، رأينا أن نضع أيدينا على بعض النقاط الهامة حتى تتضح لنا الصورة.

نقول أن الإنسانية قد عرفت منذ بواكير الحضارات الأولى التى قامت فى حضن الأنهار سواء الحضارة الفرعونية أو حضارة بلاد الرافدين وفينيقيا أو حضارات الإغريق والرومان فكرة بناء المدن. فعندما هبط المصرى القديم من فوق الهضبتين الشرقية والغربية فراراً من شبح الجفاف الذى أرخى سدوله عليهما، واستقر حول ضفتى وادى النيل، فعرف الزراعة ونعم بحياة الاستقرار، فعندئذ بدأ يفكر فى بناء القرى الريفية وما تبع ذلك من تشييد المدن التى ضمت العديد من هذه القرى.

وكذلك لا ننكر فضل الحضارة الإغريقية فى هذا، فقد قدمت لنا العديد من المدن أمثال مدينة موكيناي وكورنثا وأثينا وإسبرطة وغيرهم، فكانت كلمة مدينة عندهم تعنى (Polis) أى تجمع سكانى وسياسى يضم عدة قبائل مختلفة^(١). صحيح أن الإغريق قد أخذوا فكرة الـ (Polis) من السومريين الذين سبقوهم فى هذا المضمار بأكثر من ألفى عام أى سنة ٣٠٠٠ ق.م، ولكن يحسب للإغريق أنهم طوروا نظام المدينة وجعلوا لها شخصيتها المستقلة.

وعندما ظهر الإسلام وقامت الدولة العربية الإسلامية، وتوحدت الجزيرة العربية تحت لوائها بعدما عاش العرب قروناً طويلة فى حروبٍ وتناحرٍ وفرقةٍ قبل الإسلام. وما تبع ذلك من فتوحات إسلامية وشعور الفاتحين بحاجتهم إلى الاستقرار فى تلك الأقاليم التى فتحوها. فشرعوا فى تأسيس المدن الجديدة التى كانت أشبه بالمعسكرات الحربية واتخذوها

(١) سيد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم. دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦، ص٩٧

عواصم لأقاليمهم وأطلقوا عليها لقب " الأمصار " فكانت البصرة والكوفة أولى الأمصار الإسلامية^(١).

فكانت المدينة النبوية أو المنورة - التي حلت محل يثرب بعد نزول النبي صلى الله عليه وسلم بها واتخذها داراً له - أول ظهور للفظ " مدينة فى الإسلام "، فقد ورد أن اللفظ أصله أرامى والمقطع (دين) يعنى العدل والديان فى اللغات العربية والآرامية والعبرية هو القاضى فبذلك يطلق لفظ مدينة على المكان الذى يطبق فيه العدل أو المكان الذى توجد فيه الحكومة ومقر ممثلى الدولة أو المكان الذى يكون فيه القضاء^(٢).

وتخطيط المدينة الإسلامية جاء مبسطاً بعيداً عن التعقيد، فكان الفاتحون يبدؤون أولاً بالجامع ودار الإمارة والسوق، وفى أحيان كثيرة كان الجامع والسوق داراً للإمارة، فالمسجد عموماً هو حجر الزاوية فى المدينة الإسلامية^(٣).

ظهر ذلك بوضوح فى مدينة الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية والتي ضمرت بمرور الأيام وحلت محلها مدينة أخرى أخذت لفظ مدينة مصر أو مصر العتيقة ومصر القديمة كما سنرى.

الفسطاط : ظهورها، زموها، أقولها :

شرع عمرو بن العاص بعد عودته من الإسكندرية وإتمام فتح مصر فى تخطيط الفسطاط عام ٢١هـ / ٦٤١م لتكون أولى عواصم مصر الإسلامية وهى تقع إلى الشمال من مدينة بابلليون العتيقة بمسافة ٤٢٠ متراً حيث عسكرت قوات عمرو للمرة الأولى، وذلك بهدف جعلها دار مستقر للقبائل العربية، وقد عهد عمرو إلى أربعة من المسلمين بالفصل بين

(١) أيمن فؤاد سيد: المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التى تناولتها. بحث فى المجلة التاريخية. العدد ٤٠ لسنة ١٩٩٧، ص ٤٧

(٢) أيمن فؤاد سيد: المرجع السابق، ص ٤٩

(٣) سعاد ماهر: تطور العمارات الإسلامية بتطور وظائفها. مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ١٨ عام ١٩٧١، ص ٥٥

القبائل فى تنظيم خطة كل منها، وهم معاوية ابن حديج التجيبى وشريك بن سمي الغطيفى وعمر بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافى.

وتم تقسيم الفسطاط على هيئة خطط مثل خطة أهل الراية أى حاملى الأعلام والمواد هنا ألوية القبائل - حيث كان لكل قبيلة لواء يحمله رئيسها، وكان أصحاب الألوية رؤساء الجند لذلك كانت هذه الخطة تسمى خطة الرؤساء^(١). وخطنا الحمراء الدنيا والقصى^(٢). وكانت أكبر الخطط تجيب وعطيف وخولان ومعافر وكلها قبائل يمنية، وما أن أخذت تكتمل هذه الخطط حتى أخذ الناس يتسابقون فيها على بناء الدور والمساجد^(٣).

وقد خالفت بتلر Butler هذا الرأى فقالت " والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر - أى تخطيط الفسطاط - إنما هم القبط لدرابتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب ". ولكن يرى الكثير من المؤرخين وعلى رأسهم عبد الرحمن زكى أن تخطيط الفسطاط فى ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة من القبط^(٤).

وقد عمرت الفسطاط واتسعت حتى قال ابن حوقل إنها " مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ للمسافة^(٥) على غاية العمارة والخصب والطيبة واللذة ذات رحاب فى محالها وأسواق عظام ومتاجر فخام " ^(٦). ويرى أندريه ريمون أن مساحة الفسطاط قد بلغت زمن الفاطميين نحو ٣٠٠ هكتار، (أى ٧٤٠ فداناً)^(٧). فى حين قدرها بعض الجغرافيين المحدثين بنحو ٢٧٠٠ متراً^(٨).

(١) جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ج ٢، مراجعة حسين مؤنس، دار الهلال، ط ١، هامش ص ١٨٢
(٢) الحمراء: بطن من عقب أرش بن أراس بن جزيلة بن لخم من القحطانية. انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب

القديم والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط ٨، ١٩٩٧، ص ٢٩٩

(٣) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، ١٩٦١، ص ٥٧

(٤) عبد الرحمن زكى: القاهرة، ١٩٤٣، ص ١١

(٥) الفرسخ: مقياس فرنسى يبلغ نحو عشرة آلاف كم

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٣٧

(٧) أندريه ريمون: القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤، ص ٦٢

(٨) فتحى محمد مصلحى: تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى، ص ١٢٣

وقد امتاز موقع الفسطاط بحصانة طبيعية، يتضح لنا ذلك من خلال تحديد مسار المدينة طبيعياً فهي تمتد شمالاً حتى كوم الجارح وقنطرة السد منطلقة جنوباً من الرصد " الذى كان قائماً على نروة الشرف المطل على بركة الحبش " - وحدها الغربى هو الشاطئ الأيمن لنهر النيل والذى كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الشاطئ نحو الغرب والحد الشرقى ينتهى إلى القرافة^(١).

وكثر السكان بالفسطاط حتى أننا نجد المقدسى فى القرن الرابع الهجرى لم يكتفِ بما سمعه عن مدى اكتظاظها بالسكان فأراد أن يتأكد من ذلك فقال " وسمعتهم يذكرون إنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف رجل فلم أصدق حتى خرجت مع المتسعة إلى سوق الطير فرأيت الأمر قريباً مما قالوا "^(٢). ويستخلص أندريه ريمون رقماً لتعداد سكان الفسطاط خلال القرن الرابع الهجرى أيضاً من وسط العديد من التقديرات، ويرى أن عدد سكانها آنذاك يقترب من ١٢٠ ألف نسمة^(٣).

ويرصد خالد عزب حال الفسطاط فى العصور التالية من النشأة فقد ازدهرت فى العصر الأموى على يد الوالى مسلمة بن مخلد الأنصارى " ٤٧-٦٢ هـ / ٦٦٧-٦٨١ م " الذى بنى مقياس الروضة وداراً للصناعة وكذلك على يد عبد الملك بن مروان " ٧٩-٨٩ هـ / ٦٨٢-٧٠٥ م " الذى شهدت الفسطاط فى عهده نهضة عمرانية كبيرة^(٤).

واستمر عمران الفسطاط وازدهارها حتى زمن الفاطميين وبالتحديد منذ بداية حكم المستنصر " ٤٢٧-٤٨٧ هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤ م "، فىرى المقرئى وغيره من المؤرخين أن تدهور الفسطاط حدث نتيجة سببين:-

(١) أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠، ص ٥٩

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠، ص ١٩٨

(٣) أندريه ريمون: المرجع السابق، ص ٦٢

(٤) خالد عزب: الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية. مقال مطبوع ضمن مقالات الهيئة العامة لقصور الثقافة للإحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام مصر، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٤٧

- الشدة المستنصرية وما تبعها من خراب ودمار حل في ربوع البلاد.
- حريق الفسطاط في عهد وزارة شاور بن مجير السعدى عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م أثناء قدوم عمورى ملك الأفرنج - أو مرى كما نعته ابن أبى السرور البكرى - ونزل في جموع على بركة الحبش " يريد الاستيلاء على مملكة مصر وأخذ الفسطاط والقاهرة "(١). فأضرمت النار في الفسطاط حتى احترقت، وإستولى بعد ذلك أسد الدين شيركوه على الوزارة، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً إذ توفى وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي عمّر الكثير من خرائب الفسطاط، فلم يحذو حذو سابقيه من بناء ضواحٍ جديدة وترك آثار الماضي، بل عمل جاهداً على إحياء المدن القديمة، فقد عقد العزم على إحياء مدينة مصر نعى الفسطاط السابقة والتي عمها الخراب وتراكت عليها الأتربة(٢). فضرب سوراً في استحكامات بدر الجمالى القديمة، وقيل أنه مد سور بدر الجمالى شمالاً من نهايته عند الخليج على النيل حيث موضع حصن المقس، أما من الجهة الشرقية فقد مد الحائط القديم جنوباً حتى باب الوزير قرب القلعة.

ويرى ستانلى لينبول " أن فكرة الأسوار لم تكن إلا تطوراً لأسوار بدر الجمالى القديمة "(٣). ولكن رغم ذلك لا ننكر فضل صلاح الدين فى وقف النزيف الذى حل بمدينة مصر منذ عهد الفاطميين. فقد كان صلاح الدين مشغولاً بمشروعاته الحربية فى بلاد الشام لدرء خطر الصليبيين عن ديار الإسلام.

وخلال العصر المملوكى نجد أن مدينة مصر [القديمة] قد حدث اهتمام بها من جانب بعض السلاطين وجاء ذلك مرهوناً بأحوال البلاد الأمنية. فالناصر محمد بن قلاوون شيد بها بعض المباني الدينية كالجامع الجديد الناصر قرب قم الخليج، وكذلك انصب اهتمام

(١) محمد بن أبى السرور البكرى: قطف الأزهار من الخطط والآثار. مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٥٧

ميكرو فيلم ٤٥٨٥٢ ورقة ٤٨

(٢) ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن، هيئة الكتاب، ١٩٩٧، ص ١٥٦

(٣) نفس المرجع: ص ١٥٧

الغورى حول ذات المنطقة فقام بهدم قناطر المياه القديمة وأعاد تشييدها من جديد عند مورد الخلفاء قرب الجامع الجديد مما وفر المياه للمنطقة التى دبت فيها الزروع والبساتين بعد السنوات العجاف التى شهدها وحل بها السكان بعد الهجر.

ولما أقبل العصر العثمانى اتخذت مصر القديمة منعطفاً آخر، فقد درج على وصفها بلقب [حى] رغم احتوائها على ميناء أشبه بخلية النحل من كثرة الرواج التجارى له كما سنرى. وقيل أن الخراب قد عم أجزاء كبيرة منها وقل نشاطها واتخذت بولاق دور الزعامة بوصفها ميناء القاهرة الأول. فهل صحيح أن مصر القديمة قد توارى دورها خلال العصر العثمانى خاصة القرن السابع عشر وهى الفترة المعنية بالدراسة ؟ وهل عم الخراب تلك المدينة وريثة الفسوط ذات الماضى التليد ؟ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران من جانب الحكومة (الإدارة العثمانية) ؟

هذه بعض التساؤلات سوف نحاول الإجابة عنها فى جوٍ من الإنصاف بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية وكشف اللثام عن مدينة كانت ذات ماضٍ جميل حفها السوادى الأمين بالرعاية والنماء عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

الفصل الأول

مصر القديمة من منظور عمراني

مصر القديمة من منظور عمراني

تقع مصر القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل، ومن ملحقاتها جزيرة الروضة التي يفصلها عنها أحد أفرع النهر، ولذلك فهي ذات موقع جغرافي متميز، تطل على منفذ مائي سهل عليها الاتصال بالخارج ونشر العمران في ربوعها. إضافة إلى أنها وريثة لمدينتين قديمتين كانتا لهما عمقاً في التاريخ نعتى مدينة بابلون القديمة على ساحل النيل ومدينة الفسطاط الإسلامية.

وقبل التطرق إلى الجوانب العمرانية في المدينة لابد لنا هنا من وقفة لتحديد مشكلة قد تثير بعض الجدل، وهي " مسمى المدينة " وذلك حتى لا يحدث اللبس، ولارتباط ذلك بالعمران كما سنرى، ولنتفق معاً حول مفهوم واحد نطلقه على المدينة موضوع الدراسة.

فقد لاحظنا تضارب كبير بين أقوال الرحالة لتحديد مسمى مصر القديمة، وظهر ذلك بوضوح لدى الرحالة الفرنسيون الذين زاروا المدينة خلال القرن السابع عشر.

فالمصادر العربية دائماً تطلق عليها " مدينة مصر " في حين أن أغلب الرحالة الأجانب يسمونها " القاهرة القديمة " وقد خرج من عباءة هذين اللفظين مسميات أخرى. فمثلاً يطلق عليها الرحالة " جوهان ويلد Wild " اسم مصر العتيقة^(١). وهي نفس المعنى الإيطالي الذي وضعه " برمون Premond " وهو "مصر البيطيش Misrul-betich"^(٢). ولكن نجد أغلبهم يركز حول لفظ " بابلون "^(٣) التي توصف بأنها القاهرة القديمة الآن. والتي تقع جنوبى القاهرة على بعد ٥ كيلو متر، وقد شيدت على أنقاض مدينة الفسطاط الغابرة^(٤).

(١) Johann Wild: Voyage en Egypte "1610-1616" ch30 p167.

(٢) Gabriel. Premond وكذلك نفس المعنى الإيطالي انظر:

George Sandys: Voyages en Egypte "1611" p182

(٣) والتي يرى بلان أنها مدينة فرعونية - بيزنطية، أى هى بناء فرعونى-بيزنطى فى نفس الوقت. انظر:

Henry.Blunt: Voyege en Egypte "1634-1635" p127

(٤) Jacques Albert. Voyage "1634-1635" p138 =

ولكن يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن المؤرخين الأوروبيين قد خلطوا منذ العصور الوسطى وحتى القرن ١٧م بين بابلون وبابل (بابلونيا Babylonia) فأطلقوا - كما يروى جرجى زيدان - اسم بابلونيا على القاهرة، بل على مصر كلها فكانوا يقولون "سلطان بابلونيا" ويريدون سلطان مصر. ومما يؤكد رأى زيدان قول الرحالة فارمنيل Fermanel الذى زار المنطقة عام ١٦٣١ ووضع عدة مسميات للقاهرة منها بابلون^(١).

وعموماً فقد درج المصريون على تسمية بابلون قصر الشمع والذى لا تزال بقاياه محتفظة بهذا الاسم إلى الآن، بل إن بعض الشوارع والمقاهى خلف جامع عمرو بن العاص قرب مارى جرجس تحمل اسم "قصر الشمع".

على أية حال نخرج من هذا التضارب حول تحديد اسم للمدينة بنتائج هامة. أن المصادر العربية تطلق عليها اسم "مدينة مصر" باعتبار أن موضعها هو موضع مدينة القسطنطينية التى هى نواة مصر الإسلامية من وجهة نظر تلك المصادر. وخلال العصر المملوكى نجد مصدراً مثل المقرئى يطلق عليها نفس المسمى. ثم يعود فيقول "مصر القديمة" كتحديد لتلك المدينة التى آل أمرها إلى خراب حتى وصفها بلفظ "قديمة"^(٢).

أما المصادر غير العربية فنجدتها تركز حول المسميات السابقة الذكر، فلا ندهش حين نرى على وجه التحديد الرحالة الفرنسيين الذين زاروا المدينة خلال القرن يطلقون عليها مسمى "بابلون" أو "القاهرة القديمة Le vieux caire". ونلمس العذر لهؤلاء جمعياً خاصة وأن هدفهم واحد وبؤرة اهتمامهم كانت موجهة نحو مدن ذات تاريخ عريق

= ومدينة بابلون العتيقة قد شيد فيها حصن "بابلون" ويرجح إنه من إنشاء المصريين القدماء واسمه الأصلي "بى-هافى-ن-أون" Pi-Hapi-N-On ، ولكن يرى المستشرق كازانوف أن الإغريق حرفوه إلى بابلون Bobylone وتبعهم فى ذلك الرومان والعرب. جرجى زيدان: المرجع السابق، هامش ص ١٨١ - انظر: ملحق الأشكال: خريطة توضح التركيب العمرانى لبابلون كما رآها كليرجيه.

(١) Gilles Fermanel: Voyage en Egypte "1631". Inprine en 1975. Francais p41

(٢) ويرى المقرئى إن الذى بنى قصر الشمع هو طخشاشت أحد ملوك الفرس عندما جاء لمصر واستولى عليها، فأراد أن يبنى قصراً للفرس فيه بيت نار على شاطئ النيل الشرقى. وقد عرف بقصر الشمع لأن به باب يقال له باب الشمع، حيث يوجد فيه الشمع فى رأس كل سنة، وفى هذه الليلة إذا دخلت الشمس البروج، يعلم الناس بوقود الشمع أن الشمس نقلت من البرج الذى كانت فيه إلى برج آخر. انظر: المقرئى. الخطط. ج ٢، ص ٦١

ظلت عاصمة لمصر فى فترات سابقة سواء بابلليون أو الفسطاط أو حتى العسكر والقطائع والقاهرة المعزية. وكانت حركة العواصم هذه فى منطقة مركزية بالنسبة لمصر^(٢)

العمران بمصر القديمة :

بادئ ذى بدء لابد لنا أن نحدد موقع المدينة جغرافياً حتى يتثنى لنا تحديد مواضع العمران، فقد حددها المقريزى خلال العصر المملوكى فقال " إن مدينة مصر محددة الآن بحدود أربع. فحدها الشرقى اليوم من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح وتمر من كوم الجارح وتجعل كيما من مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد حيث أول بركة الحبش فهذا طول مصر من جهة الشرق وكان يقال لهذه الجهة عمل فوق .. أما حدها الغربى من قناطر السباع خارج القاهرة إلى موردة الخفاء وتأخذ على شاطئ النيل إلى دير الطين وهذا طولها من جهة الغرب، وحدها القبلى من شاطئ النيل بدير الطين حيث ينتهى الحد الغربى إلى بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقى فهذا عرض مصر من الجنوب التى يسميها أهل مصر الجهة القبلىة، وحدها البحرى من قناطر السباع حيث ابتداء الحد الغربى إلى قلعة الجبل حيث ابتداء الحد الشرقى فهذا حد مصر من ناحية الشمال، وما بين الجهات الأربعة فإنه يطلق عليه وقتئذ مصر^(١).

إضافة إلى كل ما ذكره المقريزى وجد خط فم الخليج ومعه خط الجامع الجديد وخط السبع سقايات الذى هو من جملة الحمراء الدنيا، كل ذلك ضمن حدود مصر القديمة.

ومن خلال استقراءنا لوثائق القرن ١٧ نجد أن تحديد المقريزى السابق قد طرأت عليه بعض التغيرات، نجد أن جزيرة الروضة تدخل ضمن حدود مصر القديمة، فنقول "

(٢) انظر: الخريطة الخاصة بحركة العواصم فى ملحق رقم (١) الخاص بالأشكال، ص ١٩٢

(١) المقريزى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٩، ١٥٠

روضة مصر القديمة^(١). والتي يرى كازانوف أنهما لم تكن موجودة في زمن الفراعنة، بل كان موقعها وقتئذ جزءا من الشاطئ الأيسر للنيل^(٢). ومن خلال حفريات الفسطاط يؤكد لنا على بهجت وألبير جبريل أن جزيرة الروضة من ملحقات الفسطاط الطبيعية، وقد بنى بها محمد بن طغج الإخشيد عام ٣٢٣هـ/٩٣٢م دارا له ذات بساتين واتخذ فيها دارا للنوبة ودارا للغلان^(٣).

إضافة إلى خط قناطر السباع (السيدة زينب) فقد أشار إليه المقرئ على أنه بداية الحد الغربى لمصر القديمة، في حين تذكر وثائق القرن أجزاء من قناطر السباع هذه ضمن حدود مصر القديمة فتقول: "درب السيدة زينب بخط قناطر السباع المعدود من درب مصر القديمة"^(٤).

ويروق للرحالة نتزشيتز Neitzschitz الذى زار المدينة فى بداية القرن أن يقسمها إلى قسمين هما "بابلون القديمة - بابلون الحديثة"، ويقول قبابليون القديمة لم تكن مبنية جيدا، ولم تكن مأهولة بالسكان مثل بابلون الجديدة^(٥). وتقسم نتزو هنا يوضح حقيقة هامة أن العمران قد حدث بالفعل فى المدينة، وهو ما دفع نتزشيتز وغيره إلى تأييد هذا التقسيم الذى نقبله مبدئيا بصفته تقسيما جرافيا إن لم يكن يذكر صراحة فى نصوصنا.

وهنا يجب أن نأخذ فى الاعتبار أموراً هامة لكى نوفق بين ما رصده المقرئ، وما جرى على لسان الرحالة خلال القرن، إضافة إلى شئ هام كان له دور كبير فى تحديد المدينة

(١) يروى السيوطى أن الروضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر وبين مدينة الجيزة أو الجيزة وعرفت أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ثم قيل لها جزيرة الحصن وعرفت بالروضة منذ زمن الأفضل بن

أمير الجيوش بدر الجمالى إلى اليوم. انظر: السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٣٦

(٢) على بهجت وألبير جبريل: حفريات الفسطاط، دار الكتب، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، ص ٣١

(٣) نفسه: ص ٣١ - انظر ملحق الأشكال الخاص بمنظر الفسطاط ومواقع الحفر.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٥٥، ص ٢٠٨ - وأيضا محكمة الباب العالى: س ١٢٥، م ١٠٢، ص ٣٩ - وقناطر السباع قد أنشأها الظاهر بيبرس ١٢٥٩-١٢٧٧ وكان موقعها أمام السيدة زينب أمام المسجد الحالى، وقد ربطت حتى السيدة بالحنفى والناصرية من الشمال. انظر: فتحي محمد مصيلحى: المرجع السابق، ص ١٢٤

(٥) Neitzschitz: Voyages en Egypte "1634-1636". P227

طبوغرافياً نقصد نهر النيل الذى كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الشاطئ نحو الغرب. فالمقريزى يجعل نهر النيل هو الحد الطبيعى الغربى لمصر القديمة، وعندما أقبل زمن الكامل الأيوبي تقلص الماء عند ساحل مصر القديمة فقام الحاكم بحفر البحر حتى صار الماء يحيط بالمقياس وجزيرة الروضة، وتتابع السنين جعل الحد الغربى هذا غير مستقر حيث استمر نهر النيل فى عملية النحر وتوسيع المجرى والترسيب على الضفة الشرقية الأمر الذى أضاف مساحات إلى مصر القديمة قرب جامع عمرو ومنطقة مارى جرجس التى أصبحت أرض بساتين ونخيل خلال العصر العثمانى محاطة بالعديد من المباني والمنازل الجميلة. أما قول الرحالة نتزو [بابليون القديمة - بابليون الجديدة] دون الإشارة الواضحة لتحديد المدينة يجعلنا نؤكد إنه اكتفى بالتحديد الذى وضعه سابقوه وإن كان قد أضاف المناطق التى حدث فيها تطور وعمران حتى وصفها " بالجديدة ".

وعموماً نؤكد لنا الوثائق أموراً أخرى لتصحيح وتحديد بعض المفاهيم التى درجت على الألسنة كفكرة " خرائب مصر القديمة " و " التحديد الدقيق لها من خلال الوثائق ". وقد وجدنا أنفسنا أمام عدة تساؤلات: متى حدث الخراب بمصر القديمة ؟ ولماذا ؟ وهل حدث عمران لتلك الخرائب ؟ وظهرت خريطة جديدة للمدينة ؟ وما السبب فى هذه المحاولات العمرانية ؟

والحق أنها تساؤلات فى غاية الأهمية، وربما تأتى الإجابة عليها لتبرز حقائق أهم. فالتساؤل عن بداية حدوث الخراب بمصر القديمة يعود إلى هجرة سكانها إلى العاصمة الجديدة القاهرة ، إضافة إلى كثرة المجاعات والأوبئة التى حلت بالمنطقة وهلاك الكثيرين وفرار الأحياء إلى المناطق المجاورة تاركين المدينة العتيقة تراثاً مجدها الزائل بعدما تهدمت العديد من المباني بها.

وقد لاحظ ذلك الرحالة جوهان وولد Johann Wild الذى زارها فى الفترة " ١٦١٠ - ١٦١٦ " ورصد بها نحو ٤ أحياء، وقال " إن المدينة قد تهدمت كلياً، وأصبحت بدون أسوار مرتفعة، ولذلك كان من الممكن بسهولة دخولها أو الخروج

منها^(١). وأكدت وثائق العصر ذلك بذكر مناطق عديدة بالمدينة قد حل بها الخراب وأعطتها لفظ " خلاء وكيمان " كمنطقة الخلاء والكيمان خلف جامع عمرو قرب حمام جمدار، والخرائب التي ظهرت بخط دار النحاس وفم الخليج وكوم الجارج.

كل هذا جاء نتيجة طبيعية بأن يترك السكان تلك الخرائب والفرار من شبح الجوع والطاعون يلتمسون أماكن أكثر أماناً وسعة في العيش فلم يجدوا أفضل من القاهرة التي أصبحت أغنى وأكثر الجهات سكاناً. ولكن لم يستمر الحال بالمدينة على هذا المنوال، صحيح أنه قد بقي بها بعض سكانها رغم ما ألم بها من خراب لكنهم كانوا فئة قليلة حتى حدثت بعض المحاولات لتعمير المنطقة خاصة في النصف الثاني من القرن ١٧. فلا ننسى أن الدمار قد حل بمدينة مصر [الفسطاط] منذ زمن وبالتحديد عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م عندما تعرضت للحرائق أثناء وزارة شاور بن مجير السعدى. ورأينا كيف كانت هناك بعض المحاولات السابقة لتعمير المنطقة سواء من جانب الأيوبيين أو المماليك^(٢). وقد اهتمت الإدارة العثمانية بتعمير المنطقة وإن جاء ذلك في النصف الثاني من القرن بسبب وقوع العديد من المجاعات في سنوات متفرقة في النصف الأول حالت دون إحداث محاولات عمرانية ذات شأن كبير يذكر. فقد وجدنا بيورلدى صادر فى ٩ صفر عام ١٠١٩هـ / ١٦٠٩م للزنى حسين صوباشى مصر القديمة آنذاك بضرورة تعمير الأماكن الخربة^(٣). ولكن لم يحدد البيورلدى أى المناطق الخربة يقصد ؟ وما حجم التعمير الذى سوف يحدث بها ؟

^(١)Johann Wild: Voyage, "1610-1616" en 1973. Ch30. P15

وقد لاحظ ذلك أيضاً الرحالة (تيفنو Thevenot) الذى تجول فى المدينة فى بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر، وأعلن أنها مدينة متهدمة، وما زال يوجد حالياً (أى وقت زيارته) بعض المنازل يسكنها العديد من الناس مبتعدين عن القاهرة الجديدة التى يتكالب عليها الكثيرون. انظر:

M. T. E Thevenot: Voyage De Levant. A. Pris p263

^(٢) انظر ص ٤ من مقدمة دراستنا هذه

^(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٥٦٥، ص ١٦٣

فى حين عثرنا على العديد من الخرائب بظاهر قصر الشمع ممثلة بالأتربة وخالية من السكان، ويخشى على سكان المنطقة المتاخمة لها، لذلك وقع بيورلدى شريف من طرف الديوان عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٣م يرى بأن " كل من يبنى ويعمر بهذا المكان يكون ملكاً له قصداً لدفع الضرر عن الجيران وعن الذين يمرون بهذا المكان.... " (١). وبالفعل قام بعض النصارى القاطنين بالمنطقة بتنظيف هذه الأرض الخالية وبنوا عليها بيوتاً عديدة بمساعدة ناظر كنيسة أبى سرجه (٢). والجدير بالذكر أن هذه الأرض فى البداية عندما كانت خراباً جارية فى وقف زاوية النعمانية، وأن البناء الموضوع عليها جارياً فى وقف الكنيسة المذكورة.

وفى النصف الثانى من القرن كثرت الحركة العمرانية بالمدينة بشكل واضح للعيان، وفى أطراف حمام جمدار تجاه جامع الدبان قد انتشرت أكوام الأتربة التى يرجح أنها بيوت قد تهدمت لجماعة الفقراء المنتشرين بالمنطقة، ذلك أن شخصاً يدعى عيسى المضبوى قد رغب هو وجماعة الفقراء التراسين المساعدين بالعنبر الشريف بمصر القديمة فى إزالة كوم التراب وعمارته لهم، وفى الحال برز الأمر الشريف فى ١٣ ربيع الأول ١٠٧١هـ/١٦٦١م يقر لهؤلاء الفقراء بتعمير المنطقة إذا لم تكن فى يد أحد ولا فى وقف من الأوقاف، أما إذا كانت غير ذلك، بحيث أنها ضمن أملاك أو أوقاف شخص آخر فليحضر وعليه تعمير ذلك، ولكن إذا لم يحضر بعد ثلاثة أيام فلا يتعرض من بعد ذلك لمن يرغب فى إزالة ذلك وتعميره حسب الأمر الشريف (٣).

وعلى العادة المتبعة آنذاك فقد أجهر النداء، واتصل ذلك بمسامع الخاص والعام من أهالى مصر القديمة، وقد مضت الثلاثة أيام ولم يحضر مدعٍ بشئ من الكوم المذكور. فجاء جماعة التراسين المذكورين وعلى رأسهم المحترم أحمد بك سالم الشهير بالردكىنى العقيلوى،

(١) الباب العالى: س ١٢٤، م ١٥٢٤، ص ٣٢٣ - انظر: ملحق رقم (٢) الخاص بمجموعة الوثائق التى قمنا بنشرها والتى

توضح العمران بمصر القديمة خلال ق ١٧

(٢) نفسه: ص ٣٢٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٤٧٢، ص ٥٦٨

والمعلم على وأخوه أحمد ولدى المرحوم الحاج حسين بيسارة وشرعوا فى تعميره وامتلاكه^(١).

ويبدو منذ الوهلة الأولى أن جل اهتمام كل من الإدارة العثمانية وكذلك الأهالى كان موجهاً لتعمير منطقة الشيخ شهاب المجذوب وحول زاويته بأطراف حمام جمدار قرب الجامع المسلمية أو الدبان، فهناك العديد من الأوامر الشريفة قد صدرت بناء على ذلك من ولاية مصر المحروسة. فقد أصدر الوالى عمر باشا "١٠٧٤-١٠٧٧هـ / ١٦٦٤-١٦٦٧م" أمراً بإزالة أكوام الأتربة الكائنة بأطراف حمام جمدار قرب الشيخ شهاب المجذوب، وحياسة ذلك بعد تعميره، وفى نفس الوقت يحرم أى شخص من امتلاك أى جزء فى المنطقة إذا تركه خراباً ولم يجر فيه أى عمران حتى لو كان تحت حوزته. وفى هذه المنطقة امتلك كل من المعلم إبراهيم بن محمد عرف بإبن المطهرية وكان ترأساً بالعنبر الشريف بمصر القديمة، والمرأة نعمة بنت عامر السقا. قطعة أرض كان لإبراهيم بها النصف والربع بينما حازت نعمة الربع فقط، ولما صدر الأمر الشريف من قبل الوالى عمر باشا، قام المعلم إبراهيم بتعمير حصته المذكورة فى حين تخلفت نعمة المذكورة لمدة أربعة أشهر، فوقع التشديد والتهديد من الحكام على شريكها إبراهيم الذى قام بتعمير حصتها أثناء غيابها حيث عمّر بها نحو أربع قاعات وسوراً دايراً عليهم، وكل ذلك من ماله وصلب حاله على حد تعبير الوثائق^(٢).

وعندما عادت نعمة أبت أن تدفع تكلفة تعمير حصتها المذكورة، بل أنها ادعت إنها شريكة للمعلم إبراهيم بحق النصف وإنها غابت عنه وتركته المدة المذكورة، ودفعت له قبل غيابها ثلاثة قروش وأنتته بصرفها على حصتها وليس بيدها الآن شئ تصرفه على عمارة ذلك كونها عاجزة عن التكلفة.

وقد احتكم الطرفان هنا إلى حجة الحيازة المتضمنة لشركتها معه، فوجدت " متضمنة حقها فى الربع فقط، ومعين بها إظهار النداء من قبل ولى الأمر نصره الله تعالى إن كان من

(١) نفسه: ص ٥٦٨

(٢) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ١٢٧، ص ٥٦

حاز شيئاً من ذلك ولم يعمره على الفور ترفع يده عنه ويمكن منه الراغب في عمارته فوراً^(١).

وتؤكد هذه الحجة المؤرخة عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٥م ما ذكر سابقاً من أن عملية امتلاك العقارات هنا من حق أى شخص قام بتأسيس هذا العقار وليس الشخص المالك لأرض هذا العقار، فبناء على هذه الحجة أصبح المعلم إبراهيم هو المالك الوحيد للحصة المذكورة كلها وأن المرأة المدعية [نعمة] لا حصة لها معه، ومنعت من التعرض له بسبب ذلك.

وكذلك تؤكد هي وغيرها من الحجج أن عبء وتكلفة العمران قد وقع على عاتق الأهالي الذين رغبوا في السكنى والحماية من خطر اللصوص الذين اتخذوا من الأماكن الخربة مأوى لنشاطهم الإجرامى.

ونتيجة للاهتمام المتزايد بتعمير منطقة الخلاء والكيمان بأطراف حمام جمدار ظهرت أسماء العديد من الحارات أهمها حارة الشيخ شهاب، وكذلك الكفور المستجدة بها الكثير من المناطق السكنية التي تزاحم أهالي مصر القديمة للإقامة بها وشراء الدور اللازمة لهم، فقد اشترى الحاج سالم بن المعلم أحمد المعروف بالصولي التراس بالعنبر الشريف من الحاج مصطفى بن الشيخ حسن الشهير بإبن أبي طوغايبى التراس هو أيضاً والقاطن كلاهما بخط حمام جمدار، داراً تشمل قاعة صغيرة وأرضية مسقفة غشيماً والباقي كشفاً سماوياً، وهذه الدار كانت في الأساس قطعة أرض من أصل الكوم الكاين بأطراف حمام جمدار المذكور^(٢).

وتذكر الوثائق العديد من المنازل في هذه المنطقة التي كانت بالأمس القريب خراباً دايراً، فهناك منزل دويدار الطحان ، ومنزل الحاج عبد الرحمن السملی، ومعظم سكان هذه المنطقة الجديدة من طائفة التراسين بعنبر غلال مصر القديمة ويعود السبب في ذلك لعامل الجوار، فعنبر الغلال بمنطقة حمام جمدار القريبة من المنطقة المستجدة هو مسقط رأس طائفة

(١) نفس، ٤، م ١٢٧، ص ٥٦

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٨٢٨، ص ٦٩١

التراسين المذكورة. ووجد أيضاً حوش ضمن أملاك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا^(١) وقد عرف هذا الحوش بسكن أبو عجاج شيخ طائفة الحمارة^(٢). فقد انتشرت الحمير فى المنطقة الجديدة وكان لهم موقف خاص عرف "بموقف الحمارة" فلا ننسى أن الحمير هى وسيلة الانتقال الأساسية داخل المدينة وكان لها الفضل الأول بربط هذه المنطقة التى مازالت حديثة العهد بالعمران بسوق حمام جمدار العظيم، فكانوا يسلكون الطريق الموصل إلى جامع عمرو بن العاص^(٣).

بيد أن هذه المنطقة رغم كل ما حدث بها ما تزال عرضة لتهديد اللصوص الأمر الذى دفع جماعة التراسين القاطنين بها يرفعون شكوى مضمونها " إن اللصوص فى كل يوم يأتون إليهم ويتسلقون عليهم وقد حصل لهم بذلك غاية الضرر وقصدهم عمارة دربين متقنين لصون أماكنهم من اللصوص المذكورين ويصيرون بذلك آمنين. وإنهم جمعوا من بعضهم أربعة آلاف نصف فضة ليصرفوها فى عمارة ذلك بمعرفة فخر الأعيان الأمير محمد بن المرحوم سليمان زعيم مصر القديمة حالياً ".

وفى الحال ورد بيورلدى شريف لنايب مصر القديمة وهو الحاكم الشرعى الحنفى وساعده الأيمن الصوباشى محمد المذكور فى نص الشكوى، يأمرهما فيها بضرورة تعمیر الدربين المذكورين وعدم التعرض لهم. فكان الدرب الأول يبدأ من كتف الدرب الذى بموقف الحمارة وحوش الشيخ عبد الرازق أبو العطا حتى قطعة أرض تحت تصرف المعلم منصور المعروف بابن الجزار، أما الدرب الثانى فيبدأ من كتف منزل دويدار الطحان وإلى منزل الحاج عبد الرحمن السملى ويوضع برأس الطريق الموصل إلى جامع عمرو. وكان

(١) عبد الرازق أبو العطا بن وفا من أشهر الشخصيات التى ظهرت بمصر القديمة خلال القرن السابع عشر، فقد كثر نشاطه واتسعت دائرة تعاملاته. للمزيد عنه انظر: الفصل الرابع الخاص بالتجارة من هذه الدراسة.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٦٠٢، ص ١٣٨٧

(٣) نفس السجل: س ١٠٤، م ١٦٠٢، ص ١٣٨٧

طول كل درب نحو خمسة أذرع وكانا محكمى البناء بالمون المتقنة والدبش وأكتافهما بالحجر
الفص الأحمر المنحوت بها الأبواب المحكمة بالخشب النقى والمسامير^(١).

ويذكر إنه من أبرز الشخصيات التى رغبت فى حيازة أراضى يظهر سور حارة
الشيخ شهاب المجذوب وتعميرها الأمير يوسف جوربى من طائفة عزبان والمتحدث على
حطب مطبخ الديوان الشريف، والأمير محمد بن الأمير سليمان زعيم مصر القديمة الآن.
وقبلهم كان الشيخ عبد الرازق أبو العطا شيخ السادات الوفائية. ذلك كله يؤكد خروج المدينة
كلها عن بكرة أبيها فقرائها وميسوريها للمساهمة فى تعميرها وعودة الحياة من جديد لبعض
المناطق التى لا تزال تعاني من جراء اعتداءات سابقة.

وقد لاحظنا أيضاً حدوث عمران فى مناطق أخرى فى النصف الثانى من القرن،
خاصة فى منطقة قصر الشمع داخل حارة النصارى وإن اختلف أسلوب العمران هنا
حيث شمل أماكن متهدمة، وإعادة تجديدها مرة أخرى، ففي عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م ذكر
الذى درهمى الخياط بخط قنطرة أق سنقر وناظر وقف كنيسة أبى سرجة بقصر الشمع،
أنه يوجد مكان آيلاً للسقوط ضمن أملاك الكنيسة المذكورة ومجاوراً لها، ويخشى من بقاءه
على هذه الحالة سقوطه على الجيران أو المارة من أهل مصر القديمة وغيرهم. لذلك صدر
الأمر الشريف إلى الحاكم الشرعى الحنفى بمصر القديمة بالكشف على هذا المكان لأجل
عمارته والسكنى به^(٢). وبالفعل قام الحاكم الحنفى هذا ومساعدوه بهدم الأجزاء الباقية من
هذا المكان بعدما شاهد بنفسه مدى الضرر الذى سوف يلحق بالأهالى لو بقى هذا المكان على
حاله، وقد قوبل ذلك بالترحاب من قبل الازميين القاطنين قرب الخربة هذه وهم الذى برسوم
وشلتوت وشرابى والقسيس لطف الله.

وبحارة النصارى كنيسة تسمى بالمعلقة قد ارتبط بها العديد من الفقراء الذين
اعتمدوا فى حياتهم على الأوقاف التى يحبسها أهل البر لصالح الكنيسة. وكان من جملة
أوقاف هذه الكنيسة قطعة أرض قد خصصت كسكن لطائفة النصارى بالحارة المذكورة، ولكن

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٦٠٢، ص ١٣٨٧. الذراع يبلغ نحو ٥٠ سم.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٤٠، ص ٦٢.

بمرور الزمن تهدم هذا المسكن وصار خراباً يتضرر منه الجار والمار، فرغب هؤلاء فى تعمير هذا المكان لأجل عمل الشمع السكندرى به، وما يعود ذلك بنفع على فقراء الكنيسة المذكورة وأيضاً على القاطنين بها والواردين عليها، وأمام هذا الحماس الشديد من جانب النصارى وأيضاً ناظر أوقاف كنيسة المعلة ويدعى إبراهيم بن يوحنا - الذى تبرع بالكثير من أمواله لفقراء الكنيسة - لم يجد الحاكم الشرعى الحنفى بد من إصدار أوامره بضرورة العمارة لهذا المكان المتهم بعدما تأكد من خرابه^(١).

وفى مواضع عديدة من المدينة امتدت أيدى العمران لترسم الحياة من جديد على المناطق التى هجرها أهلها كمنطقة كوم الجارح التى دب فيها العمران وظهرت فيها المنازل والحارات التى تكتظ بالسكان وعموماً حركة العمران هذه لم تكن تشهدها مصر القديمة وحدها، بل تزامنت مع مناطق أخرى. حتى مع المدينة القاهرة التى سرقت الأضواء من المدينة العتيقة، فسمعنا عن مناطق عديدة يجرى فيها العمران على قدم وساق كمنطقة أطراف بابى زويلة والخلق المسماة بأطراف قناطر السباع^(٢).

مما سبق يتضح لنا أن فكرة "خرائب مصر القديمة" لم تكن ذات معنى كبير هنا بعدما شاهدنا العمران الذى حدث بها، ولكن لا يعنى ذلك أن الصورة تغيرت كلياً، فرغم العمران الذى نتحدث عنه وجدت العديد من الخرائب التى لم تصلها يد العمران بعد ولكننا أردنا تصحيح الصورة القائمة التى رسمها البعض عن المدينة فى جو من الإنصاف التاريخى. وقد ظهرت العديد من المنازل، والحارات والوكائل التجارية وكذلك الأسبله وما يلزم صور الحياة المختلفة فى المناطق الجديدة المعمره، بحيث يمكننا القول بأنه قد ظهرت خريطة جديدة للمدينة فى ضوء الخطط التى ظهرت بها وما تبعها من حارات وأزقة وشوارع ودروب أو حتى خوخة وعطفة سوف نتناولها بعد قليل.

(١) محكمة مصر القديمة: م ١٠٤، م ١٨٢٠، ص ١٤٧٣

(٢) محكمة قناطر السباع: م ١٣٦، م ٨٣٣، ص ٢١٢

المنشآت العمرانية:

وظهرت على أرض المدينة العديد من المنشآت المعمارية سواء فى العصر العثمانى أو فى عصور سابقة عليه، هذه المنشآت اختص بعضها بالنواحي الدينية والأخرى بنواحي اجتماعية فنجد:

أولاً المنشآت الدينية:

١. المساجد:

لقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد، فقد كان أول عمل قام به النبي (ص) عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين فى مريد التمر الذى بركت فيه ناقته، وكان البناء فى البداية بسيطاً بأدوات من اللبن وسعف وجذوع النخيل. وقد نهج المسلمين هذا النهج فى بناء مساجدهم، فعندما فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠هـ/٦٤١م ودانت له الأمور بها فكر فى بناء مسجده الجامع بها نعى به جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وهو أولى مساجد مصر الإسلامية. الذى أخذ عدة ألقاب إضافة إلى المسجد الجامع منها المسجد العتيق لأنه أقدم الجوامع^(١). وتاج الجوامع، وقد هدم هذا الجامع وأعيد بنائه أكثر من مرة^(٢). على أن أكبر الزيادات حدثت للجامع فى ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد عبد الله بن طاهر من قبل الخليفة هارون الرشيد حيث بلغت مساحته نحو ١١٢,٥٠ × ١٢٠,٥٠ متراً وهى مساحته الحالية.

(١) ولفظ عتيق ربما لا يكون حكراً فقط على جامع عمرو، فأهل دمياط يطلقون على أحد مساجدهم لفظ الجامع العتيق أيضاً بثغر دمياط. انظر: محكمة دمياط: ص ١٠٢، م ٧٤، ص ٣٤ - انظر: ملحق رقم (١) شكل جامع عمرو بن العاص.

(٢) بدأ ذلك منذ عهد والى مصر سلمة بن مخلد الذى أُرَاد فيه عام ٥٣هـ، ثم قام عبد العزيز بن مروان عام ٧٩هـ بهدم الجامع عن آخره وأعاد بنائه من جديد، ثم صالح بن على عام ٣٧٩هـ، وغيره للمزيد انظر: أبو الحممد محمود فرغلى: الدليل الموجز. ص ٦٤، ٦٥. ويرى الكلأوى أن أول مسجد شيد بالفسطاط بعد جامع عمرو بن العاص هو المسجد المعروف "بالغفلة" الذى شيد على أنقاض حصن الروم عند باب الريحان. انظر: محمد محمد الكلأوى: آثار مصر الإسلامية فى كتابات المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٩٩٤، ص ٧٧

وخلال العصر المملوكى دخلت عليه بعض التجديدات نذكر منها تجديد بعض جهاته التى تمت فى عهد الأشرف قيتباى [٨٧٢/٩٠١ هـ]^(١). وخلال العصر العثمانى كلن الجامع عامراً بالشعائر الدينية المختلفة، فقد زاره النابلسى أواخر القرن السابع عشر وقال عنه " إنه من أعظم الجوامع فى مصر وهو جامع كبير واسع الأطراف مقدار الجامع الأموى الذى عندنا فى دمشق..... "^(٢). فوجد به الخطباء وكان أشهرهم على الإطلاق الشيخ عثمان بن أبى السعود الشهير بابن مسطولة، والمؤذنين أمثال الشيخ إبراهيم بن نوح^(٣). وهناك الفراشين القائمين بأعمال الفراشة وممن تولوا السادات الوفائية الذين أنابوا عنهم من الباطن بعض العمال لبسط الفراش وتنظيفه من الأتربة، وكان الشيخ الإمام زين الدين عبد الرؤوف البكرى المالكى ومحمد بن زين الوفائية من السادات الذين قاموا بذلك^(٤).

ووجدنا بجانب جامع عمرو بن العاص العديد من الجوامع الأخرى داخل مصر القديمة، يعود تاريخ إنشاؤها إلى ما قبل العصر العثمانى وما تزال فى القرن السابع عشر عامرة. فالجامع الجديد الناصرى قد شيده الناصر محمد بن قلاوون بخط فم الخليج تمارس فيه العديد من الأنشطة الدينية إضافة إلى إنه مقر لمحكمة مصر القديمة ومكان للتقاضى وإن انتقل مقر المحكمة منه إلى الجامع المنصورى وسط مصر القديمة وذلك فى عام

(١) مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين. مخطوط بدار الكتب القومية تاريخ تيمور ٢٦٤١. ميكروفيلم ٢٧٩٦٢ ، كذلك انظر: مرعى بن يوسف الحنبلى: نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين. مخطوط بدار الكتب القومية تاريخ تيمور ٣٠٣ ميكروفيلم ١٣٣٠٣ ص ١١٣

(٢) عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى: الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز. تحقيق د/ أحمد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٢٤٢

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٥٢٩، ص ٢٠٨

(٤) نشت ١٤١، ص ٤٧٥ لسنة ١٠٣٠ هـ

١٠٦٠هـ/١٦٥٠م^(١). وتبلغ مساحته نحو ٧٨٧٢ متراً مربعاً، وله أربعة أبواب وفيه ١٣٧ عموداً، إلا إنه قد زال كل أثر له الآن^(٢).

أما جامع القاضى المملوكى حسن السويدي فكان بخط حمام جمدار وهو فى الأسلس مدرسة^(٣). واحتدم الصراع فى العصر المملوكى حول إقامة الخطبة به أم الدرس، وتأرجح تاريخه تارة بين هذه وتلك ولكن فى القرن السابع عشر أقيمت الخطبة والدرس معاً، بل أزيد على ذلك أن أصبح جامع السويدي مقراً لمحكمة مصر القديمة فى ١١ جمادى الأول ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م^(٤).

وفى منطقة دار النحاس عثرنا على جامع المرحوم " سيدى محمد بن المقداد " والذى كان عامراً فى بداية القرن السابع عشر، يتردد عليه المصلون وكان يرعاه أحد الفراشين الذين تم تعيينهم من قبل القاضى الحنفى بمحكمة الباب العالى^(٥). أما فى النصف الثانى من القرن قد تبدل الحال، فحينما صدر البيورلدى الشريف بالكشف على الجامع وجده الصوباشى محمد - صوباشى مصر القديمة آنذاك - " مفتوحاً بابيه به بعض الأماكن الخربة وشخص بخدمته لاستقبال الزوار " ^(٦).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٧١٠، ص ٢٦٨

(٢) أيمن فؤاد سيد: مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى. لندن ١٩٩٥، هامش ص ٤٢٨

(٣) هذا الجامع كان فى الأصل مدرسة بمصر القديمة أنشأها بدر الدين حسن بن سويد الذى مات قبل إتمامها، وأوصى بحوالى ٤٠٠٠ دينار لإتمام بنائها ولكن ابنه عبد الرحمن أبطل بها الدرس وأقام الخطبة وكان التضارب فى العصر المملوكى حول كونها جامع أم مدرسة. فمثلاً أبطل القاضى الشافعى ابن حجر العسقلانى الخطبة فيها وقرر الدرس وأزيل المنبر وأبطل الجمعة بها فى ١٠ صفر ٨٤١هـ/١٤٤١م، ولكن بعد ذلك أمر السلطان جقمق بإقامة الخطبة من جديد إلخ للمزيد من التفاصيل انظر: د/محمد حمزة - مقال ضمن كتاب المدارس فى مصر الإسلامية: العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط للمدرسة فى العصر المملوكى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ٢٩٦

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ١٠٠، ص ٥٣

(٥) محكمة الباب العالى: س ٨٧، م ١٥٩، ص ٣٧

(٦) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٥٨٩، ص ٢٦٦

وبجوار جامع ابن المقداد جامع آخر به ضريح الشيخ محمد الحويوى ولكنه جامع مغلق يحتاج إلى العماره. ویدار النحاس وجدنا أيضاً جامع الحسنات مفروشاً بالحصر، علمراً فسقيته ممثلة بالماء، وإن وجدت به بعض الأجزاء تحتاج للعماره، وبه حنفية قديمة خالية من الماء^(١).

وعلى شاطئ نهر النيل بمصر القديمة فى المنطقة التى تعرف الآن باسم " أثر النبى " ^(٢) جامع الآبار الشريفة والذى كان فى الأساس رباطاً لإقامة الفقراء المتعطلين أنشأه الوزير فخر الدين الذى تولى الوزارة فى ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م وتوفى عام ٧٠٧هـ / ١٣٠٧م. وعرف أيضاً برباط الآثار لأنه شيد لإيداع آثار نبوية به قد اشتراها المنشئ من بنى إبراهيم بينبع ونقلها إلى مصر. وظل المسجد خلال القرن السادس عشر عامراً يتردد عليه المصلون، ويحضر الخطيب كل جمعة لإقامة الصلاة. فى عام ٩٧١هـ أخبر جماعة السواقي السلطانية فى منطقة الآبار النبوية " إن الجامع كامل الفرش به حصر والمقام الذى يصلى عليه منظم بلاطه به مؤذن وبواب " ^(٣). ورغم ذلك تحتاج بعض الأجزاء كالسلم والوجه الخارجية للعماره والترميم. وقد استمر الجامع عامراً فى القرن السابع عشر يقطن به جماعة المجاورين. وقام والى مصر إبراهيم باشا " ١٠٧٢ / ١٠٧٤هـ — ١٦٦٤ / ١٦٦١م " بإجراء العمران به ^(٤).

وفى سنة ١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م جدد الرباط وظهرت به القبة الحجرية الموجودة بها أثر القدمين وهى مزخرفة من الخارج ومكسوة من الداخل بالقيشانى الجميل.

(١) نفس ————— م ٦٨٩، ص ٢٦٦

(٢) أثر النبى: أصلها عزبة قديمة من ضواحي مصر القديمة، عرفت بإسمها الحالى نسبة إلى مسجد الآثار النبوية الموجودة بهذه القرية، ثم أصبحت بعد عام ١٢٢٨هـ ناحية خاصة بذاتها بعد أن ضمت إليها الأرض الموجودة بهذه القرية. انظر: محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ج ٣، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٠، ص ٣

(٣) محكمة مصر القديمة: ص ٩١، م ٢٠٩، ص ٩٣

(٤) ابن الوكيل: تحفة الأحياب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، دار الكتاب

الجامعى، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٩٠

وعلى شاطئ النيل أيضاً تردد دائماً ذكر مصلاة الخواجا أحمد بن طعيمة ولكن لم ترد أى معلومات عنها، فتذكر فى بطون السجلات كإشارة فقط^(١). وفى نفس المنطقة جامع قد شيد فى العصر العثمانى نعى جامع المرحوم عابدى بيك (الشيخ رويش الآن) أمير اللوا، الذى تأسس عام ١٠٦٩هـ/١٦٦٠م^(٢). ولما كشف عليه بأمر من الوالى إبراهيم باشا على يد الصوباشى محمد فى ٥ ذى القعدة عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م وجد " عامراً كامل النظام مفروشاً بالحصر ومعلقاً به القدور والقناديل الزجاج وفسقيته ممثلة بالماء " ^(٣).

وقد ظهر على الجامع النظام العثمانى الخالص الذى اتخذ من طراز المصليات السلجوقية فى القرن الخامس. الهجرى أساساً له من حيث القبة الكبيرة المبنية من الحجر يحيط بها من جميع الجهات عدا الجهة القبلىة أيوانات محمولة على أكتاف تعلوها قباب ضخمة^(٤).

وداخل حارة النصارى المعروفة بقصر الجمع بظهر حمام جمدار وجدت بعض الجوامع مثل جامع المعلقة بجوار كنيسة المعلقة^(٥) وجامع النعمانية بجوار كنيسة أبى سوجة. ووجود مثل هذه الجوامع فى المنطقة التى تعتبر " مستودع كنائس " جعل تاريخها يتسم بالحساسية طوال القرن السابع عشر، لذلك سوف نركز على هذه العلاقة بشئ من التفصيل فيما بعد.

وبخط السبع سقايات جامع المرحوم يونس الذى كان مكاناً للدرس والصلاة فى وقت واحد^(٥). وبروضة مصر القديمة جامع المقياس الذى يعود إلى ما قبل العصر العثمانى، فهو

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ١٠٥٠، ص ٤٠٢ وأيضاً نفس المحكمة: س ١٠٢، م ٦٦٦، ص ٢٥٨

(٢) محمد مختار: التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالتواريخ القبطية، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر [د.ت.]، ص ٥٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٦٨٩، ص ٢٦٦

(٤) سعاد ماهر: المرجع السابق، ص ٦٨

(٥) ربما تعود تسمية هذا الجامع بالمعلقة لمجاورته للكنيسة المعلقة فى المنطقة.

(٥) الباب العالى: س ١٦٠، م ٦٤، ص ١٩

ضمن أوقاف السلطان الغورى، ويذكر ابن إياس " إن الغورى قد اهتم به وجدد عمارته ^(١). وفى العصر العثمانى ظل عامرا بالعبادات المختلفة تعلق به الكثيرون من الأئمة أمثال الإمامان أحمد وعبد المنعم ولدا الشيخ عثمان الجروانى والفراشيين والقائمين بأعمال الرش والبوابة. ومن الطريف أن نجد ثلاثة من الأخوة الأشقاء وهم الشهابى أحمد والزينى عبد المنعم والمعلم سليمان يتولون أعمال الفراشة بجامع المقياس مكان والدهم الشيخ زين الدين عبد الله ^(٢).

وقد ورد ذكر جامع المسلمية أو الدبان بأطراف حمام جمدار بظهر العنبر الشريف فى المنطقة التى حدث فيها عمران ملحوظ ورغم ذلك كان الجامع خرابا لم تمتد إليه يد العمران خلال القرن. ويكوم الجارح جامع الشيخ أبو السعود محمد المدينى الشافعى يقطن به العديد من فقراء المسلمين، وكان يعرف قديما باسم المرحوم يعقوب ^(٣).

وجملة القول أن جوامع مصر القديمة خلال القرن أغلبها كان ينبض بالحياة علمرا بالمصلين، وإن تعثر أحدهم على الفور نجد الإدارة العثمانية تسارع بتعمير الأجزاء التى تحتاج إلى ترميم أو حتى بناء كما رأينا فى جامع الآبار الشريفة. ولا يعنى أن الجامع به بعض الأجزاء الخربة إنه مغلق فهناك العديد من الجوامع رغم ذلك مفتوحة عامرة كجامع ابن المقداد مثلا. وخرائب بعض الجوامع لا يعود فقط للإهمال أو تقادم الزمن كما يحلو للبعض تفسير ذلك، بل فى أحيان كثيرة يعود إلى أمور أخرى مقتعلة أو اعتداءات واضحة، فخراب جامع النعمانية جاء على يد النصارى الذين أخذوا أعمدة وأخشاب النعمانية وعمروا به الجانب القبلى من كنيسة أبى سرجة ^(٤).

(١) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ط٢، ج٥، القاهرة، ١٩٦١، ص ٩٤

(٢) الباب العالى: س ١٢٩، م ٥١٩، ص ١٣٤ وأيضا: الباب العالى: س ١٢٧، م ١٩٢، ص ٤٣

(٣) حجة وقف المرحوم الشيخ أبو السعود الجارح بتاريخ ١٤ رجب ٩٢٤هـ، حجج الأمراء والولاطين رقم ٢٨٧. دار الوثائق القومية.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٩، ص ٥

٢. الزوايا والأضرحة:

وقد انتشرت بمصر القديمة العديد من الزوايا والأضرحة كأسلوب من أساليب العمران بها. سواء تم ذلك خلال القرن أو في قرون سابقة ولكن بحسب إنه باق وبحالة جيدة. وقد قمنا بعمل حصر – قدر جهدنا – لأهم الزوايا داخل مصر القديمة والتي ظهرت أمامنا خلال التعرض لسجلات ومصادر القرن، وقد بلغت نحو ٢٢ زاوية في نواح متفرقة من المدينة، يوضحها الجدول التالي:

مقرها	الزاوية
خط حمام جمدار " بقصر الشمع "	١. زاوية المعلقة
خط فم الخليج	٢. زاوية سيدى محمد الحويوى
خط حمام جمدار	٣. زاوية النعمانية
بمصر القديمة "لم يحدد مقرها"	٤. زاوية محمد المجذوب
بخط دار النحاس	٥. زاوية الدخلى (الخليلى)
قرب حمام جمدار	٦. زاوية الشيخ مرعى
بحمام جمدار	٧. زاوية الشيخ شهاب المجذوب .
بشاطئ نيل مصر القديمة	٨. زاوية النبى (ص)
بحارة الحمام بمصر القديمة	٩. زاوية الشيخ على كشك
بحارة ابن مرعى قرب حمام جمدار	١٠. زاوية على الجعجعى
بخط دار النحاس	١١. زاوية السادات الوفائية
بكوم الجارح	١٢. زاوية أبو السعود الجارحى
بحارة الشرفا بخط حمام جمدار	١٣. زاوية العارف بالله تعالى الشيخ معاوية
بالقرافة الصغرى على حدود مصر القديمة	١٤. زاوية عمر بن الفارض
بظهر حمام جمدار	١٥. زاوية مسلمة بن مخلد الأنصارى
بخط حمام جمدار	١٦. زاوية ساعى البحر
بحارة الدخامسة بفم الخليج	١٧. زاوية الشيخة هندية
بخط الحجارين بدار النحاس	١٨. زاوية الشيخ على الجمل
بكوم الجارح	١٩. زاوية الحنفى
بسفح المقطم بدار النحاس	٢٠. زاوية شاهين الخلوتى
بخط الكيزانية	٢١. زاوية الشيخ سعيد الكيزانى
بحارة العياط. بخط دار النحاس	٢٢. زاوية الشيخ مسعود

وكان التصوف يمارس داخل هذه الزوايا بانتظام، وكذلك الدرس مثلما كان داخل زاوية السادات الوفائية وزاوية ساعى البحر عثرنا على مكتب (كتاب) ملحقا بها يتردد عليه الطلاب عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م^(١). بل أن البعض قد إتخذ من الزاوية مقراً له، فالمرأة حمده بنت أحمد الفران كانت تقطن بزاوية الدخلى فى بداية القرن^(٢).

وقد أحصى المقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ بمدينة مصر نحو ثمانى زوايا فقط^(٣). أى أنه حتى منتصف القرن ٩ هـ/١٥م كان قد عُمر بمصر القديمة هذا القدر البسيط فقط من الزوايا فى حين إنه - كما هو مبين بالجدول السابق - وجد نحو ٢٢ زاوية تقريباً من خلال استقرار سجلات القرن، وهذا يعنى أنه خلال هذه الفترة التى تربو على القرنين ونصف قرن تتحسس المدينة طريقها نحو العمران.

أما المقابر والأضرحة فقد انتشرت داخل المدينة وعلى حدودها الشرقية والجنوبية، بينما كانت جبانة مصر الفسطاط حتى منتصف القرن ٩ هـ/١٥م تمتد فقط شرق المدينة فى الأحياء التى تعرف اليوم ببطن البقر والبساتين وعقبة بن عامر والتونسى وهى المنطقة المعروفة " بالقرافة الكبرى "^(٤). وعندما قام الكامل محمد الأيوبى بدفن ابنه عام ٦٠٨هـ بجوار قبر الإمام الشافعى الذى بنى فوقه القبة العظيمة وأجرى إليها الماء من بركة الحبش بقناطر متصلة منها. قام الناس بنقل الأبنية من القرافة الكبرى إلى ما حول الإمام الشافعى، وأنشئوا هناك التراب التى عرفت " بالقرافة الصغرى "^(٥).

وقد انتشرت بالقرافة الحديد من المساجد والمنتزهات والأحجار الكريمة. ويرى برمون أن بها بعض الرسومات المنقوشة ولكن معظم أحجارها قد تهدمت خلال القرن^(٦).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٢٧٤، ص ١١٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٨٣، ص ١٠٨

(٣) المقريزى: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٩

(٤) أيمن فؤاد سيد: التطور العمرانى للقاهرة، ص ٥٦ - وقد أخذت لفظ " قرافة " نسبة إلى خطة بنى قرافة، وهى خطة قبيلة المعافر ابن يغير من اليمن. للمزيد انظر: المقريزى: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٩

(٥) المقريزى: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٢٠

(٦) Gabriel Premond: Voyage De "1643-1645" ch22. P53

وتعددت المدافن بمصر القديمة سواء كانت مدافن المسلمين أو النصارى يرعاها العديد من الحانوتية لتجهيز الأموات وحملهم فى توابيت خاصة. وقد ظهر الكثيرون منهم بخطى فم الخليج ودار النحاس^(١). وقد لاحظنا أن نصارى مصر القديمة قد اعتادوا على دفن موتاهم فى فساقى^(٢) تحت تخوم الأرض الكائنة داخل الدبر أو الكنيسة مثل فسقية دير مارى مينا بفم الخليج ملك النمية شلباية بنت الصايغ وكذلك فسقية المعلم ميرهم النصرانى وفسقية المعلم سليمان النصرانى المجاورتان لفسقية النمية شلباية المذكورة^(٣). وعثر أيضاً على ثلاث فساقى بكنيسة سيدة النصارى بعد الكشف عليها بموجب بيورلدى صادر من الوالى فى مستهل صفر ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م لمصطفى أغا من أعيان المتفرقة^(٤). وقد لاحظ ذلك أيضاً الشمساس كامل نخلة الذى ذكر أنه قد تم دفن البابا مرقص السادس (رقم ١٠١ فى تولى كرسى البطريركية) فى يوم الجمعة ٢٠ أبريل ١٦٥٦م، وأقاموا له حفل كبير وتم دفنه فى مدفن البطارقة بكنيسة القديس مرقوريوس (أبى سيفين) بمصر القديمة^(٥).

وأما عن أهم الأضرحة التى تردت أمامنا، مقام سيدى على الجمل والشيخ محمد الكندى بخط دار النحاس، وضريح الشيخ نور الدين على بحارة الجمالة بفم الخليج، وضريح سيدى على الجعجعى بحمام جمدار، وضريح الشیخة هندية جنوب المجراة السلطانية وضريح سيدى أبى السعود الجارحى بكوم الجارح.... إلخ.

ونلاحظ أن هناك اهتمام من جانب إدارة مصر القديمة للحفاظ على أساسات وهياكل هذه الأضرحة. ففي عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م طلب الأمير سليمان صوباشى مصر القديمة،

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١١٠٧، ص ٣١٢

(٢) فساقى: جمع فسقية، وهى كلمة عامية لها عدة دلالات، منها أنها مجمع المياه، كما أنها المحل الذى يدفن به الميت، وأحياناً تطلق على الجزء الغاطس من البيت المملوكى خاصة الطبقة أو ما يلى الدهليز المؤدى للأروقة أو القاعات. انظر: محمد محمد أمين وليلى على إبراهيم: المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ)، دار

النشر بالجامعة الأمريكية. ط ١، ١٩٩٠، ص ٨٥

(٢) محكمة قناطر السباع: س ١٣٠، م ١١١، ص ٥١

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٢١، ص ١١

(٤) كامل صالح نخلة: تاريخ البابوات بطارقة الكرسى الإسكندرى. الحلقة الأولى، الطبعة الأولى ١٩٥١، ص ١١٠

الكشف على مقام العارف بالله تعالى الشيخ على الجمل الكاين ضريحه بالحجارين بخط دار النحاس - كما تقدم - وعندما حدث الكشف وجدت به محلات تحتاج للعمارة ولا توجد مصابيح للإنارة، وبجواره من الجهة الغربية أماكن خراب وأثر لم يعلم لها ملاك^(١).

٣. الكنائس والأديرة:

نميل إلى تسمية مصر القديمة خاصة منطقة قصر الشمع " مستودع كنائس " إشارة إلى العديد من الكنائس التي تنتشر بها، والتي يعود أغلبها إلى ما قبل العصر العثماني، فلا ننسى إن مصر كان لها قصب السبق في المسيحية، فعلى أرضها نشأت الكنائس والأديرة، بل أن أول دير للمسيحية كان في صعيد مصر قرب دندرة، وقد استمرت معظم هذه الكنائس تمارس نشاطها حتى يومنا هذا.

ومنطقة الكنائس القبطية هذه المسماة بقصر الشمع يطلق عليها في العصور الفرعونية اسم [خرى عا] أى ميدان الحرب حيث يوجد الحصن الروماني بابليون. ويروى أن أغلب كنائس النصارى هذه قد بنيت في عهد الفاطميين^(٢).

واستهوت منطقة الكنائس هذه العديد من الرحالة الأجانب فيقول الرحالة نتزو إن مدينة بابليون (مصر القديمة) بها العديد من الكنائس زمن الأتراك، وهى بديعة الصنعة من الداخل، تحوى رخاما مصقولا وبها قناديل فى جهات كثيرة، واهتم الأتراك بهذه المقدسات وألوهها الخدمات الدينية^(٣). وزارها أيضا خلال القرن الرحالة (جوهان ويلد Johann Wild) والرحالة جورج ساندى George Sandys وغيرهم ممن قاموا بجولات فى المنطقة وسجلوا مشاهداتهم وأخبار رحلاتهم هذه.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٦٢٦، ص ٢٣٥

(٢) مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين. تاريخ تيمور ٢٦٤١، ميكروفيلم ٢٧٩٦٢، وأيضا: أبو الحمد محمود

فرغلى: المرجع السابق، ص ٧١

وقد أجمع هؤلاء الرحالة على إحصاء كنائس مصر القديمة، وقالوا أن بها نحو ثلاث أو أربع كنائس، وهو رقم يكاد يقترب للحقيقة إلى حد ما، فهي تحوى أكثر من خمس كنائس تقريبا كبرى إضافة إلى الكنائس الصغرى التابعة لها. وعموما أى تحديد لها سوف يأخذ صفة التقديرية، لأن هؤلاء الرحالة أنفسهم لا يتفقون على رقم معين، بل أن بعضهم يذكر صراحة تهدم بعض هذه الكنائس^(١).

وأشهر هذه الكنائس على الإطلاق كنيسة المعلقة (السيدة العذراء) داخل حارة النصرى، وهى من الآثار القبطية الخالدة، وتحمل رقم (٥٧٠) بين آثار المنطقة. وقد عرفت بالمعلقة لأنها مشيدة فوق الحصن الرومانى وأغلب الظن أنها بنيت فى أواخر القرن الرابع أو بداية الخامس الميلادى وبنائها فوق أحد أبراج حصن بابليون يعتبر رمزا لانتصار المسيحية على طغيان الرومان وجبروتهم. تبلغ مساحة هذه الكنيسة حوالى ٣٢,٥ × ١٨,٥ مترا، وارتفاعها ٩,٥ مترا على صحن ينقسم إلى أربعة أقسام^(٢).

وقدم لنا الرحالة نتروشيتر وصفا تفصيليا للمعلقة عندما زارها عام ١٦٣٦م، ونزل إلى أسفل الكنيسة بعدما أوقد شمعة حتى يتفحصها جيدا فوجد خزانة عميقة مرصعة بالرخلم، وموقد صغير ومطبخ، ويتر قيل أن السيدة مريم العذراء أخذت جزءا من هذا البئر لتغسل المسيح به، ووجد حفرة على هيئة فرن لعمل الخبز وطهى الطعام، وأمام هذا الفرن قطعة رخامية مربعة بيضاء اللون مكتوب بوسطها كلمة " القداس La messc " ^(٣). ويوضح وصف نتروشيتر هذا مدى الحالة المعمارية الجيدة التى عليها المعلقة، وهى الحالة التى تؤكد أيضا وثائق القرن بعام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م ثم بعد ذلك بفترة كبيرة عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م^(٤). والحالة المعمارية الجيدة لا تنطبق على كنيسة المعلقة وحدها بل على

(١) فى حين يذكر جومار أن بمصر القديمة نحو ١٢ كنيسة، وربما أنه أحصى الكنائس الصغرى أو المتهدمة. جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل. ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨، ص ٣٣٢

(٢) أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص ٧٣

(٣) Neitzschitz. Op. Cit. P229

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٣٥٣، ص ٦٣، أيضا نفس المحكمة: س ١٠٣، م ٦٨٨، ص ٢٦٦

كافة كنائس مصر القديمة. والجدير بالذكر إن شهرة المعلقة تعود إلى نقل الكرسي المرقسى من مدينة الإسكندرية فى القرن ١١م على يد الأنبا خرستودولوس البطريرك ٦٦، واستمر الكرسي بها مدة طويلة إلى أن تم نقله إلى كنيسة أبى سيفين (مرقوريوس) فى القرن ١٤م، وأيضاً اجتمع بها بعض المجامع الإكليريكية فى القرن ١٢م^(١).

أما كنيسة أبى سرجة فهى لا تقل أهمية من الوجهتين التاريخية والفنية عن المعلقة، وهى تقع وسط الحصن الرومانى تقريباً (بجوار المتحف القبطى الآن)، وهناك شبه إجماع على إنها شيدت فى المكان الذى أقامت فيه العائلة المقدسة لما هربت من وجه الملك اليهودى هيرودوس. وسميت " بأبى سرجة " لأنها أنشئت باسم (سرجيوس) و (أخيس) وهما جنديان مشهوران استشهدا بجهة الرصافة بسوريا فى أوائل القرن ٤م فى عهد الإمبراطور مكسيمانوس^(٢). ويذكر نتروشيتر مسمى آخر لأبى سرجة وهو Pella Madonna^(٣). وهى مستطيلة الشكل حوالى ٢٨,٤٠ × ١٦,٤٠ متراً وارتفاعها حوالى ١٥ متراً وهى على عمق ثلاثة أمتار عن مستوى الشارع، وهى بذلك شاهقة الارتفاع والنصارى كانوا دائماً يقومون خلال القرن بعمل تجديدات وترميمات لها على حساب الجوامع والزوايا المجاورة لها خاصة جامع النعمانية، فقد اخذوا أعمدة وأخشاب النعمانية وعمروا به الجانب القبلى من الكنيسة وتركوا الجامع خراباً^(٤). وأقروا لها ناظرًا يرعى شئونها ويتولى إدارة الأوقاف المرصودة لها لضمان استمرار العبادة بها وتأدية الطقوس الكنسية، والملاحظ أنها كانت تختص بالمسيحيين القدامى أو الأقباط (Copts)^(٥) كما ترى المصادر. وقد رأى تقنو أثناء زيارته لها

(١) أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص ٧٢

(٢) نفس المرجع: ص ٧٦

(٣) Neitzschitz. Op. Cit. P229

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٥٧٤، ص ٦٠٢

(٥) Neitzschitz. Op. Cit. P22

معبدًا صغيرًا ومنخفضًا جدًا أسفل هذه الكنيسة، قيل أن السيدة العذراء أقامت فيه وقتًا طويلًا ومعها المسيح عيسى^(١).

وارتبط تاريخ كنيسة أبي سرجة بكنيسة أخرى هي كنيسة القديسة بربرة أو الست بربرة التي تقع بالقرب منها داخل سور حصن بابليون (قرب المتحف القبطي الآن)، والتاريخ المشترك بينهما جاء منذ البداية وعندما تأسست هذه الكنيسة في أواخر القرن ٤ أو أوائل القرن ٥م وسميت باسم السيدة بربرة التي ولدت في القرن الثالث الميلادي وسط أسرة غنية وثنية، واعتنقت المسيحية على يد العلامة المصري "أوريانوس" الأمر الذي أغضب والدهما فقتلها فحملت الكنيسة اسمها تخليداً لها. ولكن حدث أن تهدمت الكنيسة في القرن العاشر وأعاد بناءها هي وكنيسة أبي سرجة شخص يدعى يوحنا بن الايخ وكان ذا حظوة لدى الخلفاء الفاطميين، ورغم ذلك لم تشفع له هذه الحظوة عندما أعاد بناء كنيسة أبي سرجة وكنيسة بربرة رغم أنه أخذ تصريح فقط ببناء كنيسة واحدة لذلك أمر الخليفة الفاطمي بهدم إحدى الكنيستين وكلف وزيره الذي صار ينتقل من الواحدة إلى الأخرى ليختار واحدة منهما، ولم يستقر على حال فلما أعياه التعب سقط ميتاً، فبلغ الخليفة ما حدث فأمر بترك الكنيستين وقال "أنا أمرت ببناء واحدة والأخرى دية له"^(٢).

وجاء شكل الكنيسة على هيئة مستطيل حوالى ٢٦ × ١٤,٥ متراً وارتفاع ١٥ متراً، يفصل صحن الكنيسة عن الجناحين القبلي والبحري وعن الجناح الغربى المقابل للهيكل ثلاثة صفوف من الأعمدة الرخامية، وبها منبر مماثل لمنبر أبي سرجة^(٣). وعلى هذا تعد كنيسة الست بربرة من أجمل كنائس مصر القديمة قاطبة.

ومن الكنائس الزائفة الصيت أيضاً كنيسة أبي سفين التي تحمل رقم (٤١٧) ضمن آثار المنطقة، وتقع شمال حصن بابليون، وهي تحمل اسم الشهيد القديس مرقوريوس المعروف بأبى سيفين كان ضابطاً بالجيش الرومانى واعتنق المسيحية واستشهد بسبب ذلك

(١) M. T. E Thevenot. Op. Cit. P263

(٢) أبو الحمد محمود فرغلى: المرجع السابق، ص ٧٩

(٣) نفس المرجع: ص ٧٩

عام ٣٦٥م، فسميت بإسمه. وتهدمت أكثر من مرة وأعيد بناؤها زمن المعز لدين الله الفاطمي ثم أحرقت ضمن حريق الفسطاط وتم ترميمها بالطوب وشيدت بها القباب، بل شهدت تجديدات جمة خلال القرن السابع عشر شملت الوجه والداخل^(١). ولا ننسى أنها لفترات من الزمن قد تبوأ دور الزعامة على كنائس مصر المحروسة عندما انتقل إليها الكرسي المرقسي في القرن الرابع الميلادي.

ورأينا كنائس أخرى بالمنطقة مثل كنيسة شنودة وكنيسة القلاية، وكنيسة تتعلق باليهود أو المعبد اليهودي، وقد ذكر على مبارك في خطته " أن لليهود نحو ١١ كنيسة، واحدة منها بقصر الشمع وهي أقدمهم "^(٢). وكنيسة سيدة النصارى ومارى جرجس وكنيسة بابلون السروج التي تولى نظارتها النمي بيلاطس بن عاذر بن عبد رب المسيح في منتصف القرن السابع عشر^(٣).

وكان للمدينة نصيب وافر للأديرة كما كان للكنائس، فانتشر بقصر الشمع العديد من الأديرة مثل دير مارى جرجس أو دير البنات السفلى المعروف بدير سكندره وهو للقديس سان جورج Saint: George صمم بطريقة جيدة فوق ربوة مرتفعة، وقد زاره تفنو ورصد به عدة قضبان حديدية الواحد فوق الآخر، يحوى مصباح (قنديل) كبير وعمود ضخمة توجد أعلاه شعلة من النار قيل أنها من القديس سان جورج. ومن الطريف - كما يروى تفنو - إن اليونانيين القاطنين بالدير يقولون بوجود نراع يظهر فجأة ثم يهبط، ولكنى شخصيا لم أراه مطلقا أثناء زيارتي^(٤). وقد صدرت العديد من الأوقاف لصالح الدير قام بتنظيمها المعلم دريهم بن يوحنا الخياط الذى تولى نظارة وقف فقراء دير البنات فى النصف الثانى من القرن^(٥). وخصص حوشا خاصا للدير لإسكان ممن يرى فيهم أهلا له وأطلق عليه "

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٨٩، ص ٧٠

(٢) على مبارك: الخطط التوقيفية الجديدة، ج ١، ط ١، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٢٣٣

(٣) الباب العالى: س ١٣٣، م ١٠٦٠، ص ٢٥٨

(٤) M. T. E. Thevenot. Op. Cit. P263

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦، ص ٢

حوش دير البنات»^(١). ووجد دير للنصارى الأروام الملكية شاهق البناء، وقد أضيفت له بعض الأبنية الجديدة فى النصف الثانى من القرن^(٢).

أما دير مارى مينا بغم الخليج والذى أشرنا إليه منذ قليل، دائما مفتوح الباب، يقطن به العديد من الرهبان، حالته جيدة فقد أدخلت عليه بعض الترميمات فى النصف الثانى من القرن. وتم بناء العديد من الفساقى داخل أراضيته منذ عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م بموافقة المعلم بقطر بن غبريال والمعلم ميخائيل بن أيوب ناظر الدير^(٣). ودير خضر الأخضر لم يرد عنه الكثير فى وثائق القرن سوى إنه بمصر القديمة وقد خصص للنصارى الأروام أيضا يرعى شئونهم البترك يوانيلوس الذى تولى نظارة الدير فى النصف الثانى من القرن السابع عشر. ومن تعلقات الدير خربة بالقاهرة بخط بين السورين بحارة اليهود " عديمة الفائدة مأوى للصوف والحرمية والبلطجية وتضرر منها المار والجار »^(٤). على حد تعبير المصادر.

وهكذا توافر للمدينة العديد من المنشآت الدينية سواء أكانت إسلامية أو قبطية، من مساجد وزوايا أو كنائس وأديرة ظلت عامرة خلال القرن السابع عشر وفيما بعد تنطق بمهارة المعمارين المهرة، وخير دليل على التراث الإسلامى والقبطى على أرضها.

ثانيا: المنشآت الاجتماعية:

١. الوحدات السكنية:

هناك العديد من الدراسات ألقت الضوء على المساكن فى مصر العثمانية سواء المنازل أو الرباع والأحواش والأزقة وغيرها. مثال لذلك دراسات " أندريه ريمون " عن القاهرة العثمانية وكذلك دراسات الدكتورة " نيللى حنا " المعمارية عن القاهرة أيضا. ومن خلال كتابات هؤلاء وغيرهم وسجلات المحاكم الشرعية وجدنا أن أغلب الوحدات السكنية

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢٦٨٠، ص ٧٠٤

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٦٨٨، ص ٢٦٦

(٣) محكمة قناطر السباع: س ١٣٠، م ١١١، ص ٥١

(٤) محكمة الباب العالى: س ١٢٧، م ١٤٣٨، ص ٣٣٧

تجلت فى البيوت الخاصة وبجانبها وجدت الرباع التى كانت فى الغالب يسكنها الحرفيون وتبنى فوق منشأة تجارية أو خيرية، أما الأحواش فكانت قبلة الفقراء، وسواء الرباع أو الأحواش أخذ كل منهما مسمى " المساكن المشتركة " ^(١).

ومنازل الفسطاط منذ البداية كانت متواضعة كدار عمرو بن العاص وابنه عبد الله، ودور حكام مصر الأوائل، ولكن بمرور الزمن أخذت طور العمارة الأنيقة وظهرت قصور الأمراء، إلا أن الكبوات التى تعرضت لها المدينة من حرائق ومخاضات وأوبئة أضرت بالمبانى والوجه المعمارية للعديد منها. وتحولت إلى خرائب وهو ما أطلقنا عليه فى البداية " خرائب الفسطاط " التى امتدت إليها يد العمران بعد ذلك لتعيدها إلى سيرتها الأولى.

ونتيجة لهذا العمران شيدت العديد من المنازل بمصر القديمة سواء منازل الأمراء (منزل الأمير عبدى بيك أمير اللوا السلطاني بمصر القديمة فى منتصف القرن السابع عشر) و (منزل السادات الوفائية كالشيخ عبد الفتاح أو الأكرم ونجليه عبد الرازق أبو العطا وشمس الدين) ومنازل الميسورين مثل (عائلة الخولى بحمام جمدار) و (عائلة البديوى بقم الخليج) ومنازل عائلة جوربجى أمثال محمد وأخيه يوسف وهما من الأمراء المتحدثين على حطب المطبخ السلطاني، ناهيك عن منازل الصوباشية وقضاة المذاهب الأربع بالمدينة. وهناك منازل البسطاء من الناس وهي بيوت يغلب عليها البساطة والقدم، حتى أن الرحالة نلتزو عندما رآها قال عنها " هى عبارة عن أكواخ أو عشش، يغلب عليها البساطة. وبعضها صغير فوق ربوة " ويفضل تسميتها بأكواخ أو عشش بابلليون ^(٢).

ومنازل مصر القديمة عبارة عن طابق واحد أو طابقين على الأكثر تشتمل على قاعات أرضية مسقفها غشما (بسعف النخيل أو جذوع الأشجار) ودهليز مسقف أيضا غشما وسلم يصعد منه إلى الطابق العلوى ويواجه السلم فى هذا الطابق فسحة كشف سماوى (أى غير مسقفة)، وعلى يمين الصاعد طبقة حبيس مسقفة غشما بها باب مربع، وهذا الوصف

^(١) نيللى حنا: بيوت القاهرة " دراسة إجتماعية معمارية " فى القرنين ١٧، ١٨، ترجمة حليم طوسون، العريى للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ٥٦

^(٢) Neitzschitz. Op. Cit. P219

الدقيق هو نموذج أخذناه لمنازل مصر القديمة، وهو منزل الحاج على بن عبد الخالق الستراس بعنبر مصر القديمة، وهو منزل على حالة معمارية جيدة ومشيد على مساحة نحو ١٢ سهماً^(١). ولا يعنى ذلك أن تخطيط منازل المدينة قد صار على هذا المنوال فقط، بل عثرنا على العشرات، بل المئات من المنازل داخل بطون السجلات بأوصاف مختلفة، فمنها ما يحتوى على أروقة أو حواصل (مخازن) خاصة لخزن الغلال وقاعات عديدة إضافة إلى المنافع والمرافق بل لاحظنا أن الأفران كانت تلحق مباشرة ببعض المنازل مثل منزل المعلم محمد بن سليمان الحطاب بحارة الجمالة بقم الخليج^(٢). وأحيانا كانت الحجرات العليا تبنى بطرق معمارية تمتد ببروز فوق الشارع سواء بالأحجار أو الأخشاب^(٣).

أما عن مواد البناء التي استخدمها أهل مصر القديمة عندما شرعوا فى بناء مساكنهم، فشملت الطوب اللبن والطوب الآجر والدبش والمون، ومعظم المنازل التى عثرنا عليها فى بطون السجلات فى آخر منطقة تم تعميرها فى فترة الدراسة وهى المنطقة المسماة " بالكفر المستجد بجوار الشيخ شهاب المجذوب بأطراف حمام جمدار " جميعها استخدم أدوات البناء هذه^(٤). ويرى ألبير جبريل وعلى بهجت فى حفريات الفسطاط: أن المنازل التى تبنى بالدبش يرمى أساسها بغير نظام على هيئة مداميك من الدبش داخل حفائر الأساس، فى حين أن الأساس المبنى بالآجر يغلب عليه أن حفره قليلة العمق ويرمى الآجر هذا على هيئة مداميك منظمة ويسقى بمونة الجير والرمل^(٥). وكان الآجر المستعمل فى الفسطاط أحمر داكن ومتجانس مستوفى الحريق شديد الصلابة.

وكانت إدارة مصر القديمة تهتم بحماية أى منشآت عمرانية بصفة عامة والمنازل بصفة خاصة، وتحرص دائما على سلامة أسسها وهيكلها حتى تضمن سلامة ساكنيها وكذلك

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٣١٨، ص ٦٣٧

(٢) نفسه: م ٧٣، ص ٤٥

(٣) Nelly Hanna: Construction Work in Ottoman Cairo "1517-1798" Le Caire 1984. P13

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٨٢٢، ص ٣٢٩

(٥) على بهجت وألبير جبريل: المرجع السابق، ص ٩٩، ١٠٠

المارة فى الشارع، وقد تجلى ذلك فى الشكوى التى رفعها الشيخ الشهابى أحمد الشهير بابن زرعة القادرى خليفة السادة القادرية بمصر القديمة عام ١٠٥٤هـ/—١٦٤٤م إلى الحاكم الشرعى بالمدينة مضمونها " إن بجوار منزله الكاين بحارة القدسية (الخلاله) بخط حمام جمدار قرب الحارة المستجدة توجد تربة مهجورة هى تربة الشيخ سعد الدين وداخل أرضها أصل نخل طويل آيل للسقوط ومائل على منزله، وكلما يقوم الهواء يضرب حائط منزله ويهدم ما بها من طوب وأحجار، وفى ذلك ضرر له وتهديد للمارة^(١) ". فأمر الحاكم الشرعى بالكشف عن ذلك وفعل ما يلزم.

وكما ذكرنا فى بداية هذا الفصل أن الإدارة كانت تملك لمن يرغب فى التعمير أماكن الخراب لبناء منازل صالحة للسكنى أو غيرها. ورأينا منطقة كفر الشيخ شهاب المجذوب بظهر حمام جمدار كيف كانت أرضا بوارا ثم ظهرت فيها العديد من المنازل [منزل دويدار الطحان - منزل الحاج عبد الرحمن السملى وغيرهما]. ولم يقف دورها عند هذا الحد بل كانت تشجع على إزالة الأبنية القديمة وإحلال أخرى محلها، فقد كانت هناك العديد من المنازل القديمة التى رآها الرحالة جوهان وبلد أثناء جولاته داخل المدينة فى بداية القرن [١٦٠٦-١٦١٠]^(٢). ورد بأسى " إن منازل المدينة قديمة جدا وعلى طراز قديم، وأن المباني الجميلة أغلبها تهدمت ". وكان العديد من أهل مصر القديمة قد سمعوا صيحة وبلد هذه، فأنبرى الكثيرون يتسابقون فى تملك تلك الأبنية القديمة وإعادة بنائها من جديد، ومن هؤلاء الأمير بهرام شربجى ابن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة الذى تملك بحجة شرعية من محكمة قناطر السباع عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م أماكن قديمة البناء بدار النحاس وراح يزيل الأبنية والأتربة وينقلها بعيدا، وعمرها تعميرا جعلها صالحة للسكن والاستغلال على نفقته الخاصة^(٣).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٤٢٠، ص ٢٠٥

(٢) Johann Wild. Op. Cit. Ch30. P167

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٠١، ص ٤٢

أما الرباع فهي نموذج للسكن الجماعي مبتكر للغاية، وقد خصص لسكنى أفراد الطبقة المتوسطة (البورجوازية)، وهو من المنشآت القديمة التي ثبت وجودها في العصر المملوكي وانتشرت في مصر العثمانية وكان لمصر القديمة نصيب منها، وقد وجد نوعان من الرباع - كما يرى أندريه ريمون^(١). الأول: يتكون من طابقين أو ثلاثة فوق الدور الأرضي الذي يضم حوانيت ومخازن (حواصل)، مثل ربع بحمام جمدار تجاه جامع السويديّة أعلى حانوت ترك العلاف^(٢). والثاني: فوق وكالة ويضم أيضا طابقين أو ثلاثة، وفي الحاليتين لا يوجد اختلاف في مبادئ بناء الشقق أو وجود الطوابق والأروقة وكذلك السلام الداخلية.

وعموما تكثر الرباع قرب الأسواق وتزدحم بالسكان. فنذكر الوثائق وجود ربع بسوق حمام جمدار في النصف الثاني من القرن يسمى " ربع القاياتي " المكتظ بالسكان^(٣).

ولقد تمكنا من تحديد نحو ١٢ ربعا في المدينة، ولكننا نعتقد بوجود رقم أعلى من ذلك لوجود حلقات مفقودة في سجلات العصر رغم محاولتنا المضنية للتقريب. وبوجه عام هو رقم معقول بالنسبة للرقم الذي توصل إليه أندريه ريمون لرباع القاهرة المعزية (٣٦) ربعا. ويرى أن كل ربع يقطن به حوالي مائة شخص، فإن كان الأمر كذلك، فلنا أن نتصور تعدادا لسكان مصر القديمة في ضوء ذلك بجانب الوحدات السكنية الأخرى.

فمن هذه الربوع (ربع الخروبي) بحمام جمدار - نسبة إلى بدر الدين الخروبي - وقد تم تأجيرها للأمير سليمان بن مصطفى من أمراء مصر المحروسة عام ١٠١٣هـ / ١٦٠٣م لمدة ثلاثة عقود (٩ سنوات) نظير مبلغ ٢٤٠ نصف فضة يدفعها كل شهر من هذه المدة، واشترط عليه رعاية الربع وعمارته أو ترميمه إذا لزم الأمر^(٤). وكان بواب الربع بمثابة

(١) أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة، ط ١، ١٩٩١،

ص ٢٣٥

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٣، م ١، ص ١

(٣) نفس: م ٦٢٤، ص ٢٤٣

(٤) نشأت ١٢١ لسنة ١٠١٣هـ، ص ١٢٤

أمين الدرك له يزج عنه أى خطر يهدده من سطو أو سرقة مثلما فعل بواب " ربع بن الأعرج " عام ١٠١٥هـ/١٦٠٥م^(١).

أما ربع الكريدى فقد أنشئ فوق مطهرة الجامع المنصورى بخط دار النحاس على مساحة ١٢ سهم. وتذكر الوثائق إنه ضمن أملاك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا الذى قام بتأجيريه عام ١٠٧١هـ/٦٦١م ولمدة ثلاث سنوات هلالية للنورى على بن الشيخ عبد الله الجيزى^(٢).

ولاحظنا أن معظم ربوع مصر القديمة قد انتشرت فى دار النحاس وحمام جمدار، ذلك لأنهما أكثر مناطقها سكانا إضافة إلى انتشار الحرف بها فلا ننسى أن الربوع أغلب سكانها حرفيون. أما أصحابها فأغلبهم من السادة والأمراء مثل ربع عبد الرازق بن وفا - كما تقدم - وربع المنصورى لسيدى أحمد الينكجى وربع سيدى محمد المدادى الوفائى، ووجدنا ربع لأحد النصارى بالمنطقة نعى "ربع ميرهم النصرانى قرب شونة مصر القديمة"^(٣). وقد تعرضت إحدى مساكنه للسرقة عام ١٠٥٦هـ/٦٤٦م وآلت ملكية هذا الربع بعد ذلك إلى عبد الحق السعودى. ولاحظنا أيضا أن أغلب سكان الربع من الطائفة الرومية بالمدينة أمثال الزينى عثمان الرومى ويوسف الرومى الذين لم يتورعوا عن شرب الخمر وارتكاب الزنا داخل الربع. وتذكر الوثائق بأن "ربع ميرهم سابقا وعبد الحق السعودى الآن قرب الشونة الشريفة بمصر القديمة وكر للفاحشة يجتمع فيه الرجال مع النساء الخاطيات...."^(٤).

(١) نشت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ، ص ٥٥

(٢) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٧٧٠، ص ٣٠٥، وعن الشيخ عبد الرازق والسادات الوفائية راجع فصل التجارة من دراستنا.

(٣) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٠، م ٦٢٩، ص ٣٠٣

(٤) محكمة مصر القديمة: ص ١٠١، م ٢٢٦، ص ٨٧، وكذلك م ٢٢٧، ص ٨٧ أيضا من نفس السجل. وللمزيد من التفصيل انظر: الفصل الخامس من هذه الدراسة.

أما الحوش وهو النموذج الثانى للسكن الجماعى، فقد تأكد أندريه ريمون من وجوده بمصر، وأحواش القاهرة عبارة عن ساحات واسعة أو أماكن مسورة مليئة بالأكواخ التى يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام يقيم فيها جمهور الفقراء مع حيواناتهم، وأغلب الأحواش مكشوفة^(١). وظهرت هذه النماذج السكنية داخل مصر القديمة لانتشار العديد من الفقراء بها سواء مسلمين أو نصارى. فعثرنا على حوش داخل قصر الشمع يدعى " حوش دير البنات " لإقامة فقراء النصارى، وبنفس المنطقة العديد من الأحواش مثل " الحوش الجارى فى وقف سيدى أبى السعود الجارحى والإمام الشافعى "^(٢). وبار النحاس " حوش عصفور "^(٣). وما لفت انتباهنا عند دراسة أحواش مصر القديمة أن وجدنا أغلبها ساحات ضيقة على غير العادة، فالبعض منها لا يتعدى ١٢ سهما وهى مكشوفة والقليل منها مسقفا، وبعضها يحوى بجانب الوحدات السكنية حواصل (مخازن) يقوم فقراء الحوش بتخزين حبوبهم وأسبابهم داخلها. وقد بلغ ثمن أحدهم نحو ١٤٠ نصف فضة، فى حين بلغ الإيجار لأحد هذه الأحواش نحو ٥٠ نصف فضة عن كل سنة من الإيجار فى النصف الأول من القرن^(٤).

أما الأروقة فقد انتشرت بمصر القديمة على نطاق واسع ودائما ما يتكون من عدة طاقات إضافة إلى المرافق والمنافع، وهو مكان يصلح للسكنى والإقامة الدائمة، فقد استأجر حجازى بن نوفل رواق بحمام جمدار من المرأة زينب ابنة المرحوم على بجميع مكوناته لينتفع به فى السكنى لمدة ثلاثة عقود وستة أيام نظير ٢٥٠ قرشا عن كل شهر^(٥).

٢. منشآت أخرى:

وبجانب الوحدات السكنية وجدت عدة منشآت اجتماعية بالمدينة منها الحمامات والمقاهى والأسبله. والحمامات كانت ضرورة ملحة فى مصر القديمة نظرا لارتفاع درجات

(١) أندريه ريمون: المرجع السابق، ص ٢٤٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٠٥٥، ص ٩٦٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٧٥٣، ص ٦٦٧

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٩٨، ص ٧٤

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٥٤٣، ص ١٩٨

الحرارة بها وهو أمر قد أشار إليه الرحالة عندما زاروا المدينة، حتى قيل أن الحرارة بها في بعض الأوقات كانت تصل إلى ٤٠*°. لذلك كثرت الحمامات في المدينة يستخدمها الجنسين على السواء. وقد ذكر أندريه ريمون أن الرحالة التركي أوليا جلبي قد وضع رقما لتعداد حمامات القاهرة وهو (٥٥ حماما) وهو رقم يرى ريمون إنه غير صحيح خاصة وأن المؤرخ أحمد شلبي بن عبد الغنى قد ذكر أنه يوجد بالقاهرة عام ١٧٢٣م نحو ٧٣ حماما، ويضيف ريمون حمامين آخرين ليصل عدد حمامات القاهرة نحو ٧٥ حماما منهم حمامين بمصر القديمة^(١). وتؤكد وثائق القرن السابع عشر أنه يوجد بمصر القديمة أكثر من ٨ حمامات ما بين حمامات عامة - كما ذكر أندريه ريمون - وحمامات خاصة لبعض الأشخاص، وقمنا بتحديد هذه الحمامات وأماكنها في الجدول التالي:

الحمام	موقعه
حمام جمدار	يسمى الخط بإسمه وهو قروب جامع عمرو
حمام عبد الرازق أبو العطا	خط دار النحاس
حمام أمير الدين بن عبد الغنى الخوجي	خط جامع الحسنات
حمام السادات الوفائية	خط دار النحاس
حمام جنة	لم تحدد الوثائق موقعه بالمدينة
حمام شمس الدين محمد أبو الفضل	خط دار النحاس
حمام "عامر بن عبد الله الوفائي - زين الدين صالح الوفائي"	خط دار النحاس
حمام العوافي	بمصر القديمة
حمام السادة الأربعين	خلف دار النحاس

(١) أندريه ريمون: فصول في التاريخ الإجتماعي للقاهرة العثمانية، مكتبة مديولى، ١٩٧٤، ص ١١٦

وتتكون أغلب حمامات مصر القديمة كالعادة من مسلخ وبيت أول وبيت حرارة ومغاطس ودشوت ومستوقد^(١). وكانت عملية بيع واستئجار هذه الحمامات تتم بشكل طبيعي داخل المدينة.

أما الأسبلة فهي من المنشآت الاجتماعية والدينية على حد سواء، اجتماعية لأنها فى خدمة الجميع ويتوافر عليها العديد من سكان المدينة، ودينية لأنها مخصصة للمارة وأبناء السبيل. ووجد العديد من الأسبلة هنا قد انتشرت بخط حمام جمدار ودار النحاس وفم الخليج، فيقوم السقاين بحمل مياه النيل وصبها فى هذه الأسبلة نظير أجر معلوم، وكان سبيل الحفاوى بحمام جمدار أشهر أسبلة مصر القديمة قاطبة^(٢). والمقاهى قد انتشرت بخط جامع عمرو خاصة بعد شيوع شرب القهوة بالمدينة، وقد امتلك الجامع العديد منها فى صورة أوقاف من جانب أهل البر^(٣).

خط مصر القديمة:

دراسة الخطط من الدراسات التى تواجه العديد من الصعوبات خاصة بعد زمن المقرزى، فأغلب كتب الخطط فى حقيقتها لم تكن على نفس قيمة خطط المقرزى، وهى فى مجملها تعتمد عليه سواء من قريب أو بعيد. ويعترف بعض الباحثين أنه لم توجد كتب اختصت بالخطط سوى ثلاث فقط اختصت بذكر الخطط فى فصول من كتبها مثلما فعل أبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى تلميذ المقرزى المتوفى سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م حيث خصص فصلا من كتابه "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" للحديث عن خطط القاهرة وتأسيسها فى العصر الفاطمى. وكتاب السيوطى "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة" فيه بعض المعلومات الطبوغرافية عن مصر القاهرة ومعالمها الأثرية. وكتاب

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٥٥٨، ص ٢٠٣، وكذلك نشت ١٧٤، ص ٩٣ لسنة ١٠٦٥هـ.

(٢) اللياب العالى: س ٤٢، م ١٠٤٤، ص ١٧٦.

(٣) للمزيد عن المقاهى انظر: الفصل الرابع.

التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطوط القاهرة " ألفه شخص يدعى أقبغا الخاصكى، ألفه السلطان الأشرف قانصوة الغورى وهو محفوظ بالمكتبة الأهلية فى باريس^(١).

أما مؤرخو العصر العثمانى فقد اكتفوا بإستعادة معلومات خطط المقرىزى مثلما فعل ابن أبى السرور البكرى فى " قطف الأزهار " وغيرها. لذلك حاولنا من جانبنا أن نسلط الضوء على تخطيط مصر القديمة خاصة وأن خططها قد تعرضت للتغيير أكثر من مرة وهذه سنة التاريخ بالطبع، وهو الأمر الذى جعل خريطة المدينة قد طرأت عليها بعض التغيرات.

وربما يسأل سائل، لماذا نعالج الآن خطط المدينة وتحديثها رغم أن هذا لابد من التعرض له منذ البداية ؟ والإجابة فى بساطة شديدة هى حدوث عمران بالمدينة قد تعرضنا له فى البداية وهو أمر قد أوجد تغييرا فى خطط المدينة وحاراتها، حيث ظهرت أماكن جديدة حضرية بالمدينة بعدما كانت خرابا.

وقد رصدنا خطط مصر القديمة وكذا الحوارى بها وما يتبعها من ثنايا السجلات فى الجدول الآتى:

(١) أيمن فؤاد سيد: مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقرىزى، ص ص ٢٤، ٢٥

الخط	ما به من حارات	عطفة	درب	خوخة
حمام جمدار	المعلم حسين-المغربلين- منصور بن مرعي- ابن وفا العلاف-ابن ميلم- كشك-سويقة سنوار-أبي سعيدة المغربي-عبدى بيك-المستجدة (الجنينة سابقا)-الميامنة-الشرفا- النصارى والبترك- القدسيسة (الخللة)-حارة يحيى بن سلطان بالكفر المستجد.			خوخة ابن الأعرج
دار النحاس	رزير-عمر كشك- العياط-السرلمنة-ابن قميحة-رزنة		درب الحجارين	
فم الخليج	الكيزلنية-الدخامسة- البردينى-الجمالة- الجباس-الحاج طه-حارة السكر والليمون-السيدة هنيدة-حارة البردينى.	بياسينة ياسين المعلم سليمان الخولى		خوخة الهينى
خط بين الأفران "خط الخشاين سابقا"				
خط حمام العوافى				

				خط البحر ساعى
	درب الكنيسة- درب النخلة			خط سقايات السبع
محمد الحفاوى خوخة الشيخ				خط كوم الجارح
				خط جامع عمرو بن العاص
				خط الأعوج بقم الخليج

الجدول السابق يوضح لنا خطط المدينة وحواريها التى حاولنا قدر ما هو متاح بين أيدينا أن نرصد ونحدد مواقعها على خريطة مصر القديمة والتى وضح عليها الخراب فى بعض المناطق قبل القرن السابع عشر لاسيما فى منطقة أطراف حمام جمدار فى شرقى المدينة التى أطلقت عليها الوثائق اسم " منطقة الخلاء والكيما ن " (*) وهى المناطق التى خصتها حفریات الفسطاط وأطلقت عليها " منطقة حلقوم الجمل " التى تتصل بكوم الشقاف (انظر خريطة رقم " ١ " ص ٤٨)، وحتى باقى خطط مصر القديمة ظهرت بها بعض الوحدات السكنية والأجزاء الداخلية تعانى من الإعياء وتحتاج إلى عمليات جراحية حتى تصلح للسكنى، نخص هنا خط كوم الجارح (مسقط رأس أبى السعود الجارحى) وحرارة النصارى بقصر الشمع ... إلخ.

(*) انظر ملحق رقم (١) شكل يوضح مناطق الكيما ن والخلاء كما صورتها حفریات الفسطاط.

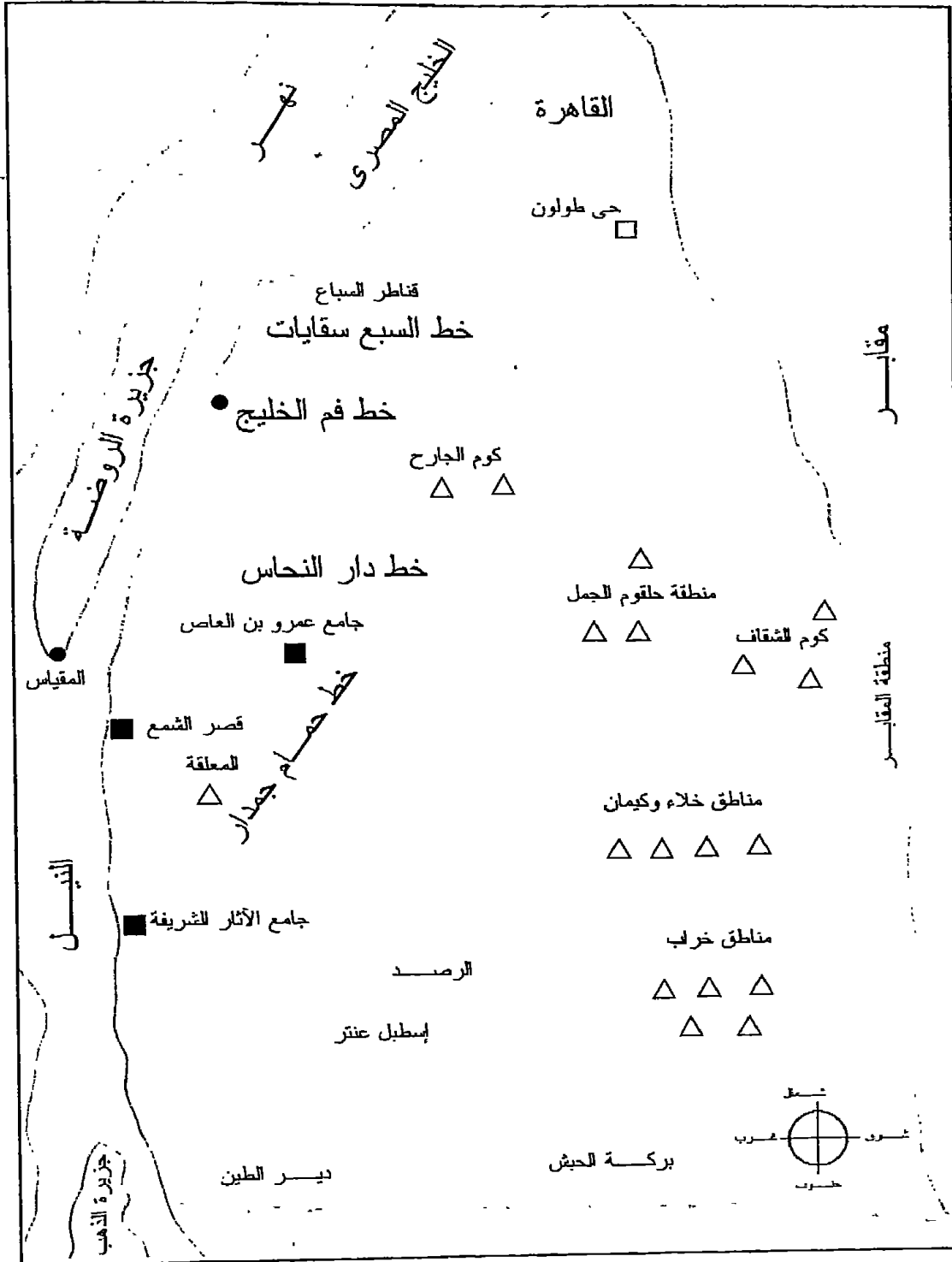
وما أن انصرم القرن السادس عشر حتى صدرت الأوامر الشريفة بضرورة تعمير أماكن الخراب بمصر القديمة، وقد تعرضنا إلى العديد منها في بداية هذا الفصل. وشمل هذا العمران الجزء الأكبر من منطقة الخراب التي أشرنا إليها (منطقة أطراف حمام جمدار)، فظهرت فيها الوحدات السكنية المختلفة من منازل وأحواش، وسمعنا فيها عن الحارة المستجدة بل كفر بأكمله يسمى " كفر الشيخ شهاب " وعمر الجامع القديم الموجود بالمنطقة قبل عمرائها وهو " جامع المسلمية " أو " جامع الديان " حتى يؤدي أهالي المنطقة شعائرهم الدينية. وفي محاولة من جانبها لربط المنطقة الجديدة المستجدة (منطقة الخلاء والكيان سابقا) بسوق حمام جمدار وجامع عمرو، قامت إدارة المدينة بتعمير طريقتين (دربين) طولهما يبلغ نحو (خمسة أذرع) يبدآن من موقف الحمارة وحوش عبد الرازق أبو العطا حتى يصلان إلى جامع عمرو وحمام جمدار (انظر خريطة رقم ٢ * ٤٩).

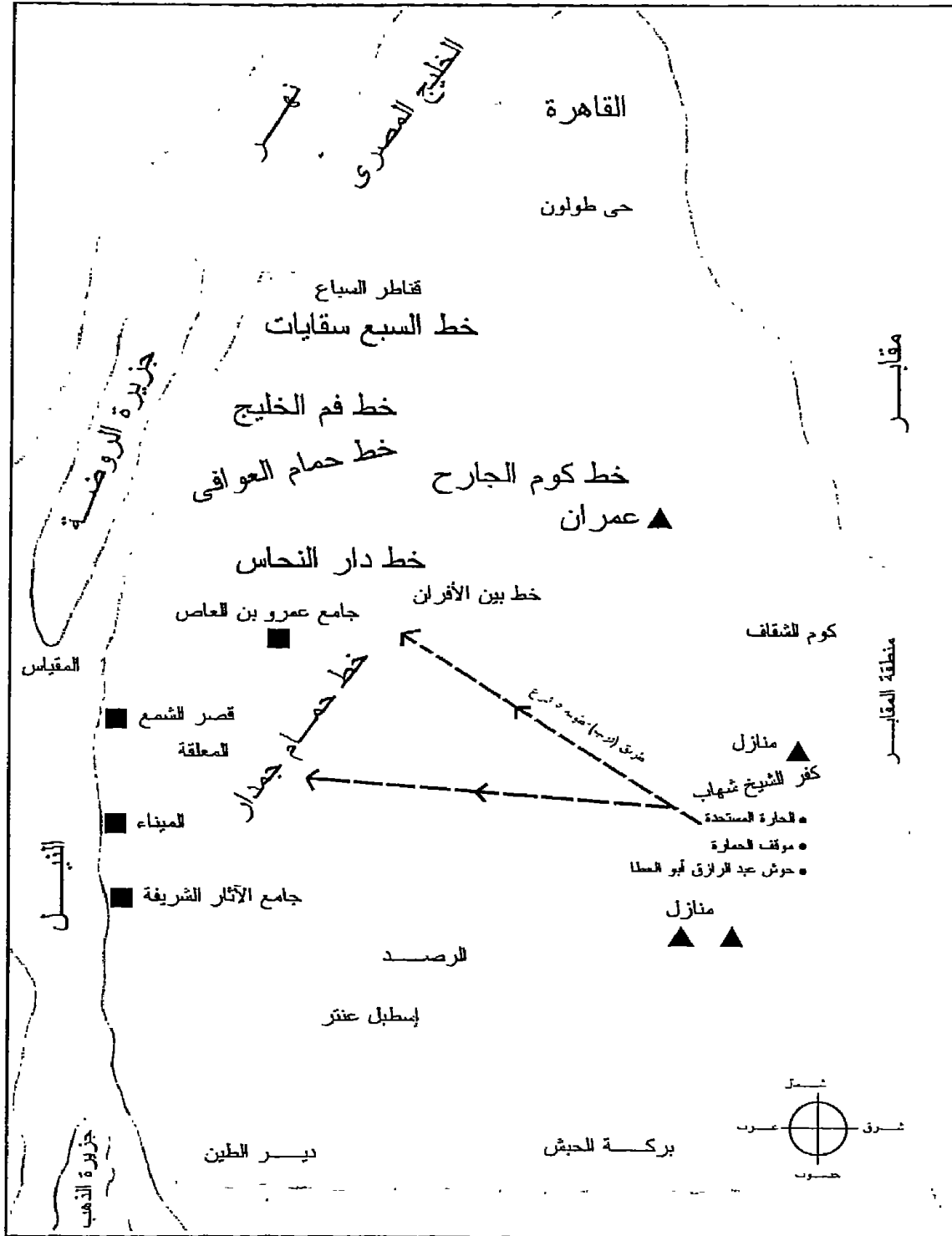
لا شك أن هذا العمران الذي حدث بالمدينة قد غير خريطة المنطقة، فقد وجدت مناطق جديدة استطعنا أن نسجلها على خريطة المدينة خاصة منطقة كفر الشيخ شهاب والتي أصبحت تابعة لخط حمام جمدار والمتاخمة له، فأصبح هذا الخط من أكبر خطط مصر القديمة مساحة وحارات (انظر الجدول السابق). ويجب أن نضع في اعتبارنا عدة أمور عند التعرض لخطط مصر القديمة هذه، فقد استطعنا أن نحصر منها نحو تسع خطط في ضوء ما تدلنا عليه وثائق المحاكم الشرعية وكتب الخطط، ولكن ظهر لنا أن بعضا من هذه الخطط الصغيرة يكون تابعا للخط الكبير المجاور له بحيث أنه في مواضع كثيرة تشير الوثائق إلى هذا الأمر، فكما هو معين في الخرائط التي بين أيدينا نجد مثلا خط بين الأقران من الخطط الصغيرة يجاور خط كبير مثل " خط دار النحاس " فهو بالطبع كما تشير الوثائق تابع له، ونفس الشيء بالنسبة لخط حمام العوافي المجاور لخط فم الخليج^(١). وكذا خط ساعى البحر المتاخم لخط حمام جمدار. أما خط السبع سقايات الواقع شمال مصر القديمة فهو يمثل حدودها مع قناطر السباع (السيدة زينب) وهو من الخطط ذات الأهمية للمدينة بما يحويه من

(١) وقد ورد على سبيل الإشارة السريعة خط الخطر بفم الخليج، ولكننا لم نسمع عنه سوى مرة واحدة عام ١٠١٨هـ/١٦٠٧م وهذا دليل آخر بفم الخليج على وجود خطط صغيرة داخل الخطط الكبيرة. انظر: محكمة مصر القديمة: ص ٩٨، م ٣٦٧، ص ١٠٤

دروب ومذبح ضخيم مخصص للحوم البقر والجاموس. أما منطقة جنوب مصر القديمة ونعنى منطقة الرصد (الشرف) المطل على إسطنبول عنتر فهي منطقة تكاد أيدى العمران لم تصل إليها ولم نسمع عن خط واحد من خطط المدينة خلال القرن السابع عشر قد إمتد حضارياً إليها رغم أن تاريخ المدينة يذكر أن المنطقة الممتدة من جامع الآثار الشريفة – الذى يقترّب إلى حد ما من إسطنبول عنتر – وحتى دير الطين كانت تمارس بها بعض الأنشطة الاقتصادية فى بداية القرن ولكن – فى حقيقة الأمر – على نطاق ضيق.

(١) خريطة توضح أماكن الخرائب بمصر القديمة فى ق ١٧





الفصل الثانی

النظام الإداری

النظام الإدارى

بعد أن دانت مصر للعثمانيين وسيطروا على مقاليد الأمور بها عقب هزيمة المماليك فى الريدانية ١٥١٧م وشنق طومان باى. بدأ العثمانيون يضعون نظاماً ثابتاً للحكم والإدارة فى مصر، فاشترك فى حكمها عدة عناصر يأتى على رأسهم الباشا (الوالى) وأحياناً تسميه المصادر (الوزير) ومعاونوه إضافة إلى هيئة أمراء المماليك من رجال العسكرية، والحامية العثمانية يشتركون فى الحكم والإدارة، وقد شملت الحامية العثمانية فى مصر عناصر مختلفة من العسكر (العثمانيين والمماليك والعرب)، وقد بلغ عدد رجالها عند مغادرة سليم الأول مصر نحو ١٢-١٤ ألف، وكانت الحامية مقسمة إلى ستة أوجاقات (فرق)^(١) وهم الكوكليان والتفنجكيان والجراكسة، العزبان، الجاويشية، وقد اكتملت الفرق العسكرية التى تمثل الحامية العثمانية فى مصر بتكوين الفرق السابعة، وهى فرقة المتفرقة من المماليك التى أضافها السلطان سليمان القانونى، فأصبحت الحامية العثمانية تضم سبعة أوجاقات^(٢).

هذا عن الهيكل الإدارى فى مصر العثمانية، فماذا عنه فى مدينة مصر القديمة لاسيما خلال القرن السابع عشر. تؤكد الوثائق أن المدينة بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الدولة خلال تلك الحقبة، قد وضح عليها سمات هذا التنظيم الإدارى، وقد خضعت خضوعاً مباشراً للعاصمة بوصفها مقر الحكم ومسقط رأس الباشا، إضافة إلى التبعية الاقتصادية بوصفها هى وبولاق منفذى العاصمة على النيل، وهو ما سنلاحظه فى صفحات تالية.

(١) السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٨٨٢م)، دار النهضة، ١٩٧٠، ص ١٠.

(٢) للمزيد انظر: قانون نامة مصر: أصدره السلطان سليمان القانونى، ترجمة أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦ -ومن الدراسات الرائدة فى هذا المجال. د/ عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون (١٥١٦-١٧٩٨م). دمشق، ١٩٦٨م -كذلك د/ عفاف مسعد السيد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤-١٦٠٩م) سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٧٩ - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص ١٠٣.

أولاً: الجهاز الإداري:

جاء التنظيم الإداري في مصر القديمة دقيقاً، ومكماً لبعضه بحيث أننا لا نستطيع أن نفصل منصب عن آخر إلا في أمور محددة تميزه عن غيره وهذا التلاحم يؤكد على حسن سير الإدارة داخلها اللهم إلا في بعض الفترات التي تحدث فيها فتن أو ثورات من قبل العسكر والصنّاق الأمر الذي يؤدي إلى حدوث ارتباك في الجهاز الإداري والأمنى. وقد جاء الهيكل الإداري بها على النحو التالي:

أ. أمير اللوا الشريف السلطاني:

ويأتي على رأس الجهاز الإداري في المدينة، وقد اصطلحت وثائق المحاكم الشرعية على تسميته بإسم " أمير اللوا الشريف السلطاني وصاحب العز المنيف الخاقاني والمحافظ هو في شهر تاريخه بمصر القديمة " وفي الثغور أخذ ألقاب أخرى مثل " القبودان " وكان مسؤوليته متضامنة مع الشخصية الرئيسية الأخرى في المدينة وهو الحاكم الشرعي (القاضي). فقد كانت الأوامر الإدارية الصادرة من الديوان العالي بالقاهرة أو من إسطنبول توجه إلى الحاكم الشرعي مخاطباً مع أمير اللوا أو غيرهم من مسؤولي الجهاز الإداري كما سنرى.

وقد تعددت مسؤوليات أمير اللوا سواء كانت إدارية أو اقتصادية أو اجتماعية. فالأمير عابدي بيك - صاحب الجامع الكائن بشاطئ نيل مصر القديمة - الذي تولى منصب أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م كان أيضاً في نفس الوقت محافظاً على الشونة بمصر القديمة ينظم شئون الغلال بها^(١). فيبرز دور أمير اللوا في حالات الغلاء الشديد أو حدوث الطواعين حيث كان عليه وفق ما يصله من بيورليات وفرمانات أن يجهز

(١) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٠، م ٥٢٠، ص ٢٦١ لسنة ١٠٥٣هـ

الغلال اللازمة من الشونة السلطانية بمصر القديمة وغيرها^(١). وقد رصد بعض الباحثين فعلاً أن عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م ظهر طاعون عصف بالشباب والصبية في مصر^(٢). وكان الأمير عابدى متحدثاً على أيتام مولانا الشيخ العارف بالله أبو الأكرام شيخ السجادة والكتبة الوفائية منذ عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٣م وهم محمد أبو الفضل، عبد الرازق أبو العطاء، وأم التيسير شامة وأم الهدى مؤمنة. وقام برعاية أملاكهم من مراكب نيلية وأراضٍ بجزيرة الذهب وكذلك مقاهٍ حديثة الإنشاء بخط حمام جمدار^(٣). وقد قدر لأيتام الشيخ أبى الأكرام هذا بعد بلوغهم سن الرجال أن تكون لهم تجارات عريضة داخل محيط المدينة وخارجها.

وبجانب ذلك كان الأمير عابدى يقوم ببعض الجولات الليلية مع الصوباشى بمصر القديمة. فتذكر الوثائق إنه قام بجولة مع الصوباشى فرحات ليلة ١٣ ذى القعدة عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٢م بالخلاء والكيمان قرب دير قصر الجمع بظهر حمام جمدار فوجدا جماعة من المسلمين والذميين حاملين السيوف والسكاكين والنبابيت وخلعوا باب الدير المذكور، وكانوا قرابة ٣٠ شخصاً، فلما قبض عليهم اعترفوا بفعل ذلك بحجة وجود وليمة بالدير^(٤).

وقد جرى فى التزام الأمير عابدى أراضٍ زراعية فى مناطق متفرقة فى الفيوم (طبهتار - المناشى - دشية) فى القليوبية (منية صُدر - طوخ دلكة - منية الكرام). وامتلك أطياناً بناحية كفر فرشوت بالمنوفية، ولكن نتيجة أعماله العديدة قام بتأجيرها عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٨م للأمير درويش جاويش بديوان مصر المحروسة لمدة سنة كاملة نظير مبلغ ثلاثين ألف نصف فضة^(٥).

(١) عبد الحميد حامد سليمان: الموانى فى العصر العثمانى، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٨٩ لسنة ١٩٩٥، ص ٦٩

(٢) ناصر أحمد إبراهيم: الأزمات الاجتماعية فى مصر فى ق ١٧، دار الآفاق العربية، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٥٢٠، ص ٢٦١ وانفس السجل م ٥٢٣، م ٥٢٤، ص ٢٦٣. للمزيد من التفاصيل عن أبناء أبى الأكرام. انظر الفصل الخاص بالتجارة من دراستنا هذه.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ١٤٩، ص ٦٠

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٧٧، ص ٢١٦

وقد تزامن مع الأمير عابدى أمراء آخرون منهم الأمير حسن اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م وبجانب وظيفته بمصر القديمة كان ملتزماً على عدة نواحٍ فى الفيوم والغربية والبحيرة^(١). وهناك الأمير أزبك بيك، والأمير محمد بيك الذى سقط جدار ربع الغورى بشاطئ النيل قرب الشونة الشريفة على كتحذاه (تابعه) الشيخ محمد بن العاصى شرف الدين البحتري فمات فى حينه^(٢). فالكتحذا كان يتحمل الكثير من الأعباء عن كاهل سيده الأمير. فيناب عنه فى عدة أمور، فيذكر أن الأمير عبد الله بيك أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٩م قد وكل الأمير مصطفى بن الأمير عمر طايقة مستحفظان فى حصص التزام الأمير البيك فى عدة نواحى بمحافظة الشرقية^(٣).

وتذكر سجلات المحاكم الشرعية أن أمير اللوا قد توافر لديه العديد من الأرقاء للعمل بخدمته فى الحراسة والبوابة أو الأعمال المنزلية وداخل حقول الأمير. فكان مراد بيك أمير لوا عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م بالمدينة قد امتلك العديد من الأرقاء البيض والسود سواء روسى أو أفرنجى أو حبشى. وبحسب له أنه قام بعنق العديد منهم ابتغاء وجه الله^(٤).

ب. القاضى ومعاونوه:

توافر للمدينة محكمة خاصة بها تنظر فى القضايا والمشكلات التى تعرض أمامها سواء كانت هذه القضايا تدور فى فلك المدينة أو ما يتعلق بها أو حتى خارجها. ويذكر عبد الرحيم عبد الرحمن أن هذه المحكمة قد أنشئت فى ١٥ رجب سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٧م، وانتهى العمل بها فى ٢٦ شعبان ١٢٢٦هـ/١٨١١م^(٥).

(١) نفسه: م ٣٧٠، ص ١٣٥

(٢) نفسه: م ١٤٨٩، ص ٥٥٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٥٨٣، ص ١٣٧٨

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦٧، ص ٢٦، وكذلك ٦٨، ص ٧

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى ق ١٨، مكتبة مدبولى، ط ١، ١٩٨٦، ص ٥٧

وقد تعرضت محكمة مصر القديمة خلال القرن السابع عشر للانتقال إلى مناطق متفرقة داخل المدينة. فكانت في بداية القرن داخل الجامع الجديد الناصري الذي شيده من قبل الناصر محمد بن قلاوون بفم الخليج، ثم انتقلت منه إلى الجامع المنصوري وسط مصر القديمة وذلك في عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م وجاء النقل مرة أخرى من الجامع المنصوري هذا إلى مدرسة الخروبية بناء على أمر من قاضي القضاة جاء فيه " أذن سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الإسلام تاج روس الموالى الأعلى الفخام بنقل المحكمة وسجلها من الجامع المنصور إلى مدرسة الخروبية بمصر القديمة^(١).

وبدأ العمل بها في ٨ شوال ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م. ثم انتقلت بعد ذلك إلى جامع القاضي حسن السويد بحمام جمدار عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م^(٢). وربما يعود هذا الانتقال إلى عمل ترميمات في هذه الأماكن، خاصة وكما رأينا في الفصل السابق مدى عملية الترميمات والعمران التي شهدتها المدينة خلال القرن.

وكان القاضي يجلس في المحكمة لمباشرة مهام وظيفته، وقد خضع هذا القاضي مباشرة لقاضي القضاة بمصر المحروسة، فكان بمثابة نائب عنه داخل المحكمة. وقد أطلقت عليه الوثائق لقب (النائب) و (الحاكم الشرعي). وكان بالمحكمة أربعة نواب للمذاهب الفقهية الأربعة (الحنفي - الحنبلي - الشافعي - المالكي) وإن كان السائد فيهم القاضي الحنفي لأن مصر أصبحت تقر هذا المذهب لها. ونادراً ما يقابلنا داخل بطون السجلات قاضي حنبلي أو غيره تنظر أمامه بعض القضايا. وكان من الممكن أن يزاوِل القاضي مهام وظيفته في محكمتين في وقت واحد، ففي عام ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م عين القاضي شمس الدين محمد البحيري قاضياً ملكياً بمحكمة مصر القديمة مع بقائه بمحكمة جامع الصالح قاضياً أيضاً^(٣).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٩١٢، ص ١٥٠٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٩٨، ص ٥٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، ص ٢٣٢. وعن القضاء في العصر العثماني عموماً انظر: عبد الرزاق عبد الرزاق عيسى: القضاء في مصر في العصر العثماني، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢ .

وقد لاحظ الرحالة برمون Premond أن القضاة فى مصر العثمانية كانوا يسكنون على حساب الدولة كما كان لديهم فى قضاة باريس وكانت هذه المساكن مثل مساكن ضباط الجيش الفرنسى وعساكره ويعود فيقول - إن نفرأ من هؤلاء القضاة كانت مساكنهم الخاصة فى الشوارع وهذا دليل البساطة^(١).

وحرص قاضى القضاة على ضرورة تحرى العدل داخل محكمة مصر القديمة وغيرها، فدائماً ما يصدر أوامره التى تحمل هذا المعنى. فهناك رسالة منه عام ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م بحث فيها النواب والقضاة والشهود أن يسيروا بالعدل والإنصاف والصدق وترك الشبهات، ولا يتعاطون الكتابات فى المواد الخمس المستثنى بها كالكشف والتقريب والحكم على الغائب أو تفرد شاهد ويمين. والتواجر الطويلة والفسخ والقسمة والاستبدال. فكل ذلك هم ممنوعون منه إلا بإذن شريف. كما حرم عليهم أيضاً شرب الدخان داخل المحكمة، فمن فعل ذلك عوقب بالطرد^(٢).

والحقيقة أن مراسلات قاضى القضاة للنواب كانت بمثابة دستور ونبراس لهداية هؤلاء القضاة تجنباً للوقوع فى الخطأ وحرصاً على تحقيق العدل بين الرعية. فمنها عدم أخذ أى نقود من المفرج عنهم، ولا يسجن أحد على قرشين، وأن يعطى الشخص الذى عليه دين مهلة للسداد وإن عاند فى الدفع يحبس بالتماس خصمه^(٣). وأن لا يغالى المحضرون فى أخذ الدراهم فيذكر أنه فى عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م اتصل لمسامع شيخ الإسلام أى قاضى القضاة إن المحضرين يفحشون فى أخذ الدراهم بتحريض من (محضر باشى) زيادة عن العادة المتبعة. فألزمهم شيخ الإسلام بعدم الزيادة عن العادة القديمة ومن يخالف ذلك يكون عقابه العزل^(٤).

^(١) Gabriel Premond. Op. Cit. p70

^(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ١٤٠، ص ٥١ - انظر: ملحق رقم (٣) الخاص بمراسلة شيخ الإسلام إلى النواب والقضاة.

^(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٨٩٨، ص ٣١١

^(٤) محكمة البرمسية: س ٧١١، م ١، ص ١

وقد حث أيضاً على ضرورة الاهتمام بمصالح المرضى والأيتام والضعفاء والمساكين وعدم تعطيل مصالحهم ومواريتهم^(١).

أما القضايا الخاصة بالقسمة العسكرية والقسمة العربية فقد منعت محكمة مصر القديمة وغيرها من تعاطيها بناء على عدة مراسلات سواء من شيخ الإسلام أو حتى من القسم العسكرى بمصر المحروسة وقد نهج الديوان العالى نفس هذه السياسة بصدور العديد من المراسلات منها عام ١١٠٤هـ بعدم تعاطي كتابة المواد المتعلقة بالديوان العالى ولا بالصفة المتصورة^(٢).

كل ذلك تأكيد على ضرورة الوصول إلى قضاء عادل وشامل ولم بكافة جوانب المجتمع. لذلك أصبح فى يد الحاكم الشرعى مرجع أساسى يستند إليه كلما تعثرت الأمور أمامه. ويساعده فى مهمته المنوط بها هذه: الشهود أو العدول: فكانوا بمثابة الساعد الأيمن للقاضى، فيكتبون الحجج داخل المحكمة نظير أجر معلوم تقدره الوثائق بنحو ٤ أنصاف فى الحجة الواحدة، وقد حذر شيخ الإسلام من قيام الشهود بكتابة الحجج خارج المحاكم بغير معرفة النواب الحنفية عندما رأى الكثيرين منهم يتعاطون ذلك^(٣). ويعين السادة العدول بأمر من قاضى القضاة داخل المحكمة، وقد ورد أمامنا العديد منهم داخل محكمة مصر القديمة والذين يعود أغلبهم إلى أنساب عريقة مثل السيد أحمد أصالة الوفاى والشيخ عبد الفتاح بن الشيخ مدين السعودى وناصر الدين مصطفى بن الشيخ الإمام أحمد خضر^(٤).

ومن معاونى القاضى جماعة المحضرين أو الرسل، يرأسهم محضر باشى - كما تقدم - وهم الذين يناط بهم إحضار من تتطلب إجراءات الدعوى حضورهم إلى المحكمة

(١) محكمة البرمشية: س ٧١٠، م ٨٨٩، ص ٦٥٣ لسنة ١٠٣٤هـ.

(٢) محكمة الزاهد: س ٦٨٢، م ٢٦٨، ص ١٣٣.

(٣) محكمة البرمشية: س ٧١١، ص ١ لسنة ١٠٥٤هـ.

(٤) محكمة البرمشية: س ٧١٤، م ٦٠١، ص ٢٤٦ لسنة ١٠٩٠هـ.

لسماع أقوالهم، وغالباً يتم اختيار هؤلاء من بين الجند المتقاعدين^(١). كذلك كان الصوباشى كما سنرى من كبار معاونى القاضى ومنفذاً لأوامره بكل دقة وحزم.

وكانت تعرض يومياً أمام قاضى مصر القديمة العديد من القضايا والمشكلات التى يفصل فيها بمعاونة شهود مجلسه. فعلى طول القرن السابع عشر وقعت العديد من حوادث السرقة والقتل أو السطو سواء بين المسلمين أو النصارى أو بعضهم البعض، حيث كان القاضى الحنفى ينظر فى قضايا الذميين من أهل مصر القديمة التى تعرض أمامه. ففي ليلة ٢٨ ربيع الثانى ١٠١٩هـ/ ١٦٠٩م وقعت حادثة بحارة قصر الشمع، تعدى فيها اللصوص على أهل الحارة وسرقوها، وقد ادعى جرجس بن عبد السيد النصرانى اليعقوبى - أمام الحاكم الشرعى - على رزىق بن جرجس النصرانى أيضاً بأنه فى ذات الليلة قد فتح ثقباً موصلاً لمنزله، وأحضر جماعة اللصوص وربط لهم حبلاً حتى نزلوا إلى بيته وأخذوا " الدوشت النحاس " وثمنه ١٤٠ نصف فضة، ولما صاح فروا هاربين بما معهم. فأشهد الحاكم الشرعى جمعاً من النصارى اليعاقبة من أهل حارة قصر الشمع، فشهد كل من عبيد بن داود، حبيشى بن عبد المسيح وصليب بن غبريال وغيرهم بأن رزىق يعاشر اللصوص والمفسدين لذلك أمر الحاكم الشرعى بتعزيزه التعزير الشرعى^(٢).

وقام القاضى الحنفى بتأديب منصور بن سلام النصرانى عندما ثبت عليه شرب الخمر عشية ليلة ١٨ رجب ١٠٢٠هـ/ ١٦١٠م^(٣). ومن الأحداث الغريبة التى وردت أمام القاضى الحنفى أيضاً من قبل الزينى أوده باشى طائفة عزبان المتولى السبع سقايات أن امرأة تدعى صالحة بنت محمد المعروفة بزوجة إبراهيم الحمار القاطنة داخل حوش درب السيدة زينب أخبرت أن شخصاً يدعى سلامة الحمار أخذها من مكانها دون علم أبويها وزوجها وجيرانها وتوجه بها إلى قصر العينى ووضعها فى خزانة بداخل قاعة مكثت فيها قرابة تسعة

(١) محمد نور فرحات: القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ٨١

(٢) محكمة مصر القديمة: م ٩٨، ٧٠١-٧٠٢، ص ٢٠٦

(٣) نفسه: م ١٥٠١، ص ٤٠٦

أشهر^(١). ورغم أن أصل الوثيقة لم يكتمل لكن يبدو لنا من سير الواقعة أنها حادثة خطف ربما للانتقام أو بهدف الاعتداء على هذه المرأة.

وفى ٢٨ محرم عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م ادعى المعلم محمد بن نور الدين المعروف بالجماميزى - أمام القاضى الحنفى - على الحاج موسى بن عيسى الفوال بأنه تعدى عليه بخط الحوض الأعوج بقم الخليج بالسباب والشتم بدون وجه حق، فلما سئل عن ذلك أنكر، فكلف المدعى بإظهار البينة فأحضر الشهود الذين أقاموا الشهادة بأن المدعى عليه قد فعل ذلك، وبناء عليه عذره الحاكم الشرعى^(٢).

وأحياناً كانت تأخذ بعض القضايا طريقها إلى الصلح أمام القاضى رغم وقوع الجرم البين. فقد ادعى الذمى عبد السيد بن عبد رب المسيح على زوج ابنته زيتونة وهو الذمى يوسف بن عبد السيد النصرانى - وكان كل منهما يعمل خياطاً بخط حمام جمدار - عندما أرسل ابنته القاصر بطعام من اللبن لأختها المذكورة، وجلسا تأكلان، فجاء يوسف المذكور وتعدى على البنت القاصر وضربها بقدميه وطردها فخافت منه وارتعدت حتى بطل نصفها وعجزت عن الوقوف، ورغم ثبوت ذلك عليه إلا أن بعض الناس قد تكلموا فى الصلح ورفع الطلب، وتم ذلك أمام القاضى الحنفى، واشترط على المدعى عليه تطبيب البنت المذكورة إلى حين خلاصها من مرضها^(٣).

ولم يكتف القاضى بالجلوس داخل المحكمة للتقاضى، بل كان يذهب بنفسه إلى مكان وقوع الحادثة حتى تتبين له الحقائق، وإن تعذر وجوده كان يرسل من طرفه شهود مجلسه وبصحبتهم الصوباشى الذى لعب دوراً بارزاً فى تحقيق الأمن والاستقرار داخل المدينة. إذن يتضح لنا من ذلك أن عملية سير القضاء داخل مصر القديمة فترة القرن السابع عشر لم تكن

(١) محكمة قناطر السباع: م ١٣٦، م ١٩١، ص ٥٠ لسنة ١٠٨٩هـ.

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٢، م ٧٨٦، ص ٣١٢.

(٣) نفسه: م ٩٢٣، ص ٣٦٤.

قاصرة على رجال القضاء فحسب، بل هناك ثمة تلاحم بينهم وبين رجال الأمن وسوف يتضح ذلك أكثر وأكثر عند مناقشتنا حول مسؤولى أمن المدينة.

ج. الصوباشى وأمناء الإدراك:

هناك شبه إجماع بين الباحثين على أن صفة الوالى أو الصوباشى تطلق على من يسند إليه رئاسة الجهاز الأمنى داخل المدينة وأطلق عليه أيضاً لقب (زعيم) أى زعيم مصر القديمة أو صوباشى مصر القديمة^(*). وقد خضعتا مصر القديمة وبولاق أمنياً وإدارياً للقاهرة بوصفهما ضاحيتان من ضواحيها، وخضعتا أيضاً لإشراف رجال من أوجاقات مستحفظان، حيث يختار من رجال هذا الأوجاق وأغواته من يكون مسئولاً عن الإشراف على الأمن ورجاله فى هاتين الضاحيتين^(١). ثم بعد ذلك وبالتحديد منذ سنة ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م ألحقت مصر القديمة وبولاق إدارياً بالقاهرة، وانتقل الإشراف الأمنى فيهما إلى زعيم القاهرة.

وقد رأينا فيما سبق التحديد الجغرافى لمصر القديمة، وكيف تنتهى حدودها، وظهور مناطق سكنية جديدة بعدما دبت عجلة العمران فى جسدها. ولنا أن نذكر الآن أن النطاق الأمنى لمصر القديمة ربما يخرج إلى خارج حدودها الجغرافية هذه، والذي يمكن أن نسميه "النطاق الأمنى" أو "الحدود الإدارية" إذا جاز لنا التعبير، وما دفعنا إلى الانسياق خلف إيجاد هذه المسميات هو خروج مصر القديمة فعلاً خارج حدودها الجغرافية لتتشرّف أمنياً على أجزاء من خط قناطر السباع (السيدة زينب)، وهو ما أشرنا إليه فى موضع سابق من

(*) صوباشى: لقب حربى قديم كان يستعمل فى البلاد المتحضرة بالحضارة التركية وأصبح من أشهر الألقاب الحربية والعسكرية فى الدولة العثمانية، على أنه يستعمل فى آسيا الصغرى فى عهد متقدم يرجع إلى أيام السلاجقة، وكان لهؤلاء الصوباشية إمتيازات تختلف باختلاف الولايات وكان لهم إقطاعاتهم (تيمار) وللصوباشى نصيب من الضرائب والغرامات التى تفرض على الأهالى. انظر: عبد الحميد يونس وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص ٣٦١، ٣٦٢

(١) عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٤، ١٢٥

قول الوثائق بصريح لفظها " درب السيدة زينب بخط قناطر السباع المعدود من درب مصر القديمة ".

أما صوباشى مصر القديمة فهو رئيس جهاز الأمن بها، وكان دائم الاتصال بالحاكم الشرعى ويحضر العديد من جلساته ويعرض عليه كل صغيرة وكبيرة تحدث داخل المدينة. وعلى طول القرن السابع عشر وجدنا العديد منهم فى ضوء سجلات المحاكم الشرعية. وكان للصوباشى سجن خاص به بجانب سجن الحاكم الشرعى يودع فيه الخارجين على القانون وإن كان سجن الشرع الشريف (الحاكم الشرعى) هو الأساس المعترف به عند توقيع العقوبات. ومن الأمور التى وقعت قدوم الزينى بيالة صوباشى مصر القديمة عام ١٠٢٣هـ/١٦١٣م للقاضى الحنفى وأخبره بأن أربعة أشخاص مسجونين بسجنه بمصر القديمة قد انتهزوا فرصة طوافه وجماعة الخفر وجماعة البوابة التى بها السجن كانوا معه، وفروا هاربين، ولم يعثر عليهم^(١).

وكان الأمير سليمان بن محمد جاويش الذى تولى منصب الصوباشية بمصر القديمة منذ ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م حتى عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م هو أنشط هؤلاء قاطبة إضافة إلى التزامه ببعض المناطق الزراعية فى الأفيحية^(٢). واملاكه العديد من المراكب النيلية.

وتعتبر الجولات الليلية التى يقوم بها الصوباشى ورجاله من المحافظين فى غاية الأهمية لحفظ الأمن ومنع وقوع العديد من الجرائم وجمع المعلومات حول بعض المخالفين مثلما فعل الأمير محمد عام ١٠٩٠هـ/١٦٨٠م فقد وصل إلى علمه أن رجلاً من الفلاحين الخيالة يدعى إبراهيم الحلوانى من أهل الفساد والخيانة وهو قاطن بخط حمام جمدار داخل حارة ابن مرعى، وكان قبل ذلك مقبوضاً عليه عند صوباشى القاهرة وبعد إطلاق سراحه

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٢٤٦، ص ٨٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٤٨٧، ص ٢٤٣. وقد لاحظ جب وبون هذا وأعلن أن صوباشى (التيار أو الخزانة) لهم الحق فى الإتاوات المتحصلة من الغرامات المفروضة على المذنبين. جب وبون: المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج ١، دار المعارف، ١٩٧٠، ص ٢١٨.

قدم إلى مصر القديمة ولم يقض بها إلا مدة يسيرة وضاع لجار له بعض البهائم ليلاً ولم يعلم السارق فذهب الصوباشى المذكور على منزل إبراهيم الحلوانى الذى أشهر سكيناً بيده فى وجه الصوباشى ثم فر هارباً فتبعه الصوباشى فتسلق فى حائط مكان جارة إلى أعلاها وألقى بنفسه والسكينة مشهورة بيده فنزل عليها وعلى مجاديل من الحجر^(١). وتشير هذه الواقعة إلى مدى حرص الصوباشى على حفظ الأمن مهما عرضه ذلك للخطر. بل وأبعد من ذلك فقد تعرض من قبل الصوباشى حسن عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م للقتل المؤكد فى الواقعة التى حدثت فى ٢٠ ربيع الأول من نفس السنة، عندما أخبره جماعة من الناس بوجود عدة أنفار يتخفون فى زى جماعة الينكجارية المحافظين بمصر القديمة ويدعون ذلك كذباً ومعهم البنادق والسيوف ونزلوا بمنطقة الخلاء والكيان بدرك مصر القديمة وأخذوا يتعرضون للناس ويقطعون عليهم الطريق، فلما أدركهم الصوباشى المذكور وكانت معهم امرأة تستغيث دون جدوى، فهددوا الأمير حسن هذا بقتل هذه المرأة إذا اقترب منهم، بل قام أحدهم بالفعل بإطلاق النيران عليه ولكن لم يصب الأمير، واستطاع أن يقبض عليهم ويطلق سراح المرأة^(٢).

ولم تقتصر مهام زعيم مصر القديمة على عملية حفظ الأمن فقط بل تعدتها إلى وظائف أخرى كان يكلف بها من قبل الإدارة العثمانية، فقد صدر بيورلدى شريف من والى مصر عبد الرحمن باشا فى ٢٩ رجب ١٠٦٢هـ/١٦٥٢م فى خصوص الحطب المعين برسم القرن والمطبخ بالديوان الشريف، وهو موجه لكل من حسن كتحذا أمين البحرين حالاً والأمير بهرام شرجى والأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالاً وغيرهم. وعليهم كفاية المطبخ والقرن المشار إليهما من الحطب على طول الشهر فجاء على الأمير سليمان كفاية ثلاثة أيام فى كل شهر^(٣). وكان الأمير سليمان أيضاً - الذى ذكرنا إنه أنشط زعماء مصر القديمة - بجانب أعباء الصوباشية وكفاية المطبخ والقرن السلطاني كان أميناً على السواقي

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٣١٣، ص ١٦٣٥

(٢) دشت ١٦٦ لسنة ١٠٥٧هـ، ص ٩، ص ١٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٢٠٥، ص ٤٦٧

السلطانية يرعى شئونها المختلفة من ضمان توفير الأعلاف اللازمة لأثوار هذه السواقي وسير عملية الدولة ودوران السواقي دون عجز أو تقصير^(١).

ولكن لا يعنى كل ذلك أن الصوباشى يقوم بعمله على أكمل وجه دون تقصير، فقد ثبت أن بعضهم غير مؤهل لهذا المنصب. فقد حضر مجموعة من أصحاب الحوانيت بدار النحاس إلى القاضى الحنفى وأخبروه أنه فى منتصف ليلة ٢٦ رمضان ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م حضر جماعة من اللصوص إلى خط دار النحاس المذكور ومعهم الأسلحة وتعدوا على حوانيتهم وكسروا أبوابها وأخذوا ما فيها من البضائع والودائع والدرهم دون أن يمنعهم أحد لأنه فى هذه الليلة كان الأمير محمود الصوباشى آنذاك غائبا، وأخبروا إنه " فى غالب الأوقات يترك البلدة المذكورة ويتوجه إلى منزله الكائن بمصر المحروسة وينام ويترك الدرك من غير أحد يحفظه وإنه فى الليلة المذكورة كان غائبا عن البلدة ولم يكن فيها أحد يحفظ الدرك والرعايا والمسلمين..... " (٢).

وكذلك حضر للقاضى الحنفى - الحاج على البديوى القللى بخط فم الخليج^(*) وأخبره إنه فى ليلة ١٣ ذى الحجة ١٠٧٣هـ / ١٦٦٣م تعدى اللصوص على فواخيره المعدة لصناعة القلل الكائنة بالكيزانية وكسروا ما بها من القلل المصنوعة وحصل له بذلك غاية الضرر، وأعلن أن سبب ذلك هو الأمير أحمد صوباشى مصر القديمة الآن يأخذ من أصحاب الفواخير الخفراء ولم يتقيد بحفظ دركه ولا يدفع الضرر عن الرعايا والمسلمين، ولم يخفر عليهم ليلاً أو نهاراً^(٣).

على أية حال كان لزعيم مصر القديمة مساعدون له يعاونونه فى القيام بعملية حفظ الأمن وإدارتها داخل المدينة. فكان هناك الخفراء والحرس والبوابين على الحارات، إضافة

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٩٥، ص ٨٤ لسنة ١٠٧٧هـ

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٣٩٢، ص ١٤٥

(*) انظر: الفصل الرابع حول تجارة الشيخ على البديوى هذا

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٨٤٢، ص ٦٩٦

إلى طائفة الإنكجارية المحافظين الذين يصحبون الصوباشى فى جولاته الليلية. أما أمناء الأدرارك فهم الساعد الأيمن للصوباشى ورجاله الذين يعتمد عليهم فى سير حركة الأمن وضمان استقرار الأمور. وقد قسمت مصر القديمة إلى عدة أدرارك مثل (درك حمام جمدار - درك دار النحاس - درك السبع سقايات - درك الشونة الشريفة - درك فم الخليج - درك درب السيدة زينب) ولا يعنى أن عدم ذكر مناطق معينة بمصر القديمة ضمن نطاق الدرك أنها بعيدة عن يد الصوباشى واهتمامه، فمثلاً منطقة الروضة كانت محط اهتمام وجولات لرجال الأمن، وكذلك منطقة كوم الجارج والقصر العينى وغيرها من مناطق المدينة. وكان الحاكم الشرعى هو الذى يقوم بتعيين مقدمى الأدرارك وعزلهم إذا رأى فيهم تقصير ويشترط فيهم تدينهم واستقامتهم ورضا الناس عنهم^(١).

وكان الأفراد يأتون إلى القاضى ليعلنوا رغبتهم فى أن يكونوا مقدمى درك معين. فإذا رأى فيهم القاضى أهلية ذلك يتم اختيارهم مع تحديد حدود دركهم، ففي ٨ شوال عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م سأل كل من نور الدين بن حسين وعامر بن أحمد بن عبد الله المحلاوى الحاكم الحنفى أن يكونا أصحاب درك الشون الشريفة وحمام جمدار على حكم الحدود المعينين بها، واشترط عليهم القاضى تكفية الدرك من حيث حفظ الأمن وإغاثة الملهوف وإطفاء الحريق إلخ^(٢). وتذكر الوثائق وجود مقدمى أدرارك بالمدينة وهم فى الأصل ليسوا من أهلها، فقد تولى خضر بن حامد بن سلامة من كوم البدارى بأبى تيج أمانة درك دار النحاس عام ١٠١٨هـ^(٣). وكذلك جعفر بن أبى الخير وعبد الرحمن بن نصار من أهالى ناحية دبر الطين والمحترم نصار ابن محمد الفيومى، رغب كل منهم أن يكون مقدماً بدرك حمام جمدار من ابتداء حدوده إلى نهايتها أى من القبو المعروف بالمرحوم القاضى جابر قديماً إلى الطريق الفاصل بين الجنينة المعروفة بجنينة ياسين وبين الجميزة المحروقة التى هناك والتزم كل منهم بتكفية الدرك برجال يحفظونه بأسلحتهم، ومهما ضاع من دركهم فى

(١) عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص ١٢٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٧٤، ص ١٠٥

(٣) نفسه: م ٢٠٣، ص ٥٤

زمن ولاياتهم كان عليهم القيام بنظيره من مالهم^(١). وتذكر نفس الوثيقة أن هؤلاء الأمناء قد تولوا هذا الدرك لمدة سنة كاملة تبدأ من شهر شوال ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م وحتى شهر ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ/١٦٦١م واشترط عليهم دفع مبلغ من المال نظير تعاطيهم أمانة الدرك المذكور في السنة المذكورة، وقد اختلفت قيمة المبلغ المدفوع في نصف السنة الأول عن الثاني، فقد دفعوا في النصف الأول (من ابتداء شهر شوال حتى شهر ربيع الأول) ٨١ قرشا في الشهر أى ٨١ نصف فضة في اليوم، أما في النصف الثاني (من ابتداء ربيع الآخر حتى نهاية شهر رمضان) ٦١ قرشا في الشهر أى ٦١ نصف فضة في اليوم. ربما يعود الانخفاض في الأسعار إلى الأزمات المالية التي حدثت في هذه السنة. وعموما قام هؤلاء بدفع هذا المبلغ للأمير مصطفى زعيم مصر القديمة آنذاك على حكم العوايد الجارية^(٢). وأحيانا يقوم مقدم الدرك بدفع مبلغ كنوع من الغرامة إذا تغيب عن دركه أو تركه قبل المدة المحددة. ففي وثيقة مؤرخة في ٢٣ جمادى الأول ١٠٢٠هـ/١٦١٠م أشهد على نفسه أحمد بن صالح بن أحمد مقدم درك شونة الغلال بمصر القديمة إنه متى تغيب عن الدرك المذكور وتركه كان عليه القيام بدفع ٥٠ ديناراً من ماله للزنى محرم صوباشى مصر القديمة وقتئذ^(٣).

وسجلات المحاكم الشرعية تؤكد الدور الفعال الذي قام به أمناء الإدراك في مصر القديمة خلال القرن، فكانوا خير معين للصوباشى ولدينا العديد من الأمثلة التي تبرهن على ذلك، فعندما ادعت السيدة خطيطه بنت على بأن باب منزلها قد خلع في نهار ٢٥ ربيع الأول ١٠٢١هـ/١٦١١م وضاع لها كساء صوف ثمنها خمسة دنانير، أخبر جار لها يدعى عبد الحق بن غراب وجد عبدا أسودا لا يعرفه يحمل المكساء الصوف بالسبع سقايات، فلما أراد أن يقبض عليه فر هاربا، فرجع و أخبر مقدم درك السبع سقايات ويدعى "المقدم قبالة" الذي

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٨٣١، ص ٢٨٨ لسنة ١٠٧٠هـ

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٨٣١، ص ٢٨٨

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٣٥٣، ص ٣٧٤

استطاع أن يقبض عليه ويحضره إلى الأمير حسن صوباشى مصر القديمة^(١). وفى منطقة فم الخليج مستودع صناعة القل^(٢) حيث مسقط رأس الحاج على البديوى ومحمد النقيطى من كبار طائفة القلالية فى المنطقة، رفع هؤلاء شكاوهم إلى الحنفى ورجاله بالسرقات التى تحدث فى فواخيرهم الكائنة بالكيزانية فتارة يجدون تتوراً قد سرق وتارة يجدون آخر قد تحطم ولا يعرفون الفاعل، وفى ليلة ١٣ صفر ١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م لم يشعروا إلا ومقدم درك فم الخليج حضر إليهم ومعه رجل مقبوض عليه ويدعى رمضان بن رمضان من القاطنين بكوم الجراج ومعه بعض القل، فلما استفسر منه القاضى الحنفى أخبره إنه "حضر ليلة تاريخه إلى الكيزانية وفتح فاخور الحاج على البديوى المرقوم وأخذ منها بعض من القل وأراد التوجه فلم يشعر إلا ومقدم الدرك أوقع القبض عليه وإنه من الآن رجع عما كان فيه ولم يعد يفعل شيئاً من ذلك"^(٣).

وإيماناً بأن لكل مهنة ضريبتها، تؤكد لنا بعض الوثائق هذا المثل الدارج، فقد دفع أحد مقدمى الدرك حياته ثمناً لتأدية الواجب المنوط به. فقد أخبر الأمير مصطفى زعيم مصر القديمة القاضى الحنفى بأن اللصوص فى خط فم الخليج قد قتلوا مقدم الدرك به ويدعى ناصر، وإنه عندما كشف عليه وبصحبته دواذره^(٤) الزينى دلاور تبين وجود ضربات سكين فى ضلوعه كانت سبباً فى حدوث الوفاة^(٥).

(١) نفسه: م ١٩٤٩، ص ٥١٠.

(٢) راجع الفصل الثالث.

(٣) محكمة مصر القديمة: م ١٠٢، م ٤٥٦، ص ١٦٦.

(٤) الدواذار والدواذار من الكلمة العربية دواة والفارسية (دار) بمعنى صاحب والقيم. وهى وظيفة قد أنشأها السلاجقة، وقال أحمد السعيد سليمان بوجود هذا المنصب فى الدولة العثمانية حيث كان بمثابة رئيس للكتاب وكان للنشأنجى دويدار وفى الدفتردارية دويدار بالمالية. ولكنه لم يذكر وجود دويدار للصوباشى انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١٠٩-١١١.

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٢٧٨، ص ١٠٣، ١٠٤.

د. المحتسب:

الحسبة من المناصب الدينية التي نشأت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وظلت قائمة تتناقلها الأجيال إيماناً بمدى الدور الهام الذي يلعبه المحتسب من رعاية الأسواق ومراقبة الموازين والمكاييل لمنع التزوير. وفي العصر العثماني كان للحسبة ديوان خاص بها، وكان المحتسب بمصر القديمة يلتزم بدفع مبلغ شهري لهذا الديوان وصل في بعض الأوقات إلى نحو ٢٠٠ عثماني في الربع الأول من القرن السادس عشر قد التزم بدفعهم الحاج أبو الفتح بن كمال الدين المعروف بالحارثي المحتسب بمصر القديمة عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م^(١). ولكن تؤكد الوثائق تضاعف هذا المبلغ بعد ذلك. ويعمل تحت يد المحتسب العديد من المباشرين والكتبة والنقباء، فقد تولى محمد بن المرحوم سليمان نقابة الحسبة بمصر القديمة منذ عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م^(٢).

وكان ديوان الحسبة الشريفة يصدر تسعيرة يحدد فيها أسعار البضائع والسلع المختلفة التي ترد في الأسواق. وأحياناً كان المحتسب هو الذي يقوم بتسعير السلع والبضائع، ومن يخالف ما سعره يقع عليه التعزيز الواجب ويتم إشهار المناداة عليه^(٣) على حد تعبير الوثائق.

وقد تمثلت موارد المحتسب في الفرق بين ما يحصلونه من جهات مقاطعة الاحتساب، وكذلك من تركات الموتى (المواريث الحشرية) الذين لا وارث لهم، وكذلك يتقاضى رسوم لقاء تصحيح الموازين والمكاييل والمقاييس المتداولة في الأسواق^(٤).

وفي حقيقة الأمر أن ذكر أمين الحسبة بمصر القديمة خلال القرن السابع عشر كان قليلاً والمادة التي بين أيدينا فقيرة للغاية. ولكن هل هذه الأمور مدعاة لكي نهمل هذا الجانب

(١) دشت ٤، ص ٤٦٣ لسنة ٩٣١هـ

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٤٢٤، ص ٢٠٩

(٣) محكمة الإسكندرية: س ١٤٩، م ١٩٩، ص ٧٢ لسنة ١٠٥٣هـ

(٤) عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص ١١٩

الهام ؟ وهل عدم ظهوره بكثرة على مسرح أحداث المدينة يعنى إنه كان مقصراً فى أداء وظيفته ؟ أم أن وظيفة الاحتساب فى حد ذاتها كانت مهمة ؟

من خلال دراسة الوثائق الخاصة بالمدينة تبين لنا أن أسواق مصر القديمة لاسيما أسواق حمام جمدار ودار النحاس وفم الخليج قد خضعت لإشراف أمناء الأبرك. صحيح إنه إشراف أمنى ولكنه أحياناً يتعدى هذه الصفة بتدخل كل من الحاكم الشرعى وكذلك الصوباشى والسادة المحافظين بمصر القديمة. حيث كان الصوباشى ينظم تجارة البطيخ والدار الخاصة بها قرب الآبار الشريفة لقاء تحصيل العوايد^(١). وكان الحاكم الشرعى يمنع الغش والاحتكار بين التجار، وكانت هذه أهم وظائف المحتسب، فقال الشيرزى وإذا رأى - يقصد المحتسب - أحداً احتكر الطعام من سائر الأقوات ألزمه بيعه إجباراً لأن الاحتكار حرام^(٢). لذلك قام الحاكم الشرعى بمصر القديمة فى ضوء غياب دور المحتسب بمعاقبة تاجر بن حسن " المتسبب فى بيع العنب بمصر القديمة فى بداية القرن السابع عشر " عندما منعه من المشترين وراح يمنع الفقراء من تواصل الشراء، فضربه الحاكم على رجليه^(٣). فالقاضى هنا ومعاونوه من رجال الأمن أمثال المحافظين وزعيم مصر القديمة كل هؤلاء قاموا بوظيفة المحتسب دون أن يلقبوا بها.

إن أعمال الحسبة داخل مصر القديمة كانت تتم على قدم وساق من خلال توافر هذه الكوادر التى عملت على تنظيمها بجانب نقيب حسبة المدينة الذى خضع خضوعاً مباشراً لديوان الحسبة الشريفة بمصر.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٢٧٦، ص ١٠٣

(٢) عبد الرحمن نصر الشيرزى: نهاية الرتبة فى طلب الصبة. تحقيق السيد الباز العرينى، ط ٢، دار الثقافة، ١٩٨١، ص ١٢

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٦٨٧، ص ٢٠٠

ثانياً: الإدارة المالية:

عندما فتح سليم الأول مصر رتب لها إيرادات وعوائد معلومة بحيث أصبح لمصر إدارة مالية دقيقة اشترك في إدارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامة وفريق من رجال الحامية العثمانية وجاءت هذه الإيرادات من الأراضي الزراعية والجمارك بطريق الالتزام خاصة ديوان جمرك (الإسكندرية - رشيد - دمياط - بولاق - مصر القديمة) وعوائد على أمين البحرين وأمين الخردة^(*) وأرباب المناصب وغيرها. كل هذه الضرائب تجمع ثم تصرف في الوجوه المخصصة لها، وما يتبقى يرسل لخزينة السلطان.

إن اعتبر الديوان الدفترى وديوان الروزنامة هما أساس الإدارة المالية لمصر في العصر العثماني، فكان الديوان الدفترى بمثابة ديوان المالية يرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية وهو فى العادة من السناجق المصريين، ومهمته الإشراف المالى على شئون الولاية وتحصيل أموالها. أما ديوان الروزنامة كان تابعاً للديوان الدفترى ومهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى مصاريفها المختلفة، ويعمل فيه مجموعة من الأفندية أى الكتاب^(١).

أما فى مصر القديمة فقد كان بها - كما ذكرنا - ديوان جمرك (ديوان الموجبات) إضافة إلى ميرى الشونة الشريفة يمثلان - مع أوجه المصروفات المختلفة - حجر الزاوية فى مالية مصر القديمة فترة القرن السابع عشر.

(*) الخردة: مجموعة ضرائب متنوعة تفرض على " العوالم " و " أصحاب الألاعيب " - وعن الخردة وسبب ميرى أمين الخردة. انظر: حسين أفندى الرزنامجى: ترتيب الديار المصرية مجلة كلية الآداب، مجلد ٤ ، ج ٢، ١٩٣٦ ص ٥٦ - السؤال الرابع عشر .

(١) حسن عثمان: مصر فى العهد العثمانى فى المجلد فى التاريخ، ط ١ ، القاهرة، ١٩٤٢، ص ص ٢٦٠، ٢٦١

هـ. جمرك مصر القديمة:

يعود إنشاء هذا الجمرك إلى زمن السلطان سليمان القانوني، الذي قام بإنشاء أربعة جمارك رئيسية في مصر كما ذكرناهم في بداية الإدارة المالية، وقد ارتبط جمرك بولاق ومصر القديمة معاً^(١). ومنذ ذلك الوقت وأصبحت العوائد أو الموجبات المفروضة على جمرك مصر القديمة لصالح خزينة مصر مرتبطة مع جمرك بولاق وقد أسمتها سجلات الروزنامة بإسم (أسكلة بولاق ومصر قديم وتوابعها).

وكان يدير هذا الجمرك أحياناً ملتزم يهودى مهمته تحصيل الرسوم على البضائع الواردة من نواحي الوجه القبلى أو البحرى أو حتى البضائع القادمة من الجزيرة العربية والهند وغيرها^(٢) يعاونه فى ذلك عدد من المباشرين والكتبة والعدادين والكشاف، فمثلاً قام المعلم موسى اليهودى - الملتزم بديوان مصر القديمة عام ١٠٥٦هـ - / ١٦٤٦م - بتحصيل نحو ستة آلاف نصف فضة متأخرة على المركب القياسة البنوانى التى بسنة وهى ضمن أملاك الأمير سليمان صوباشى مصر القديمة آنذاك^(٣).

وغير خاف أن أمير البحرين (بحر بولاق - بحر مصر القديمة) وجماعته من معرفين الميناء كان لهم الدور البارز فى تسهيل مهمة الملتزم على الجمرك وكذلك نظيره على شونة الغلال. وتذكر سجلات المحاكم الشرعية أسماء بعض العدادين والكشافة بهذا الجمرك، مثل الحاج جاد الله بن منصور الشهير بظلام ويرجح أنه تولى هذه الوظيفة من عام

(١) إسمتيف: وصف مصر، ج ٥، ط ١، مكتبة الخانجي ١٩٧٩، ص ١٢٣

(٢) حيث كانت هناك علاقات تجارية للمدينة مع هذه البلدان. وللمزيد انظر: الفصل الرابع.

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٦١٧، ص ص ٢٩٩، ٣٠٠ - ويؤكد فولنى بالفعل أن الجمارك قد تولى أمرها اليهود

وفقاً لعادة قديمة، ولكن على بريك الكبير خلعهم منها عام ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م وآل أمر الجمرك إلى مسيحي سوريا.

انظر: فولنى: ثلاث أعوام فى مصر وبر الشام. ترجمة إدوارد البستانى، منشورات دار المكشوف، ط ٢، بيروت

١٩٤٩، ص ١٤٥

١٠٨٩هـ/١٦٧٨م حتى عام ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م^(١). وكان المحترم إبراهيم بن سلطان الزيات بحمام جمدار من أشهر كشافى هذا الجمرك عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م^(٢).

وكان على ملتزم الجمرك أداء ما هو مفروض من ضرائب على ديوان جمرك مصر القديمة وعلى الوارد من بضائع وحبوب قادمة من الوجه القبلى أو غيره، وإذا ثبت وقوع أى تعسف أو جور تجاه بعض التجار اتخذ الصوباشى والمحافظ وكذلك الحاكم الشرعى ما يجب عمله فى مثل هذه الحالات^(٣). وفى ذى القعدة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م ورد بيورلدى شريف فى خصوص " جميع ما ورد من الوجه القبلى من الصوف لجمرك ديوان مصر القديمة يسددوا ما على ذلك حكم القوانين السالفة فى ذلك من غير معارضة فى ذلك "^(٤).

ولطائفة العسكرية بمصر المحمية مميزات عديدة لدى الجمارك حيث لا تفرض رسوم على بضائعهم عند مرورها بالجمرك فى مصر القديمة وغيره بناء على البيورلدى الصادر عام ١٠٩٢هـ/١٦٨١م من قبل الباشا جاء فيه " لنايب بولاق ومصر القديمة وجامع الحاكم بمصر المحروسة فى خصوص المنع لم تتعرض لطائفة العسكرية بمصر المحمية وعوائد الجمرك السلطاني بالمحلات المذكورة أن لا أحد يتعرض لمن يحضر شيئاً من الذخيرة لمنزله من الوجه القبلى أو الوجه البحرى من السمن والعسل والفراخ والغنم وغير ذلك مما يتعلق بذخيرة البيت "^(٥).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢١٠٤، ص ١٥٦٥ وكذلك س ١٠٥، م ٦٣٧، ص ٢٠٨

(٢) نفسه: م ١٧٣٦، ص ١٤٤٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٩٩٢، ص ٦١٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٣٠٧٨، ص ٣٤٥، وقد تحدث Conbe أيضاً عن جمرك البهار الذى يقع على الطريق الصحراوى بين القاهرة والسويس ويرى أن جمرك مصر القديمة على ساحل أثر النبى تابعاً لجمرك البهار هذا.

Etienne Conbe: L'Egypt Ottomane De La Conquete For Selim (1517) A L' Arriree De Ponaparte (1798) p88

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٤٣١، ص ١٦٧٨

وكان جمرك البهار الواقع على الطريق الصحراوي بين القاهرة والسويس من أعظم الجمارك التي تستقبل بضائع الجزيرة العربية لنقلها الى جمارك مصر المختلفة في الموانئ النيلية وغيرها، هذه الموانئ التي تقوم بدورها بنقل هذه البضائع الى جهات مصر سواء الوجه القبلي أو البحري بناء على الأوامر الشريفة، فمن هذه بيورلدى شريف صادر في ٩ صفر ١٠٩٢هـ / ١٦٨١م من الباشا على يد تابعه فخر الأغوات درش أغا جاء فيه " خطاباً لنايب مصر القديمة وسردار والسفجيه وأمين الجمرك أن في هذه السنة لها ورد من الحاج الشريف من أحمال متعلقة بجمرك البهار من قماش وبن وبهار وغير ذلك إذ لا أحد يختلف من التوجه بذلك إلى جهة الوجه القبلي أو غيره مما لم يكن بيده إذن وكل من عاند أو خالف في ذلك فلا يلومون إلا أنفسهم..... (١).

وقد فرضت الرسوم والضرائب على واردات البن لحساب الباشا، وقد أشرف عليها ديوان البهار المذكور (٢).

و. الإيرادات والمصروفات

أ. الإيرادات:

تمثلت إيرادات مصر القديمة في واجب الغلال المفروض على بعض المناطق في الوجهين القبلي والبحري لصالح شونة الغلال بمصر القديمة، وقد رأينا العديد من المراكب سواء أكانت مراكب سلطانية أو مراكب تجار قد كتبت عليها " رسالة " بضرورة إحضار الغلال لجهة الشونة نظير عوايد محددة (٣). لذلك كانت إيرادات شونة الغلال بالطبع إيرادات عينية.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٧٠، ص ٢٦

(٢) عبد الحميد حامد سليمان: الرسوم الجمركية على البن في مصر في القرنين ١٧، ١٨ الميلاديين، بحث مقدم في المؤتمر الدولي المنعقد في الفترة من ٨-١١ أكتوبر ١٩٩٧، مونتيلية - فرنسا، ص ٤

(٣) انظر: الفصل الرابع عن الجزء الخاص بالشونة.

أما عن أهم إيرادات مصر القديمة فقد تمثلت في الموجب المتحصل من الجمارك ونشير لها بـ " قلم شهر ". فقد كان لأسكلة مصر القديمة إيرادات ضخمة قد تم تسجيلها في دفاتر الروزنامة، والتي يرى بعض المؤرخين أن أولى السنوات التي سجلت إيرادات هذه الجمارك هي سنة ١٠٨٨هـ/٦٧٧م، ولكن بعد مجهودٍ مضمٍ وسط سجلات الروزنامة هذه التي تفتقد إلى الفهرسة الجيدة عثرنا على سجلات ودفاتر أسكلة يعود تأريخها إلى عام ١٠٣٣هـ/٦٢٢م وليس بعد ذلك^(١).

فتوضح لنا هذه الدفاتر المال المتحصل لدى جمرك مصر القديمة مع جمرك بولاق وتوابعهما نظراً لخضوع هذين الجمركين لملتزم واحد تبعاً للتنظيم الإداري والمالي المعمول به آنذاك، وأغلب ملتزمى هذا الجمرك من اليهود وشاركهم في بعض السنوات عناصر أخرى من الأوجاقات العثمانية. وقد اخترنا نماذج لبعض السنوات التي سجلت فيها متحصلات الجمرك، فمنها:

(١) وقد قمنا بنشر بعض أصول هذا الدفتر في ملحق رقم (١)، ص ١٩٠

السنة	المال المفروض فيها
١٠٣٣ هـ	٢٢٥٠٠٠ بارة
١٠٣٤	٢١٣٠٠٠ بارة = وردت في عدة أقساط
١٠٣٤	١٧٣٧٠٠٠ - وردت في عدة أقساط منها عوايد جمرك سكر
١٠٣٥ - ١٠٣٦	٨٢١٣٣٠ بارة
١٠٣٧	٢٠٠٠٠٠ بارة
١٠٣٨	٢٠٠٠٠٠
١٠٣٩	٤٨٤٤٠٧ بارة
١٠٤٠	٢٠٠٠٠٠ بارة
١٠٤١	١١٠٠٠٠ بارة
١٠٤٢	٢٦٧٥٧٩٦ بارة
١٠٤٣ - ١٠٤٤	٨٢٢٤٠٢ بارة (١)

ونلاحظ على الجدول السابق الذى يعتبر كنموذج أنه فى بداية السنوات كان إلترزم الجمرك موكلاً لشخص يهودى ثم بعد ذلك تولى شخص آخر منذ عام ١٠٣٩ هـ وهو قاسم أغا. وأيضاً وجدنا بعض السنوات قد ارتفع الموجب بها وجاء ذلك مرهوناً بحركة التجارة وكميات الوارد إليها، وسنوات أخرى ظهرت ضعيفة بالمقارنة بغيرها. ولم يستطع الجمرك تسديد ما هو مقرر عليه فى السنة مرة واحدة لجهة الخزينة المصرية، حيث كان يسدد على عدة أقساط فى فترات متساوية متفق عليها بين ملتزم الجمرك بمصر القديمة وأمين الخزينة المصرية. بل إن بعض السنوات لم يرسل فيها جمرك مصر القديمة أموالاً للخزينة مثل

(١) دفتر مال الأسكلات ومقاطعات. بنفص المحروسة - قلم شهر ١٠٣٦ هـ، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١، مسلسل عمومى ٤١٣٩

أعوام " ١٠٤٥ / ١٠٤٦ / ١٠٨٤ هـ " رغم أن هذه السنوات قد استبعدت من وقوع أى أزمات أو طواعين بها^(١).

وإذا أخذنا عدة سنوات على سبيل المثال فى النصف الثانى من القرن ١٧ لنوضح منحنى قيمة إيرادات جمرك مصر القديمة.

السنة بالهجري	السنة بالميلادى	الإيرادات
١٠٨٨	١٦٧٧	٣٦٦٧ بارة ^(٢)
١٠٨٩	١٦٧٨	٣٦٦٧ بارة ^(٣)
١٠٩٤	١٦٨٣	٥٦٧٣٦٠ بارة
١١٠٣	١٦٩١	٥٦٧٢٦٠ بارة
١١٠٥	١٦٩٣	٥٦٧٢٦٠ بارة ^(٤)
١١٠٩	١٦٩٧	٤٣٦٦٧ بارة ^(٥)

نلاحظ هنا تفاوتاً بين بعض السنوات كما فى عام ١٠٨٨ هـ وعام ١٠٨٩ هـ الذى سجل كل عام فيهما ٣٦٦٧ بارة، فى حين سجل عام ١١٠٥ هـ نحو ٥٦٧٢٦٠ بارة وهو رقم مرتفع بالمقارنة بسابقه. وفى نفس الوقت تساوى هذا العام فى إيراداته مع عام ١١٠٣ هـ الذى سجل هو الآخر نحو ٥٦٧٢٦٠ بارة.

(١) راجع: ناصر أحمد إبراهيم: المرجع السابق، ص ٤ وما بعدها

(٢) دفتر أصول مال جمارك ومقاطعات ومال أسكلة ومقاطعات قلم شهر در واجب ١٠٨٨ هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٢، مسلسل عمومى ٤١٤٠

(٣) دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات قلم شهر در واجب ١٠٨٩ هـ، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ٣، مسلسل عمومى ٤١٤١

(٤) دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٧، عمومى ٤١٤٥

(٥) دفتر إيرادات الجمارك (مقاطعة أسكلة بولاق ومصر القديمة) لسنة ١١٠٩ هـ، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى ١١، مسلسل عمومى ٤١٤٩

أما إذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين إيرادات الجمرک فی النصف الأول من القرن مع النصف الثاني من خلال كلا الجدولين السابقين نلاحظ أنه لم تكن هناك قاعدة ثابتة، فهناك سنوات فی النصف الأول مثلاً (عام ١٠٣٣هـ) قد سجلت نحو ٢٢٥٠٠٠ بارة وهى نسبة مرتفعة عجزت بعض سنوات النصف الثاني أن تسجلها والعكس صحيح تماماً والأمثلة على ذلك كثيرة.

ب. المصروفات:

تعددت أوجه المصروفات والتي نشير لها بـ " قلم المحاسبة ". وهى المرتبات (الساليات) التى تخرج لموظفى المدينة داخل الجمرک ذاته أو موظفى الشؤنة الشريفة والسواقي السلطانية والعلماء والمشايخ إلخ، وأيضاً هناك عادات مثل طبخ اللحم الضانى والمطبخ العامر ولدينا الأمثلة العديدة على ذلك:

- تنظيف المقياس الشريف بمصر القديمة ١٠٠٠ بارة.
- عادات مرتب زاوية الشيخ شهاب الدين المجنوب ١٠٠ بارة.
- براى علف أثوار سواقي ١٠٠٠٠ بارة.
- مرتب مقرئين بالمقياس الشريف ليلة وفاء النيل ٣٥٠ بارة.
- مرتب تصوف براى علما عظام ومشايخ كرام ١٣٥٦٠٠ بارة.
- مرتب كسوة أيتام ٢٥٠ بارة^(١)

وكذلك لدينا العديد من الأمثلة التى تحدد الإيرادات والمصروفات بالجمرک ثم بعد ذلك جمعها فى السنة المالية كما يحددها ملتزم الجمرک بدفاتر يده.

فقد أورد محمد جوربجى ملتزم أسكلة يولاق ومصر القديمة وخضرا وتوابعهم عام ١٠٩٤هـ/١٦٨٣م مال المقاطعة من إيرادات ومصروفات لهذه السنة، مع إسقاط مرتبات

(١) دفتر مال وارد إلى الخزينة العامة من أقلام سنة ١١١١هـ، عين ٢٩، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٩، مسلسل

علماء عظام ومشايخ كرام، ولحم ضانى ومطبخ عامرة، وكذلك جلود خام وكاد سالم، مع
ميرى وإنفاق جمرى سكر ميرى صالح. فجاءت القائمة كالآتى:

٥٦٧٣٦٠ قلم شهر

١٣٨٥٤٩

٦٩٥٨٠٩ بارة^(١)

وفى نفس السنة أيضا وردت محاسبة (مصرفات) تم إسقاط مرتبات العلماء
والمشايخ من القائمة التى احتوتها، فجاءت بالشكل التالى:

٣٥٠٣٨٠

٠٠٦١٠٦

٢٤٤٢٧٤ نقدية

كسور^(٢)

كيس

١٩٢٧٤

٩

واخترنا نموذجاً آخر وهو عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وهو المحاسبة التى وردت بدفتر
أحمد كتحذا ملتزم أسكلة بولاق ومصر القديمة وخضرا ودباغ خانة وتوابعها، وأورد فيها
إسقاط ومرتبات العلماء واللحوم كالعادة، وبدأت هذه المحاسبة فى ٤ محرم ١١٠٥هـ
وجاءت كالآتى:

٥٨١٤٤٠

١٤١٨٠

٥٦٧٢٦٠ نقدية

(١) دفتر مقاطعة احتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى

١٠، مسلسل عمومى ٥٢٥٣

(٢) دفتر مقاطعة احتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧، مخزن تركى ١، رقم الحفظ النوعى

١٠، مسلسل عمومى ٥٢٥٣

كيس	كسور
٢٢	١٧٢٦٠

وفى نفس السنة جاءت محاسبة خاصة باللحم الضانى بهدف إجراء عملية الطهى،

فكانت:

١٣٠٠٠٠

٠٠٣١٧٠

١٢٦٨٣٠ نقدية

كيس	كسور (١)
٥	١٨٣٠

على أية حال تعتبر هذه النماذج التى اعتمدنا عليها لتوضيح مالية المدينة (الإيرادات - المصروفات) مع الفائض منها والذي يذهب إلى خزينة الدولة، هى فى حقيقتها أرقام توضح واقع أحوال المدينة المالية خلال القرن السابع عشر، ليس هذا فحسب بل أيضا مالية مصر بأسرها، والتي أظهرت لنا فى بعض المواضع وجود عدة سنوات قد حدث بها خلل أصاب المالية بأزمات أعجزتها عن الوفاء بالتزاماتها. الأمر الذى يحتاج إلى إصلاح مالى جذرى لا يتأتى إلا من خلال شعور الباشا بذلك وعليه إحداث إصلاح فورى حتى تتجنب مصر حدوث أزمة اقتصادية، وعلى سبيل المثال ما قام به إسماعيل باشا عندما رأى عجز المالية المصرية وحدثت أزمة اقتصادية طاحنة بها، فقام بإحداث إصلاح مالى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٤م^(٢)

(١) دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٧، مسلسل عمومى ٤١٤٥

(٢) فقد عثر عبد الحميد حامد سليمان على دفتر فريد من نوعه يوضح الإصلاح المالى الذى قام به إسماعيل باشا عام ١١٠٧هـ/١٦٩٤م. وهو دفتر إجمالى وترتيب زيادة مضاف للميرى من غير مضافات إنكسار الخزينة العامرة لأجل مساعدة إنكسار ولاية محروسة مصر فى زمن حضرة إسماعيل باشا محافظ ولاية مصر سنة ١١٠٧هـ، ويقع هذا السجل فى عين ٢٤، مخزن تركى ١، رقم الحفظ ٥٠، المسلسل النوعى ٥٠.

الفصل الثالث

الزراعة والصناعة

الزراعة والصناعة

أولاً: الزراعة:

مصر بلد زراعى منذ فجر التاريخ، وهذه حقيقة قد تبلورت فى فكر ووجدان المصريين منذ عهد الفراعنة وإلى وقت قريب وقد تجسدت هذه الحقيقة أيضاً حول نهر النيل شريان الحياة فى مصر وأساس الزراعة بها حتى عبده المصريون القدماء باعتباره إلهاً للخير فأطلقوا عليه اسم " الإله حابى Hapi ". ولأهمية هذا النهر العظيم نسجت حوله الأقاويل وذكرته العديد من الحضارات فيذكر فى قاموس الجغرافيا عند اليونان والرومان أن كلمة (نيلوس Nilus) من أصل عبرى وربما إنتقلت إلى الإغريق عن طريق الفينيقيين كما أن العبرانيين أطلقوا على النيل اسم (نهال مصر ايم Nahal Misraim) أى نيل مصر^(١).

وظل النيل هكذا محط إهتمام المصريين وحكامهم عبر فترات التاريخ المختلفة لما سبروا أهميته، فأقاموا عليه المقاييس لمعرفة أوقات الفيضان والتحاريف. ولوحظ أن ماء النيل لا تتعفن أبداً، ولا تظهر عليه أية علامة من علامات التخمر، ويمكن التأكد من هذه الحقيقة من خلال البحيرات العديدة المنتشرة حول القاهرة الكبرى وتتغذى على مياهه^(٢).

وما أن وطأت أقدام العثمانيين أرض مصر حتى شرع سليم الأول فى جمع بعض المعلومات عن أحوال مصر الزراعية، وأمر بمسح أراضي بعض المديریات مثل الشرقية والغربية. فكانت الزراعة موضع اهتمام العثمانيين ومصدراً أساسياً للخزينة المصرية ولغلال السلطنة الشريفة – كما سنرى فى الفصل التالى – فانتشرت زراعة القمح والشعير والفلول وأحياناً النرة إضافة إلى زراعة الخضر والفاكهة مثل الكمثرى والبطيخ والمشمش

(١) أبو اليسر فرج: النيل فى المصادر الإغريقية. مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٥، ص ص ٥٦، ٥٧

(٢) جون انتيس: مذكرات رحلة عن المصريين فى الربع الأخير من القرن ١٨ (١٧٧٠-١٧٨٢)، ترجمة سيد الناصري، ص ٦٨

والخيارشنبر والسنامكى (السنا المكى) والفاصوليا واللوبيا التى انتشرت فى عدة مناطق
وعنها يقول Antonius Gonzales الذى زار مصر فى الفترة (١٦٦٥-١٦٦٦م) أن
القنصلية الهولندية بالقاهرة أعطته خطاباً من مدرس فى جامعة ليد L'universite de
Leyde يطلب منه إرسال معلومات كافية عن محصول اللوبيا المصرية. وبالفعل توصل إلى
معلومات تفيد انتشار اللوبيا فى عدة أماكن فى مصر حيث أن مكان وطقس مصر مناسب
لزراعة اللوبيا التى تأخذ أشكالاً كبيرة وصغيرة من اللوبيا الرومانية Les Haricots
Romaines على حد قوله^(١).

أما فى مدينة مصر القديمة فقد انتشرت الزراعة فى عدة مناطق منها بفضل اهتمام
الإدارة العثمانية ووفرة وسائل الري بها - ولكن لنا أن نتساءل ما هى نظم الزراعة والرى
بها ؟ وما علاقاتها مع أشكال الحيازة ونظام الإلتزام ؟

نظم الري والزراعة:

لقد انتشرت الزراعة فى عدة مناطق متفرقة بمصر القديمة ولقيت نجاحاً بفضل خبرة
جماعة الغيطانية^(٢) الذين ظهروا فى عدة مناطق منها ولاسيما خط السبع سقايات
يتزعمهم شيخ، تسميه الوثائق " شيخ طائفة الغيطانية " والتى قد يتولاها شخصان فى آن
واحد فقد تولى الشيخ عبد الله بن مبارك عرف بإبن زوين والشيخ مهنا بن على مشيخة
الغيطانية بالسبع سقايات عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م^(٣).

(١) Antonius Gonzales: Voyage en Egypte "1665-1666" traduit du neerlandais presente et
ammote par Charles Libois p442

(٢) الغيطانية: هم أهل الخبرة العارفون بالأشجار وقيمها والغيطان والأصول وعيوبها انظر: محكمة قاطر السباع:

س ١٣٤، م ٥٢٥، ص ١٦٨

(٣) محكمة قاطر السباع: س ١٣٤، م ٥٢٥، ص ١٨٦

قفى دار النحاس وحمام جمدار وجدت البساتين والجنائن مثل جنيّة عابدى بيك داخل حارة بن سعيدة، وأرض الحسنية بنفس الخوخة المتحلل أرضها بأنشاب البلح وغيره^(١). على أن أهم قطعة أرض بهذه المنطقة أرض العالمة المعروفة " بغيظ الأمير المرحوم أحمد الصايغ قديماً " وللأسف لم تحدد الوثائق مساحتها ولكن لا ينفى ذلك أهميتها خلال القرن وكانت تعج بأنشاب البلح والنارينج والليمون والمشمش والجميز يروى ذلك كله ساقيتان إحدهما خشب والثانية ثابتة على قهوة متصلة بالنيل. كانت أرض العالمة هذه فى بداية القرن ملك الحاج محمد بن زين العابدين الذى قام بتأجيرها عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م لكل من موسى بن أحمد وحجازى بن بدر الدين لمدة ثلاث سنوات بأجرة عن كل سنة تمضى من الذهب ١٠٠ دينار^(٢). ولكنها بعد ذلك قد آلت ملكيتها إلى الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل سليل السادات الوفائية الذى أدخل عليها بعض التعديلات والأنواع العديدة فأصبحت تضم بجانب الأنواع القديمة الخوخ والبرقوق والعنب والتين والزيتون والتوت والنبق والخيارشنبر والكباد النفاش والأضالية والليمون الحلو والحامض وأصول البلح الحياتى والأمهات والمجهل والبلدى وكل ذلك محاط بسياج (سور) إضافة إلى عدة سواقي خشب صالحة للإدارة^(٣).

وقام الشيخ شمس الدين بتأجيرها فى ربيع الأول ١٠٧٨هـ/١٦٧٦م لمحمد ابن نور الدين الجماميزى الغيطانى وشريكه أحمد بن أبو الخير المعروف بإبن بربيط الغيطانى أيضاً القاطن كل منهما بدار النحاس إيجاراً لمدة عقد (ثلاث سنوات) نظير مبلغ ثلاثين ألف نصف فضة يقومان بها على ثلاثة أقساط، فى السنة الأولى ٨٠٠٠ والثانية ١٠٠٠٠ والثالثة ١٢٠٠٠ وقد تضمن عقد المساقاة والمغارة بينهما عدة أمور أولها: إن المستأجرين المذكورين سقى ذلك وتنظيفه من الحشائش وتلقيح الأصول وإصلاح سواقي المياه إن حدث بها أى عطب. وثانيها: أن تقسم ثمار الأرض على ألف جزء وجزء واحد لمؤجريهما الأستاذ شمس الدين وباقي ذلك للمستأجرين. وثالثها: إن عليهما إدارة السواقي وأجرة

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٨٠٤، ص ٢٣٣

(٢) محكمة مصر القديمة: نفس السجل، م ٤٨٨، ص ١٤١، ١٤٢

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٥٠٤، ص ٢٠٠

نجاريها وعلف أثوارها وأجرة الخدمة بالأرض. ورابعها: إن ما يغرساه من تراقيد الغيط المذكورة يكون لا حق لهما فيه ولكن للمستأجر وإذا أنفقا في عمارة الأرض في مدة الإيجارة المذكورة عشرة أنصاف أو أقل تكون عليهما ولكن ما زاد عن العشرة أنصاف على مؤجريهما^(١). وقد أسهب على الأجهوري (٩٦٧-١٠٦٩هـ/١٥٥٨-١٦٥٨م) في وصف قانون المغارسة التي اعتبرها " عقد على تعمير أرض بشجر بقدر معلوم " وإن اختلف هذا القانون بعض الشيء مع عقد المغارسة الذي أوردناه بين الشيخ شمس الدين والمستأجرين المذكورين. فعلى الأجهوري قد أجاز للغارس الحق فيما تم غرسه ولكن بعد ثبوت هذا الغرس وبلوغه الحد المشروط، ولا يكون إلا في مدة طويلة^(٢). وهو ما يتنافى مع عقد المغارسة الذي أوردته الوثيقة في حين يتفق معها الشرنبلای في تحديد المدة سنة أو سنتين^(٣).

وفي هذه المنطقة أيضا نعنى منطقتي دار النحاس وحمام جمدار أراضي زراعية أخرى. فتذكر الوثائق حصة قدرها ستة أسهم من أصل ٢٤ سهما شائع ذلك في جنيئة تحوى أنشاب البلح الأمهات والبلدي والجميز والأثل والنبق والرومان ملك المعلم حجازي بن محمد المعروف بابن شوشة القاطن قرب هذه الجنيئة^(٤). وهناك جنيئة أخرى بظهر دار النحاس قرب حارة الحمام تبلغ مساحتها نحو ٨ أسهم تحوى بئر ماء على فوهته ساقية خشب، بها ملا يقرب من ٣٦ أصل بلح بلدي و ٣ نخلات من النشو الصغير، وشجرتين من الكرم النشو أيضا وأصل جوز، وأصل سرو، هذه الجنيئة ملك الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا^(٥).

(١) نفس: ٤، م ٥٠٤، ص ٢٠٠

(٢) على الأجهوري: رسالة في المغارسة. مخطوط بدار الكتب، فقه مالك ٣٦ ميكروفيلم ١٦٧٢٣-٤٢١١٠ ورقة ١ - ولنفس المؤلف عن المغارسة أيضا: أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها. مخطوط بدار الكتب، فقه مالك ٣٩ ميكروفيلم ٤٢٠٢٤

(٣) حسن بن عمار بن علي الوقائي الشرنبلای: غنية نوى الأحكام في بغية درر الأحكام ج ١. مخطوط بدار الكتب ٨١١،

٨١٢ فقه حنفی طلعت ميكروفيلم ٩٢٦٦-٩٢٦٧، ص ٤٠٣

(٤) محكمة مصر القديمة: م ١٠٠، م ١٦٧، ص ٦٩ لسنة ١٠٥٣هـ

(٥) محكمة مصر القديمة: م ١٠١، م ١٠٦٦، ص ٤٠٤، ٤٠٥

ويبدو أن هذه المنطقة مستودع زراعة النخيل بالمدينة حتى قرب جامع عمرو والذي أحيط بأصول البلح الحياني والبلدى أيضاً. وقد اعتادوا تقدير البلح بالعرجون^(١).

وقد اعتاد سكان مصر القديمة على غرس الأشجار داخل المنازل أو فى حديقة المنزل، ولدينا العديد من الأمثلة، فهناك منزل بأطراف حمام جمدار من ظهر الأماكن الجارية فى جهة وقف المرحوم عبدى بيك قرب خوخة المرحوم أبو سعيدة المغربى، وقد ضم هذا المنزل قاعتين أرضيتين يعلوهما طبقتين وفسحة كشف سماوى مغروس بها أصل عنب وثلاث أشجار رمان وأصل توت وأصل سدر ونخلتين^(٢).

أما بحارة شنودة بمصر القديمة فقد عثرنا على أرض جناين من خلال وثيقة مؤرخة فى ربيع الثانى ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م عندما استأجر مراد بن أحمد الغيطانى من المعلم أبشاي بن (غير مذكور) النصرانى اليعقوبى بالوكالة الشرعية عن المعلم مرقص النصرانى الناظر على وقف كنيسة أبى منقوريوس بالحارة المذكورة فأجر من التوكيل المذكور بياض أرض الجنيئة التى تحوى أنشأب البلح الحيانى والأمهات البلدى والجارى ذلك فى الوقف المذكور أى أنها أراضى وقف. وكانت مدة الإيجارة أربع سنوات بأجرة عن كل سنة ١٤ قرشاً، واشترط فى عقد " المساقاة " أن يقوم المستأجر بسقى أصول البلح وتنظيفها وتلقيحها وإصلاح الجنيئة، ويتم تقسيم الثمار بينهما على ألف جزء من ذلك جزء واحد للمؤجر والباقى للمستأجر^(٣). أى إنه تضمن نفس شروط عقد المساقاة الذى أوردناه منذ قليل. ولقد كان لهذه الكنيسة أوقاف جناين أخرى بنفس الحارة تؤكد ذلك وثيقة أخرى بتاريخ ١٠٢٢هـ/١٦١٣م تحدد محتويات بياض أرض الجنيئة من بلح أمهات وبلدى وبير الماء المركبة عليه الساقية الخشب^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة س ٩٩، م ٣٤، ص ٩ لسنة ١٠٢٥هـ - العرجون: هو من النخيل كالعنقود من العنب والجمع (عراجين). انظر: المعجم الوجيز، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٤، حرف العين، ص ٤١٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٦٣٧، ص ٢٠٨ لسنة ١٠٩٤هـ

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٤٨٧، ص ١٨٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س ٩٩، م ٤٩٨، ص ٦٥٢

وفى خط السبع سقايات امتلك السيد الشريف ناصف بن السيد أحمد بن حسن الحسينى المتفرقة والده والتوفكجى هو ناظر السيدة زينب جنينتين متقابلتين إحداهما تسمى " بالبالغلة " والأخرى تسمى " بأم قائم " داخل حكر الصبان بالخط المذكور. وفى يوم ١٧ جمادى الأول ١٠٦٨هـ / ١٦٥٧م جاء إلى الحاكم الحنفى بمحكمة قناطر السباع واشتكى من رجل يسمى سالم الغيطانى واضعاً يده على الجنينتين من مدة أربع سنوات تقدمت على تاريخه، وإنهما صاراً خراباً لعدم تقيده وتعاطيه الخدمة بهما. فأرسل الحنفى معه بعض شهود مجلسه من مشايخ الغيطانية بالديار المصرية، والغيطانية القاطنين بخط السبع سقايات وهم الحاج عبد الفتاح بن مبارك عرف بإبن زوين والحاج مهنا بن على - سبق التعرف بهما - شيخا طائفة الغيطانية بالخط المذكور والمعلم عبد الوهاب بن عبد اللطيف الغيطانى بجزيرة الفيل وتوجهوا إلى حيث الجنينتين فوجدوهما خراباً. فوجدوا بجنينة أم قائم الدعائم المخصصة " لتكعيب العنب " قد تهدمت وطرح العنب على الأرض، كل ذلك حدث فى مدة سالم المذكور وكانتا الجنينتان قبله عامرتين بالأشجار والبناء والمياه^(١). وقد عثرنا على وثيقة مؤرخة فى الشهر التالى أى فى ٢ جمادى الآخر ١٠٦٨هـ تثبت أن الجنينتين (أم قائم والبالغلة) قد رفعت يد سالم الغيطانى عنهما وصاراً تحت إشراف الشريف ناصف وشخص يسمى أبا النصر بن سليمان الغيطانى اللذين شرعا فى إعادة تعميرهما مرة أخرى^(٢).

وبالسبع سقايات أيضاً مساحات كبيرة من بياض أرض تحت تصرف الأمير أحمد أغا بن عبد الله من أعيان طائفة التفكيجان بمصر المحروسة وهو الناظر الشرعى على وقف معتقه قانصوه باشا، ووجدت بهذه الأرض نحو ٧٤٠ أصل نارنج أو كباد، ومن المشمش ٦٥، ومن الجوز ٢٦، ومن الرومان ١٠٠، ومن النبق ٥، ومن الليمون ٢٠٤، ومن التوت ٢٠، ومن النخيل ٣٢، ومن التين ٣، ومن الجميز ٢، ومن الأتلى ٤٩، ومن السنط أصل واحد^(٣).

(١) محكمة قناطر السباع: م ١٣٤، م ٥٢٤، ص ١٨٦

(٢) نفس: م ٥٤٤، ص ١٩٦

(٣) نفس: م ١٣٥، م ٢٦، ص ٨ لسنة ١٠٨١هـ

أما فى الروضة وفم الخليج فقد انتشرت البساتين والحدائق بشكل ملحوظ وهذا أمر طبيعى للاقتراب من النيل الأمر الذى يسهل عملية الري. ففى الروضة هناك قطعة أرض قرب المقياس أسمتها الوثائق " بغيط السلطان قديماً " وهى تدخل ضمن أملاك السادات الوفائية وتقدر مساحتها بنحو ١٢ سهماً من ٢٤ سهماً وقد توارثها أبناء بنى الوفا طوال القرن جيلاً بعد جيل، وكانوا غالباً ما يؤجرونها لمن يرعاها نظير مبلغ معلوم. ففى عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م قام الشيخ الإمام عبد الفتاح أبو الأكرام بن وفا ببيع أصول متعلقات الليمون بها لشخص يسمى أحمد بن موسى البهوتى بثمن قدره ٤٨ ديناراً شريفة^(١). أما فى عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م أجر الإمام يحيى أبو اللطف بن وفا من هذه الأرض نحو ستة أسهم فقط منها وكانت تحوى أصول بلح وليمون وكباد ومشمش وكثيرى وغيرها وذلك لمدة عقد نظير ٩٠٠ نصف فضة عن كل سنة^(٢). أما زين الدين محمود أبو السرور الوفاى فقد أجر الـ ١٢ سهماً كلها بما عليها من الفاكهة المختلفة والسواقى الخشب لمدة عقد كامل يبدأ من سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م نظير ٥٠٠٠ نصف عن كل سنة^(٣).

وقد عثرنا على عقد مغارسة لهذه الأرض من خلال وثيقة مؤرخة فى يوم الإثنين مستهل ربيع الثانى ١٠٧٠هـ/١٦٦٩م بين زين الدين محمود المذكور المالك لها وبين المستأجر وهو المحترم محمد بن زين المعروف بالحلفاوى الغيطانى بروضة مصر القديمة. وقد نص العقد على أن جميع ما يغرسه المستأجر المذكور من الأشجار يكون لسه النصف فيها^(٤). بذلك يكون عقد المغارسة هذا قد توافق مع ما ذكره على الأجهورى من قبل، وتتلقى مع عقد مغارسة آخر قد تم على أرض بمصر القديمة نعى أرض العالمة المعروفة بغيط الأمير أحمد الصايغ قديماً.

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢٦٩٧، ص ٧٠٩

(٢) نفس: س ١٠١، م ٢٩٦، ص ١٠٩

(٣) نفس: س ١٣٦١، ص ٥١٦

(٤) نفس: س ١٠٢، م ٦٥٤، ص ٢٥٤

إضافة إلى ما تقدم رأينا أرضاً أخرى بالروضة ولكنها أرض بياض أيضاً سميت " أرض غيط الموردي " ولكن ما لفت أنظارنا هو العثور على أرض طين سواد بها عندما إستأجر زين الدين عثمان الجرواني عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م من الجمالي يوسف الفاسي قطعة الأرض الطين السواد بروضة مصر القديمة المجاورة للشيخ راشد لينتفع بها المستأجر المذكور في الزرع والزراعة لمدة ثلاث سنوات نظير ٣٦٠ نصف فضة^(١). ووجدنا أيضاً قطعة أرض أخرى بالروضة ضمن أوقاف السلطان قايتباي^(٢).

وإذا انتقلنا تجاه الروضة بمحاذاة النيل صوب الجنوب نجد منطقة الآبار الشريفة، وصوب الشمال الشرقي قليلاً منها نجد فم الخليج، وكلا المنطقتان تحويان بساتين. فالآثار نتيجة الاتجاه الجغرافي نحو النيل أصبحت موارد المياه ميسورة إضافة إلى كونها مع منطقة حمام جمدار يمثلان قبلة التجار والبحارة^(٣). فانتشرت بها أصول البلح والنانج والليمون إلخ، وتعتبر جنينة ياسين قديماً وملك الأمير ذو الفقار بن عبد الله الخشاب - من أمراء المتفرقة ويقطن بخط الرميّة - الآن أهم حدائق المنطقة إضافة إلى أرض " أولاد معيلفة " التي إشتراها الأمير ذو الفقار المذكور عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م من الأمير سليمان أمين السواقي السلطانية وزعيم مصر القديمة^(٤). أما فم الخليج فمن أهم المناطق الزراعية في المدينة على الإطلاق، وقد لقيت هذه المنطقة إهتماماً كبيراً من جانب الإدارة العثمانية، حيث كان الباشا يحضر عملية كسر الخليج عقب فيضان النيل وما يتبعها من إحتفالات وزينات . وقد عُين " متحدثاً " عليه يشرف على عملية جرف الخليج هذه وكذلك تنظيفه من الحشائش وما يعوق جريانه ففي يوم ١٩ جمادى الثاني ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م بناء على معرفة الأمير سليمان كاشف ولاية الأتفيحية سابقاً والمتحدث على فم الخليج

(١) محكمة قناطر السباع: ص ١٢٦، م ٤٣، ص ١٠

(٢) محكمة مصر القديمة: ص ٩٨، م ٢٧٧٣، ص ٧٣٤ لسنة ١٠٢٢هـ

(٣) انظر: الفصل الرابع

(٤) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٤٩٨، ص ١٨٠

بمصر القديمة قد تقرر جرف الخليج من بداية فمه عند مجرى النيل حتى نهاية قنطرة الجسر المعروفة بقناطر السباع تجاه مقام العارف بالله شمس الدين محمد أبو النحال^(١).

وعملية جرف الخليج هذه عادة قديمة تتم نظير أجر معلوم للمتحدث والعمال الذين يعملون تحت يده. فمحمد بن قرا حسن الجبجي كان متحدثاً على جرف الخليج عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م ومعه كل من الخولى عمر بن شحاذة ابن خميس من ناحية شيحة والخولى إسماعيل بن إسماعيل كل منهما بالجرافة المذكورة، وقد شهدوا جميعاً إنهما قبضا واستوفيا لهما ولبقية ضبيان الجرافة ولمن يستعينا بهم فى جرافة الخليج الناصرى وحفره وتنظيفه على العادة القديمة أجرة ذلك. وكان يعمل معهم نحو ثلاثين نفرأ أجرة كل شخص منهم نحو ثلاثة أنصاف^(٢).

كذلك انصب اهتمام الإدارة على السواقي السلطانية المركبة على فوهة الخليج لرفع المياه اللازمة للرى والشرب. فقد كان لها متحدثاً يرعى شئونها ومدولبين وسواقين وشاد إضافة إلى الأثوار (ثيران) التى تدور هذه السواقي والتي كانت تخرج لها عليفة خاصة من شونة الغلال قدرتها الخزينة المصرية آنذاك نحو ١٠٠٠٠ بارة عام ١١١١هـ/١٦٩٩م^(٣). لذلك كان طبيعياً أن تنتشر الحداثى والبساتين على شواطئ الخليج الناصرى، وكانت المناظر بديعة جذبت العديد من السكان والنبلاء للسكنى بها^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٣٥، ص ١٩٩ - وقد قدم البكرى وصفاً دقيقاً لعملية كسر الخليج الناصر وما يعقبها من إحتفالات. للمزيد انظر: محمد بن أبى السرور البكرى: النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية، تحقيق عبد الرازق عيسى، العربى للنشر والطبع، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٥٢

(٢) محكمة الباب العالى: س ٦٣، م ٢١٥، ص ٤٥

(٣) دفتر مال وارد إلى الخزينة العامرة عام ١١١١هـ، رقم ٦ مسلسل ٢١١١ عين ٢٩ مخزن تركى ١

(٤) P. Holt: Political and Social Change in Modern Egypt. London. 1958 - Quartiers et Mouvements Populaires au Caire ou XVIII Siecle. Andre. Roymond p104

وقد زار العديد من الرحالة خلال القرن منطقة فم الخليج هذه وأبدوا إعجابهم بها وبمناظرها وحدائقها وحفلاتها، فمن هؤلاء " روشيت - بلان - ميرسون - فانزليب " وغيرهم كثيرون^(١).

نستنتج مما سبق أن مصر القديمة لم تكن منطقة ريفية قلبا وقالبا، بل كانت منطقة حضرية تضم بعض البساتين والحدائق التي تعج بألوان الفاكهة المختلفة اعتمدت على وسائل رى بدائية إلى حد ما تتناسب مع متطلبات ذلك العصر نعى " السواقي " التي إما تأخذ من النيل مباشرة وإما من الآبار المحفورة بخصوص ذلك، وعموما هي عملية ديناميكية تهدف قبل كل شئ إلى توفير المياه اللازمة سواء للرى أو للشرب.

أشكال الحياة والالتزام:

الحق أن فكرة تملك الأراضي الزراعية في مصر فكرة غاية في التعقيد منذ البدايات الأولى. فقد إنكب نفر من الباحثين في محاولات جادة لوضع أسس ومعايير يمكن عن طريقها التعرف على أشكال حياة الأرض الزراعية وملكيته في مصر. في البداية كانت فكرة ألوهية الملك أو الفرعون تسيطر على الأجواء لذلك تملك الفرعون بإعتباره إلها كافة الأراضي الزراعية في البلاد، أما الأفراد فقد حرّموا من حق الملكية وإن كان بعضهم قد منح بعضها بناء على صفات معينة، ولكنها منحة ملكية موقوتة أى حق إنتفاع مؤقت على هذه الأراضي، أما ملكية الرقبة فإنها تظل دائما في يد الفرعون^(٢). ولكن بدأت الصورة تتغير بمرور الزمن فظهر النظام الإقطاعي ثم تطور في مصر الإسلامية وظهر ما يسمى " بالإقطاع الحربى " زمن الأيوبيين، أما في عصر المماليك الجراكسة فقد اضطرت الدولة إلى بيع أملاك بيت المال سواء عقارات أو أراضي زراعية نتيجة العجز المالى الذى أصابها،

(١) عن الخليج المصرى وأحواله خلال القرن انظر: كلا من:

Henry Blun. P38-

A. Morison: Voyage en Egypte "1697" Aete – inprime en 1975 Francais. P118-

P. Vansleb: DVN Voyage Fait en Egypte en (1672-1673) p121

A. Rocchetta: Voyage de 1593.p40 وأيضا

(٢) محمد السقا: تاريخ الشرائع القديمة فى الشرق والغرب، دار النهضة العربية، ١٩٩٥، ص ص ٩٤، ٩٥

وغير خاف أن بيع الأراضى إلى الأفراد أحدث تغييراً كبيراً فى شكل الحيازة^(١). وقد استمر هذا التغيير فى العصر العثمانى فظهرت حيازة الأفراد إضافة إلى أراضى الأوقاف بجانب أراضى الدولة.

وفى مصر القديمة اتضحت معالم الملكية الزراعية خلال العصر العثمانى، فظهر ذلك من العرض السابق عند الحديث عن أراضى البساتين والحدائق بها. فرأينا العديد من هذه الأراضى التى إنتشرت داخل المدينة قد آلت ملكيتها إلى أفراد عاديين مثل أرض العالمة وأم قائم والبغالة وأرض الماوردى بالروضة وغيرها. وتؤكد الوثائق أن محمد بن الحاج أحمد ابن موسى المعروف بالهتوني الغيطانى قد امتلك نحو ٩ قرارىط بجوار جامع المعزية وكوم بن غراب بحمام جمدار عام ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م^(٢). وأيضاً أكنت أن يوسف جاويش قد حاز نحو نصف فدان من الطين السواد قرب قصر العينى بمصر القديمة، وقام بتأجيريه عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م للشيخ محمود شيخ طائفة الأعجام بتكية قصر العينى لمدة ثلاث عقود عنهم تسع سنوات بأجرة عن كل سنة ١٠٠ نصف فضة^(٣). هذه الأمثلة على سبيل الذكر لا حصر لها تؤكد أن ملكية الرقبة (الأفراد) للأرض الزراعية كانت موجودة وبشكل ملحوظ داخل المدينة لاسيما فى القرن السابع عشر وإن كانت ملكيات لمساحات قليلة وهذا يعود كما قلنا إلى طبيعة مصر القديمة من حيث كونها مدينة حضارية أكثر منها ريفية. أما أراضى الأوقاف فقد ظهرت بصورة ملحوظة فى الروضة والسبع سقايات، وهى فى مجملها أراضى معفاة من الضرائب لكونها تنفق ريعها على أوجه البر أو المؤسسات الدينية والتعليمية المختلفة، وقد ظهر منها العديد خارج النطاق الجغرافى لمصر القديمة، ولكن خصص ريعها على بعض المصالح بها. فتذكر وثيقة (نشت مؤرخة فى ١٦ ربيع الأول

(١) عماد بدر الدين أبو غازى: تطور الحيازة الزراعية زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦،

ص ١٠٤

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٧٦٠، ص ٢٨٧

(٣) نفسه: م ٧٨، ص ٣٢

١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) أن نحو خمسة أفدنة طيناً سواد بأراضى ناحية ناي بالقلبيوية(*) كانت ضمن أوقاف جامع عمرو بن العاص^(١).

ويؤكد عبد الرحيم عبد الرحمن أن العثمانيين أداروا الأراضى المصرية منذ دخولهم مصر وحتى منتصف القرن السابع عشر عن طريق نظام المقاطعات أو ما كان يسمى بالأمانات. هذا النظام يرى أن كل قرية أو عدة قرى متقاربة تكون مقاطعة أو أمانة أى تكون وحدة إدارية ومالية فى نفس الوقت، وعلى كل مقاطعة أو أمانة عامل مسئول عن المال الميرى المقرر على مقاطعته. ولكن لما فشل نظام الأمانات نتيجة تعسف الأمناء مع الفلاحين ظهر نظام مطور لنظام المقاطعات أو الأمانات أطلق عليه نظام الالتزام كان قد طبق من قبل فى بعض بلدان الدولة العثمانية لاسيما فى الأناضول والرومللى وشمال العراق^(٢).

نستخلص مما ذكره عبد الرحيم عبد الرحمن وغيره أن نظام الالتزام قد ظهر فى المناطق القروية، وهذا يعنى استحالة وجوده فى مصر القديمة، وهو أمر تأكدنا منه بالفعل من خلال فحص السجلات والوثائق المتعلقة بالمدينة. ولكن لا يعنى ذلك إنها لم تمت بصلبة من قريب أو بعيد للالتزام. فقد كان العديد من الصوباشية وأمراء الأكلوية بها بجانب مهامهم الأمنية والإدارية كانوا ملتزمين على أماكن ريفية سواء فى الوجه القبلى أو البحرى، ولدينا العديد من الأمثلة على ذلك، فالأمير ذو الفقار أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م كان ملتزماً أيضاً على ناحيتى الحمام وشبروتى بالغربية^(٣). كذلك إلترم الأمير عبدى بيك - أمير اللوا بمصر القديمة عام ١٠٥٣هـ وما قبلها - على نواحى طبهتار

(*) ناي: هى من القرى القديمة وتتبع مركز قليب، وتعرف الآن بإسم نوى قرب شبين القناطر. انظر: محمد رمزى:

القاموس الجغرافى، ج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ٥٩

(١) نشأت ١١٦، ص ٤٣٢ لسنة ١٠٠٩هـ

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى ق ١٨، مكتبة مدبولى، ط ٢، ١٩٨٦، ص ٨٩- وعن فشل نظام الأمانات

وظهور نظام الإلتزام انظر أيضاً: عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ١، مكتبة

الأنجلو. القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٤٥ حتى ص ١٦٩

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٦٢٧، ص ٢٣٦

والمناشى ونصف ناحية دشية بإقليم الفيوم^(١). ثم دخل فى التزامه أيضاً بنفس الإقليم عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م بجانب هذه النواحي ناحية سمباط وجردوا وأهرى^(٢). وأيضاً التزم الأمير سليمان ابن محمد جاويش صوباشى مصر القديمة فى فترة (١٠٥٥-١٠٧٤هـ) على بعض المناطق الزراعية بولاية الأطفحية^(٣). وقد استمر الأمير سليمان هذا ينتفع بناحية المسانيد بالأطفحية حتى عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م حيث أسقط حق انتفاعه بهذه الناحية للأمير حسين بن عبد الله من أعيان الجاويشية نظير مبلغ ١٢٥٠٠ نصف فضة دفعها الأمير حسين لجهة الديوان العالى فتسلمها المعلم شموال اليهودى صراف أمين الجاويشية بالديوان ليحاسب بذلك الأمير سليمان المذكور مما عليه من الأموال الديوانية^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ١٤٧، ص ٥٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٩٧، ص ٦٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٤٨٧، ص ٢٤٣

(٤) محكمة الباب العالى: س ٣٣، م ٤٠٣، ص ١٠٦

ثانياً: الصناعة:

علق الكثير من الباحثين حول ما قام به سليم الأول العثماني بعد إتمامه فتح مصر وعزم على الخروج منها فاصطحب معه أعداداً كثيرة من الصناع وأرباب الحرف المختلفة إلى القسطنطينية. وأن مثل هذا التصرف الذي أقدم عليه سليم كان هو السبب الأساسي - كما يرى جمال الدين الشيال وغيره - وراء انحطاط الحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني^(١). ولكن لا ينفي ذلك وجود العديد من الصناعات وطوائف الحرف - قد استمرت بشكل واضح في مصر خلال تلك الحقبة.

صناعة الفخار:

من الصناعات القديمة بالمدينة، فقد انتشرت بها منذ عهد الطولونيين في القرن (٩٣هـ/٩م) عندما كانت تسمى بالفسطاط ويذكر أن المدينة ظلت محتفظة بتقاليد هذه الصناعة حتى نهاية العصر المملوكي ق ١٠هـ/١٦م^(٢). وتؤكد الوثائق استمرار صناعة الفخار بها حتى القرن ١١هـ/١٧م. فقد انتشرت جماعة القلالية بها لاسيما في منطقة فم الخليج، وانتظموا تحت لواء شيخ الطائفة، فتولى المعلم محمد بن علي البوشى مشيخة طائفة القلالية بمصر القديمة عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م^(٣) في حين تولاها المعلم محمد بن منصور بفم الخليج عام ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م^(٤).

ومنطقة فم الخليج كانت بمثابة مستودع صناعة القلل والأواني الفخارية خلال القرن السابع عشر، حيث انتشرت بها العديد من الفواخير مثل فاخورة المعلم علي البديوي والمعلم

(١) Gamal El- din El-Shayyal: Some Aspects of Intellectual And Social Life in Eighteenth-century Egypt. P115

مقال ضمن كتاب P. Holt

(٢) عاصم محمد رزق عبد الرحمن: مراكز الصناعة في مصر الإسلامية (من الفتح العربى حتى مجئ الحملة الفرنسية)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩، ص ٢٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٢٨٨، ص ١٢٠

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٤٨٦، ص ١٣٤٢

محمد النقيطي والمعلم شكر الزبداني، وتركزت معظمها في حارتي الكيزانية والخامسة اللتين اشتهرتا بالتنافس بينهما حول صناعة القل، فكانت لكل منهما ما يميزها عن الأخرى بحيث يمكننا التمييز بينهما كالقول بأن هذا " شغل الكيزانية وهذا " شغل الخامسة ". وهذا بالطبع على عكس الحال في القرن ١٦ من حيث انتشار الفواخير خارج نطاق فم الخليج فعلى سبيل المثال لا الحصر وجدنا في عام ٩٧٩هـ / ١٥٧١م فاخور بكوم الجراح - مسقط رأس سيدي أبو السعود الجارحي - تحوي عددا من المخازن وتنسب إلى شخص يسمى عبد القادر بن موسى^(١).

وكانت طائفة القليلة بمصر القديمة تتعاقد مع بعض الأفراد لحمل الطين اللازم لصناعة القل على ظهور الدواب، فقد استمر جاد الله ابن جويده بن علي الصعدي الطيان حمل الطين اللازم لطائفة القليلة بمصر القديمة وغيرها لأكثر من خمس سنوات بدأت منذ سنة ١٠٨٧هـ واستمرت لما بعد عام ١٠٩٢هـ^(٢). وأيضا وجد الشماسرة في الأطيان بمصر القديمة مثل عبد الجواد بن حسونة الشمسانري طين البواقي، ومحمد ابن عبد الجواد في طين الويكن^(٣).

صناعة الزيوت والشموع:

تؤكد المصادر التاريخية على وجود صناعة استخراج الزيوت بالمنطقة منذ القدم. حيث انتشرت المعاصر في القسطنطينية بعد إتمام تخطيطها هذا ما يؤكد السيوطي وابن ظهيرة وغيرهم^(٤).

وفي مصر القديمة وجدت العديد من المعاصر أيضا خصصت لعصر الزيت الحار والحلو بمنطقتي حمام جمدار ودار النحاس. فكانت معصرة الزيت الكائنة بحمام جمدار أكبر هذه المعاصر بالمدينة بما تضمه من حواصل (مخازن). إضافة إلى معصرة السادات الوفائية

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٣، م ١٧٣٩، ص ٣٢٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٧٢٦، ص ١٤٤٠ وكذلك س ١٠٥، م ٩٤، ص ٣٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٦٣١، ص ٢٤٥ لسنة ١٠٧٨هـ وكذلك نفس السجل، م ٦٥١، ص ٢٥١

(٤) عاصم محمد رزق: المرجع السابق، ص ٢٦

بدار النحاس^(١). وكانت هذه المعاصر تعتمد على بذور الكتان والسمن لعمل الزيت وغالبا كانت المعصرة تتكون من أربع عيدان وعشرة أحجار لعصر الزيت وطاحونين معدين لطحن البذر إضافة إلى الحواصل اللازمة لتخزين مستلزمات المعصرة وأيضا بعض الزرائب المخصصة لدواب المعصرة^(٢). هذه الدواب التى تنقل كميات البنور وغيرها.

وقد تعلق بكل معصرة العديد من العمال منهم الزياتين والمعصرانية والمدوليين، وكانت خدمة الدولة أهمهم على الإطلاق، عمل بها خاصة فى معصرة الزيت بحمام جمدار شخصيات لعبت دورا فى المدينة مثل المعلم حسين بن على الخولى^(٣) صحيح أنه فى بعض الفترات قد أناب عنه بعض الأشخاص، ولكن هذا لا ينفى مدى أهمية تلك الوظيفة. وظهر العديد من الزياتين بمصر القديمة على طول القرن السابع عشر وكان طبيعيا أن ينتشروا فى حمام جمدار ودار النحاس وبعضهم فى قم الخليج. فعمل الحاج مطر بن يوسف اللبان زياتا بحمام جمدار فى النصف الثانى من القرن والمعلم أحمد بن خطاب الأحمدي زياتا أيضا ولكن فى دار النحاس، ومن الزياتين فى قم الخليج إبراهيم بن الحاج على القصاص^(٤).

أما صناعة الشموع فهى من العلامات البارزة بالمدينة منذ القدم حيث وجود قصر بها يسمى " قصر الشمع " جاء اسمه إشارة إلى استخدام الشموع به بشكل منتظم منذ زمن بعيد كما ذكر المقرئى وغيره. فالشمع كان من الضروريات للإنارة بجانب القناديل، وكما رأينا فى موضع سابق أن العديد من الرحالة الذين زاروا المدينة وتفحصوا أبنيتها كانوا يعتمدون بشكل أساسى على الشموع. وقد حرص سكان مصر القديمة على ضرورة تواجده هذه الصناعة بينهم، لذلك قاموا ببناء العديد من الأماكن المخصصة لعمل الشمع لاسيما الشمع السكندري^(٥).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٢١٦، ص ٨٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٧٢، ص ٤٥

(٣) انظر: الفصل الرابع

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٣١، ص ٩٨

(٥) نفسه: م ١٨٢٠، ص ١٤٧٣

صناعة ملح البارود:

تركزت صناعة ملح البارود في روضة مصر القديمة لوجود معمل البارود بها، وتعتمد هذه الصناعة على ملح النطرون الذي يرد من الطرانة غرب رشيد حيث تتجمع مياه الرشح في منخفض وادي النطرون ينتج عنها مادة ملحية حجرية هي ملح النطرون، إضافة إلى الأملاح التي ترد من إسنا وضواحي الإسكندرية والسويس^(١).

وكان يعمل بمعمل البارود هذا رجال من طائفة (الجبخانجية البارودية) يشرف عليهم (الجبجي باشا)^(٢) ومنهم المعلم على بن شعبان ابن عمر النحاس المدولب بالمعمل، والزيني سليمان بن عبد الله الشاد بهذا المعمل وسيد بن منصور المتحدث على جهة البارود بالروضة منذ عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م وكان يشرف على مركب البارود المتعلق بالسلطنة الشريفة في نهر النيل، وتذكر الوثائق أنه في هذا العام أي ١٠١٨هـ أقر الشاب سمرون بن باسوس الرايس ببحر النيل بمركب البارود المذكورة أن عليه إحضار بعض المتعلقات الخاصة بالمركب حتى تنتظم عملية نقل البارود للمعمل، وإذا حدث تقصير منه عليه أن يدفع نحو ١٠ شريفى^(٣).

وكان الأمير إبراهيم أغا قد تولى وظيفة (الجبجية) عام ١٠٢٣هـ/١٦١٣م بمعمل بارود روضة مصر القديمة^(٤) وكان يشرف على تجهيز البارود المطلوب لاستخدام وتموين الجيوش العثمانية.

والجدير بالذكر أن جب وبوون يذكران أن السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) قد استعمل بالفعل المدافع التي ظهرت من قبل في غرب أوربا لما يقرب من مائة عام سابقة،

(١) عبد الحميد حامد سليمان: تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، ص ٣٤٥

(٢) جبخانه: موضع حفظ الأسلحة النارية - الجبجي: هو العسكرى الذى كان قديما يلبس الدروع. انظر: محمد على الأنسى: الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات، بيروت، ١٩٠٠، ص ١٨٧، وكذلك أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ص ٦٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢٥٧، ص ٧١

(٤) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٣٢٢، ص ٨٩٢

وقد أنشأ مصانع أهلية لصهر المعادن وغيرها^(١). وكان يشرف على هذه المصانع أو المعامل رجال من الجبكانية أى صانعو الأسلحة الذين يقومون تحت إشراف (الجبجي باشى) بتجهيز البارود اللازم للدولة.

النجارة وصناعة المراكب:

تعد أعمال النجارة من الأساسيات فى كل زمان ومكان، لذلك كثر النجارون بالمدينة خلال القرن وكان لهم شيخ يرعى شئونهم ويأشر صناعتهم، فتذكر الوثائق اسم الحاج على بن محيى الدين شيخ طائفة النجارين بمصر القديمة عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م^(٢). ودائما ما تصدر الأوامر للنجارين بضرورة مراعاة الدقة والمهارة فى صناعتهم فيروى أن المعلم قاسم بن حسين المغربى النجار بمصر القديمة قد كلفه الأستاذ الأعظم شمس الدين محمد أبو الفضل عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م بعمل بعض المشغولات الخشبية بمنزله، فعلى الفور قام المعلم قاسم وطائفته من النجارين الذين يعملون تحت يده بتنفيذ ذلك، ولكنه لم يحسن عمله وصنعتة، فشكاه الأستاذ شمس الدين للقاضى المالكى بمحكمة مصر القديمة الذى توجه شهود مجلسه ومعهم أيضا بعض من طائفة النجارين بالمدينة وهم محمد بن سليمان النجار والذى بولس بن ميخائيل النجار والذى يعقوب بن غالى النجار. فأخبروا جميعا أنهم كشفوا على شغل النجار المذكور " فوجدوا صنعتة ناقصة لم يقطع فرطها ولم يحسن ضبطها ". لذلك ألزم قاسم النجار برد المبالغ التى حصل عليها فى صورة أقساط مراعاة لحالته، وقدرت بنحو ١٦٩٣ نصف فضة^(٣). فالدقة والمهارة فى الصناعة كانت أساسا يتم مراعاته من قبل إدارة المدينة لذلك رأينا ما يمكن أن نسميه " بالتخصص " داخل طائفة النجارين بمصر القديمة خلال القرن. فهناك نجارون للأثاث والأوانى والمشغولات الخشبية كما هو الحال لدى قاسم المغربى وطائفته. ونجارون فى الطواحين التى انتشرت بالمدينة، فالمعلم حجازى بن

(١) جب ويون: المرجع السابق، ص ٩٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٩٣٣، ص ٣٦٨

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٦٢، ص ٢٢

منصور النخال كان نجارا في طواحين مصر القديمة عام ١٠٢٦هـ/١٦١٦م^(١)، وجماعة النجارين في المراكب كما سنرى.

وقد تعددت المصادر التي تجلب منها الأخشاب، فأحيانا تنقل عبر النيل على ظهور المراكب من الوجه القبلى وأغلب الأخشاب التي ترد منه من أخشاب السمنط المعدة لعمل المراكب^(٢). وأحيانا أخرى كانت تأتي من بولاق قادمة من ميناء رشيد على مراكب الرويسا بهذه المدينة. ففي عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م حمل الرايس عمران بن يوسف الرشيدى الرايس ببحر النيل المبارك للحاج مصطفى ابن عبد الرحمن الخشاب ببولاق كميات كبيرة من الأخشاب على ظهر مركبه من ثغر رشيد. إلى ساحل بولاق^(٣). هذه الأخشاب التي كانت تأتي من جنوب أوربا خاصة فرنسا^(٤). ودائما ما كانت تصدر البيورلدات الشريفة بضرورة حمل الأخشاب خاصة أخشاب الصنوبر والخرس من الشام والديار الرومية^(٥). ولكن الأمر الذى لفت أنظارنا هو قيام مصر العثمانية بتصدير الأخشاب لبلاد الشام - كما ذكرت محافظ الدشت لعام ١٠٠٨هـ/١٥٩٨م - فقد قام الخواجا فرج بن الزينى حسن بن فرج الحمصى عرف بإبن عكاراى من جماعة الينكجيرية ببلاد الشام بشراء خشب محارة من بايعه محمد بن قرد، وتقدر الكمية بنحو ١٢ حمل وحملين زامله على ظهور الجمال، كل ذلك بمبلغ قدره ١٠٤ دينار شريفى وتحركت هذه القافلة من مصر الى الشام فى ١٠ رمضان ١٠٠٨هـ^(٦).

أما صناعة المراكب بمصر القديمة فقد تأثرت بعض الشئ مما فعله سليم الأول من قيامه بنقل أمهر الصناع فى بناء السفن من مصر لصناعة الأساطيل والسفن فى الدولة العثمانية الأمر الذى جعل دور الصناعة المصرية تغلق أبوابها فى بعض الفترات^(٧). ولكن لا

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٩، م ٢٢٦، ص ٧٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٨٤، م ٣٢٧، ص ١٧٥ لسنة ٩٣٤هـ

(٣) محكمة بولاق: س ٤٢، م ٧٦٦، ص ٥٥

(٤) نيفين مصطفى حسن: رشيد فى العصر العثمانى، دار الثقافة، ١٩٩٩، ص ٨٥

(٥) محكمة الإسكندرية: س ١٤٩، م ٤٠، ص ١٥ لسنة ١٠٥٢هـ

(٦) دشت ١١٥ لعام ١٠٠٨هـ، ص ٣١

(٧) نبيل عبد الحى رضوان: تطور الأسطول العثمانى، مجلة المؤرخ المصرى العدد ٢٠ - يوليو ١٩٩٨، ص ٢٣٧

يعنى ذلك نهاية المطاف، فقد كان لمصر القديمة رأى آخر خاصة أن ما قام به سليم تم فى بداية ق ١٦، ولما أقبل ق ١٧ تغيرت بعض الأمور. فقد انتشرت عمليـ المراكب وظهرت " جماعة النجارين فى المراكب بمصر القديمة " - كما تسميهم الـ ونخص منهم المعلم سرور بن ابراهيم النجار الذى تعاطى نجارة المراكب وتعميره يعمل تحت يده العديد من النجارين الذين يستند إليهم من الباطن تعمير بعض المراكب. عام ١٠٩١هـ/ ١٦٨١م قام المعلم سرور هذا وجماعته النجارون من الباطن بعمارة وقارب للمحترم حجازى بن المرحوم حجازى عرف بالعيساوى الرايس ببحر النيل نظير أجر معلوم^(١). لذلك كثرت المراكب بمصر القديمة وتعددت أنواعها مثل الشختور والزنكى وغيره من المراكب التى عدناها فى موضع آخر من هذه الدرا. وهى فى مجملها مراكب متفاوتة فى الطول ولكنها متقاربة فى الحمولة. صناعتها تدل على وجود نجارين وصناع مهرة أتقنوا صناعتها علمهم يعيدوا لنا أمج المدينة التى خصها الإخشيدون منذ زمن لتكون دارا لصناعة السفن عندما كاد بالقسطاط.

الحياكة والصباغة:

أما عن صناعة الملابس ودق القماش فكانت لها نصيب وافر بالمدينة النصارى أكثر من غيرهم مثل يوسف بن عبد السيد اليعقوبى الخياط بحمام جمدار / ثمانية عشر سنة (١٠٧١-١٠٩٨هـ)^(٢). وغيره من الذميين بحارة قصر الشمع وب عمرو بن العاص عثرنا على وثيقة زواج لشخص يعمل بالحياكة أيضا هو المحترم

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٢٦، ص ٩ - ومن الجدير بالذكر هو أن جماعة الجلاطة قد إنتشروا أيضا القديمة خلال القرن خاصة فى منطقة دار النحاس والجلاطة - كما يحدد وظيفتهم بالضبط عبد الحميد مهمتهم سد المركب بالألواح الخشبية وإحكامها ثم تأمينها من تسرب المياه وذلك بأن يدفع بالكثبان فى الفراغات التى بين الألواح ثم يطلّى المركب بعد ذلك بالقار. عبد الحميد حامد سليمان: الملاحه النيلية فى العثمانية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ٢١

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٩٢٣، ص ٣٦٤، وكذلك س ١٠٤، م ٢١٥٤، ص ١٥٨١

بن عبد الله الذى أصدق مخطوبته وتدعى عرب بنت صالح من ناحية ديو بالمنصورة، نحو ٣٠ قرشا عبرة كل قرش ٣٠ نصف فضة أى جملة الصداق نحو ٩٠٠ نصف فضة وهو مبلغ ليس قليل^(١). وفى حارة قصر الشمع أيضا كانت تتم عملية غزل الصوف الأبيض، بل إنه أحيانا يتم جلب الصوف المغزول فى عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م اشترى كل من الذمى سليمان بن عبد رب المسيح والذى إبراهيم بن عبد السيد بحارة قصر الجمع من الحاج أبو النصر ابن سالم الصواف القاطن بخط طولون، صوف أبيض مغزول بمبلغ قدره ستة قروش وثلاثى قرش وثلاثة أنصاف فضة^(٢).

وأدخلت عملية الصباغة على الملابس المصنوعة سواء من القطن أو الحرير. ولم تمدنا الوثائق بالمعلومات الكافية عن عملية الصباغة فى مصر القديمة خلال القرن، حيث تكتفى فقط بالإشارة إلى وجود بعض المصايغ سواء فى دار النحاس أو فى حمام جمдар^(٣). ولكن لا يعنى صمت الوثائق عنها نفى وجودها. فمن خلال فحص المصنوعات والمشغولات داخل المنازل تبين لنا وجود بعضها ذات ألوان وأصباغ زاهية. إضافة إلى أنه يحوى مصنوعات من القطن والحرير سواء كانت محلية أو من خارج البلاد. يؤكد ذلك العديد من النماذج التى بين أيدينا، ولكن اكتفينا فقط بعرض نمونتين الأول: منزل مولانا الشيخ شهاب الدين بن أحمد الشهير بإبن أبى الرداد بحمام جمدار رصدنا متعلقاته فى ٢٨ جمادى الأول ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م يوضحها الجدول التالى^(٤):

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٤٥٢، ص ١٦٦ لسنة ١٠٨٢هـ

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١١٦٧، ص ١٠١١

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٩٠٦، ص ١٥٠٠

(٤) قسمة عسكرية: س ٥٥، م ٣٥٨، ص ٢٦٣

السلعة	قيمتها بالبارة
طواق قطن	٥
قميص حرير قديم	٤
مرتبة قطن طويل	٣
ألبيسة حرير قديم	٣
لباس رومى أبيض	٢
مقعد حرير طويل	٢
قفطان حرير ملون	٢
لحاف بغدادى ويمنى	غير مذكور
ملاية بيضاء قديمة	٢
قميص رومى أبيض	٢

يوضح لنا الجدول السابق أنواع الأردية السائدة فى مصر القديمة والخامات التى اعتمدت عليها صناعاتها وقيمتها مقدرة بالبارة، وأيضا المجلوب من الخارج خاصة المصنوعات الرومية واليمنية والبغدادية.

أما النموذج الثانى: توضحه وثيقة مؤرخة فى ٢٠ شوال ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م وهى متعلقات لعائلة بنى الرداد أيضا^(١). يوضحها الجدول الآتى:

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٥٨٣، ص ٢١٧

السلعة	قيمتها بالقروش
بساطين صوف ملون	١٤
كليم مخطط	١
جوز مراتب طوال	٢
سبع مخاد	٤
مفرش	٤
أربع مراتب (٢ مربع + ٢ طوال)	٣
أربع طراريح	٨
ثمان مخاد قطن	٣
لحاف	٤

الصناعات الغذائية:

هناك العديد من الصناعات الغذائية قد وجدناها بالمدينة خلال القرن مثل صناعة الخبز وعمل الزبادى واللحوم ودق البن. فصناعة الخبز وما يلحق بها من طحن الغلال اللازمة قد إنتشرت فى أنحاء متفرقة تتم من خلال الطواحين. وقد انتظم الخبازون والطحانون فى طوائف خاصة بهم. فطائفة الطحانين قد تركزت فى حمام جمدار وقصر الجمع يتقيد أفرادها بعبادات وتقاليد جرى العرف عليها من حيث اختصاص كل فرد أو طحان بمنطقة معينة يجمع الغلال اللازمة له ولا يتعدى على أى منطقة أخرى تابعة لأحد من بنى جلدته. وتسجل الوثائق شبه تعهد بين طائفة الطحانين بالخط المذكور (خط حمام جمدار وقصر الجمع) فى شعبان ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م حتى لا يحدث الإختلال والتعدى، فجاء نص التعهد كالاتى: " أنهم من تاريخه - أى ١٥ شعبان ١٠٦٦هـ - لا يتعدى أحد منهم على حصة

رفيقه الآخر ولا يدور على الأبواب ولا يحمل أطحنة ويتوجه بها إلى دولابه وأن كلا منهم يتقيد في طاحونه ينتظر نصيبه الذى يأتى له وكل من ظهر عليه بعد ذلك أنه تعدى على خط غيره ونقل الأطحنة إلى دولابه ولم يعمل بالقانون الجارى به العادة بينهم فى ذلك كان على المتعدى منهم ما يراه ولى الأمر فى ذلك بالوجه الشرعى حيث توافقوا وتراضوا على ذلك كله يوم تاريخه^(١).

وبعد إتمام عملية الطحن يوزع الدقيق بالتساوى على الخبازين فى أفرانهم حيث يقوم الطحانون بحمله إليهم بناء على أوامر عليا على العادة المتبعة منذ القرن السادس عشر، ففي صفر ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م أصدر قاضى القضاة محمد شاة إلى السادة النواب بمصر القديمة بولاق أمرا يقول فيه " إن كل من كان فى محله جماعة من الخبازين بمحلهم يكتب راتبهم من الدقيق والخبز ويلزمهم بعمل الخبز ويعرض الخبز بالعدد فإن احتج الخباز عدم وصول الدقيق إليه من الطحان على العادة فيحضر الطحان إليه ويلزمه بحمل راتب الدقيق إلى الخبازين على عادته حتى يكون الخبز موجودا فى كل وقت لا ينقطع.. فإن حصل خلل فى ذلك فيكون اللوم عليهم لا يقبل فى ذلك عذرا أو حجة^(٢).

لذلك احتل الخبز أهمية كبرى بمصر القديمة وحظى بإشراف منظم خضعت له طائفة الخبازين تحت إمرة شيخ الطائفة ونقيبها الذى كان يراقب بنفسه وزن رغيف الخبز والذى لا بد أن لا ينقص عن نصف رطل وهو الوزن القانونى له آنذاك. فقد ثارت ثائرتة المحترم سلامة بن محمد الجيزى نقيب الخبازين بمصر القديمة عام ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م عندما رأى شخصا يدعى أحمد بن نور الدين من طائفة الخبازين

(١) نفس: ٤: م ١٢٦، ص ٤٤

(٢) محكمة مصر القديمة: م ٩٢، م ١٦١٩، ص ٢٨٨

بالمدينة كان يحمل خبزا ناقصا عن الوزن القانوني حيث أحضر رغيفا واحدا مما معه فوجده أربعة أواق فلامه على ذلك وقبض عليه وسلمه للقاضي الحنفى بالمدينة^(١).

أما اللحوم بجميع أنواعها سواء بقرى أو جاموسى وما يلحق بها من الألبان والجبين وعمل الزبادى فكان طبيعيا أن تتوافر بالمدينة لوجود المذبح السلطاني الضخم بخط دار النحاس، وقد حصر فانزليب Vanslb محلات الجزارة - يقصد المذابح - فى القاهرة فكانت - على حد قوله - ٩ محلات ذكر منهم مذبح مصر القديمة هذا^(٢). ورغم وجود المذابح والسلخانات التى انتشرت فى العاصمة وغيرها إلا أن جومار Jomard يرى أن الشعب المصرى قليل الإقبال على تناول اللحوم وإذا فكر فى تناول بعضها غالبا ما تكون لحوم الجمال أو الجاموس^(٣). حيث كان كبار النبلاء يستأثرون بوجبات اللحوم خاصة لحوم الأبقار الأمر الذى جعل فانزليب يطلق على محلات الجزارة التى عددها بالقاهرة مسمى " محلات جزارة النبلاء أو الكبلر Boucheries du Grand seigneur"^(٤).

وهناك مذبح آخر بمصر القديمة لم يذكره فانزليب نعى مذبح البقرى والجاموسى بخط السبع سقايات تجاه جامع الشيخ عز الدين الدمياطى. وقد لاحظنا أن مذبح دار النحاس أو حتى مذبح السبع سقايات كانا قد اختصا بلحوم البقرى أو الجاموسى وتعلق به الكثير من الأعيان والمعلمين. فكان الحاج مراد بن المعلم خير الدين من أعيان المعلمين بمذبح السبع سقايات عام ١٠٥١هـ/١٦٤١م^(٥).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٧٤٤، ص ٢٨٠

(٢) P. Vanslb: Voyage en Egypte en (1672-1673). P125

(٣) جومار: المصدر السابق، ص ٢٥٤

(٤) P. Vanslb: Op. Cit. p125

(٥) دشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ، ص ٧٧

والجدير بالذكر أن مذبج السبع سقايات هذا ضمن أوقاف المرحوم رستم باشا، وكان الأمير محمد أفندي كاتب طائفة العزب قد تولى نظارة هذا الوقف عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م وظل يباشر المذبج ويجمع العوايد المقررة على القصابين الذين يتعاطون ذبح البقر والجاموس لصالح الوقف المذكور، وقد قدرت الوثائق هذه العوايد بنحو ١٥ نصف فضة فى الشهر^(١). وقد صدر بيورلدى شريف عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م من قبل الوزير عبد الرحمن باشا بخصوص هذا المذبج جاء فيه " ضرورة منع جانب الحسبة بمصر المحروسة من التعرض لمذبج السبع سقايات بغرم أو ضرر "^(٢).

وقد انتشرت جماعة القصابين والقبانية فى لحوم البقرى والجاموسى بمصر القديمة واتسعت دائرة تعاملاتهم فقد كان الحاج عثمان ابن على البساتينى القصاب بمذبج مصر القديمة يبيع اللحوم خارج نطاق دائرته فى درب الجماميز وغيره، وكذلك إعتاد الحاج على بن عبد الخالق المناواتى القصاب فى البقرى والجاموسى أيضا بخط حمام جمدار أن يحضر ما يحتاج إليه من اللحوم بالجيزة وغيرها بعد إتمام الكشف عليها، فقد أحضر منها فى يوم ١٨ جمادى الأول ١٠٨١هـ/١٦٧٠م نصف ثور وجنب وظهر بقرة ولكن بعد الكشف عليه ثبت أن جزءا منه " بايت وبه زيادة عظم وشغت وعروق " على حد تعبير الوثائق. وقد منع وزن اللحم بهذه الزيادات^(٣).

وكان يشرف على عملية وزن اللحوم داخل المذابح جماعة القبانية نسبة إلى القبان الحديد الذى يستخدم فى عملية الوزن هذه، وغالبا ما يتكون القبان من قبايب من الحديد ذات سلاسل وعقرب وقرص ورمائه من النحاس وسبيتات من الخشب^(٤).

(١) محكمة قناطر السباع: س ١٣٦، م ١٢٨٣، ص ٣٤٤ لسنة ١٠٩١هـ

(٢) نفسه: م ١٢٨٣، ص ٣٤٤

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٥٧، ص ٧٣

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٤٨٣، ص ٥٧١

ودائماً ما يحرص على وجوده بدقة داخل مذابح مصر القديمة لمنع الغش أو التزوير عند تقدير لحوم البقرى أو الجاموسى، وأحياناً كان القبان الحديد يستخدم بجانب ذلك فى وزن الحطب والفحم بمصر القديمة. وقد قدرت اللحوم بالرطل وحددت تسعيرة لكل وزن حتى يكون هناك شبه إجماع على سعر معين لضمان سير الحركة التجارية والمعاملات النقدية بين الأفراد داخل المدينة. وهو ما يوضحه الجدول الآتى:

السلعة	القيمة
لحم ضانى بعظمه (رطل وربع)	نصف فضة
لحم بقرى (رطل ونصف وربع)	نصف فضة
لحم جاموسى (رطل ونصف وربع)	نصف فضة
كوارع ضانى مسقى بالدهن	ثمانية أنصاف
لحم رأس بقرى (رطلين)	نصف فضة
كباب ضانى (رطل)	نصف عثمانى
جبن جالوم (رطل)	نصف فضة
جبن بلدى (رطل)	نصف فضة
سمن بقرى (رطل)	نصف فضة
سمن جاموسى (رطل)	نصف فضة
١٥٠ قنطار ثمن بقرى أو جاموسى	١٢٠٠ نصف جد ونحاس أحمر ^(١)

يوضح الجدول السابق أسعار لحوم البقرى والجاموسى وما يلحق بهما، هذه الأسعار التى كانت ترد على لسان نقيب الحسبة فى مصر القديمة وأغلبها يعود إلى القرن السادس عشر وهو الأمر الذى وجدنا صعوبة فى العثور عليه خلال القرن السابع عشر، وربما - كما

(١) كل قنطار من ذلك ١١٠ أرطال. وقد إعتدنا فى وضع هذا الجدول على تسعيرة من أبواب الحسبة على لسان نقيبها بمصر القديمة لأعوام (٩٧٨-٩٩٣هـ) ثم لم يطرأ عليها تغيير كبير خلال القرن السابع عشر بناء على تسعيرة إعتدنا عليها فى محفظة نشأت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ ص ٣٥ وغيرها.

أوردنا فيما سبق - أن محتسب مصر القديمة قد شاركه آخرون فى مهام وظيفته. وعموما لم يطرأ تغيرا كبيرا على أسعار اللحوم آنذاك اللهم إلا فى أوقات القلاقل أو الشدائد.

وقد حاولنا رصد بعض أسعار المواد الغذائية الأخرى خلال القرن كأسعار الخبز والعجوة والفاكهة. وجاءت كالتالى:

السلعة	القيمة
رغيف خبز (نصف رطل)	نصف فضة
قنطار عجوة	١٥ قرشا
ثلاثة أرطال عنب	نصف فضة
رطل تفاح	نصف فضة
ثلاثة أرطال تمر بلدى	ثلاثة أنصاف

أما صناعة دق البن فقد ظهرت أيضا في مصر القديمة نتيجة إدخاله في مصر منذ القرن ١٦، وقد أقبل عليه المصريون بشراهة فيروى جومار أنهم يتناولون منه ما بين ثمانية وعشرة أقداح في اليوم^(١). فعملية صناعته تتم أولا بتحميم الحب على صوان من الحديد، ثم تتم عملية سحق أو دق حبوب البن عن طريق مدق البن الذى يتكون من حجرين صوان مع قطعتين من الخشب وثلاثة أعمدة من الحديد وميزان ورطلين من النحاس لتقدير كمية البن التى تكون بالفرق. وظهر خلال القرن السابع عشر بالمدينة العديد من الصناع وبقاى البن مثل المعلم حسن بن سلطان دقاق البن عام ١٠٦٠هـ وكان يسكن فى فم الخليج^(٢). وعيد بن عمر وعامر الفيومى والمحترم أحمد بن محمد الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن السابع عشر^(٣). قاموا هؤلاء جميعا بإمداد المقاهى التى انتشرت بالمدينة فى جمام جمدار وجامع عمرو ودار النحاس وغيرها من مناطق المدينة المختلفة بما تحتاج إليه من البن المطحون الصالح للاستخدام.

(١) جومار: المصدر السابق، ص ٢٥٦

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٧١٨، ص ٢٧١

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٣٨١، ص ١٢٩

الفصل الرابع

مصر القديمة كمركز تجارى

مصر القديمة كمركز تجارى

أدل الكثير من الباحثين ودارسى المدن بدلوهم حول تحديد ماهية المدن التجارية وتطورها. فيرى الجغرافى الكبير جمال حمدان أن تطور المدن التجارية إنما يمر بثلاثة مراحل [الأسواق المحلية - التجارة المحلية - التجارة العالمية]^(١). أى أن وجود الأسواق ونمو التبادل التجارى سواء على النطاق المحلى أو العالمى شرط أساسى كى تدخل أى مدينة ضمن نطاق "المدن التجارية". ويتفق لوسيان فيفر مع هذا الرأى، ويؤكد أن التبادل التجارى من أكبر عوامل نمو المدينة^(٢).

والآن: هل تتوافر بمصر القديمة هذه العوامل أو حتى بعضها حتى تأخذ صفة المدن التجارية العريقة؟

الحق أن مدينة مصر القديمة تمتلك من الوسائل ما يجعلنا نطلق عليها مدينة تجارية لا يمكن الاستهانة بها، ويتضح ذلك من خلال الصفحات التالية:

التجارة الداخلية:

أ. المنشآت التجارية ودورها:

انتشرت فى مصر القديمة العديد من المنشآت التجارية التى كانت تتم فيها عملية المبادلات والبيع والشراء ومنها...

الأسواق: وهى من المنشآت الاقتصادية الهامة التى تمارس فيها مختلف العمليات التجارية بصورة كبيرة، وهى دائماً غير مسقوفة، ويذكر أندريه ريمون أن هناك ثمة تقليدية

(١) جمال حمدان: جغرافية المدن. عالم الكتب - ط٢، ١٩٧٢ ص ٤٧

(٢) لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشرى، ترجمة د/محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة ط٢، ١٩٧٣

تميز أسواق المدن الإسلامية هي التخصص المهني الشديد^(١). فكما نرى في القاهرة سوق العطارين وسوق الفحامين وسوق الوراقين يتم فيه تداول سلعة أو مهنة واحدة دون غيرها. وهو ما يمكن أن نسميه "ظاهرة التخصص في الأسواق" أو "الأسواق المتخصصة". ولكن أسواق مصر القديمة تخرج عن هذه القاعدة التي وضعها ريمون، فسوق دار النحاس (أو ديو النحاس)^(٢) وهو من أكبر أسواق مدينة مصر القديمة يكتظ بالسلع والبضائع المختلفة، حيث تباع فيه الحيوانات بمختلف أنواعها من جاموس وأبقار وجمال إضافة إلى العجوة والحمص والعنب إلخ^(٣).

وسوق حمام جمدار قرب جامع عمرو لا يقل كفاءة ولا حجماً من سوق دار النحاس وتتشابه السلع والبضائع داخلهما حتى وكأننا نشعر بوجود تنافس بينهما. أما سوق قم الخليج فهو يأتي في المرتبة الثانية لسوقا دار النحاس وحمام جمدار من حيث أنواع السلع والبضائع الرائجة داخله فنجد من خلال استقراء الوثائق نحو أكثر من ٨٠% من هذه البضائع تقريباً تقتصر على الأواني والمشغولات الفخارية، ويعود ذلك إلى انتشار الفواخير وصناعة القفل بقم الخليج.

وقد خضعت الأسواق لإشراف المحتسب، حتى إذا ثقلت الأعباء عليه، تولى إدارة السوق رجل آخر تحت إشراف المحتسب أطلق عليه "شيخ السوق" الذي اشترط فيه الحساب والنسب والخبرة بأمور البيع والشراء والمقاييس والمكاييل، وقد رأينا في أحيان كثيرة بيورلدات تصدر خصيصاً لتعيين شيخ السوق هذا^(٤). ووجد بداخل السوق العديد من الكيالين والوزانين والقبانية والدلالين.

(١) أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى، ص ١٨٠

(٢) ربما تعود التسمية إلى إحتكار هذه المنطقة لصناعة ضرب النحاس وتبييضه حتى وقت قريب، ونؤكد على ذكر "دير أو دار" وذلك حتى لا يحدث الخلط بين سوق دار النحاس بمصر القديمة وبين سوق النحاس بخط يمين القصرين.

انظر دشت ١٤١ لسنة ١٠٣٠هـ ص ٣١٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢٠٧٩ ص ٥٤٥ - وكذلك دشت ١٢٤ لسنة ١٠١٥هـ ص ٢٦٠

(٤) دشت ١٤١ لسنة ١٠٣٠هـ ص ٣٨

وبفضل هذا التنظيم والإشراف الجيد نشطت حركة البيع والشراء داخل أسواق مصر القديمة خلال القرن السابع عشر. فنجد المحترم محفوظ بن الحاج محمد يشتري ما مقداره نحو إثني عشرة قرشاً فضية جبن جالوم أخضر مقطوع الدمعة من الحاج محمد بن المرحوم الحاج منصور الزياد بسوق دار النحاس^(١). وفي عام ١٠٢٠هـ/١٦١٠م تم بيع نحو ١١ رأساً من الجاموس والبقر بثمن قدره ٨٦ ديناراً من الذهب الشريفي وكان عبرة كل دينار آنذاك ٥٠ نصف فضة^(٢).

وبجانب الأسواق وجدت الوكالات التجارية التي كانت تسمى قديماً فندق ثم قيسارية ثم خان وأخيراً وكالة، وقد انتشرت هذه الوكالات بصورة ملحوظة داخل المدينة ومنها: وكالة البرديني بشاطئ بحر النيل بجوار تكية الينكجيرية بخط فم الخليج، وهي تنسب إلى السيد الشريف محمد البرديني وكانت تسمى أيضاً " وكالة البرابرة " ^(٣) وقد وجدت حارة بأكملها تحمل نفس المسمى وهي حارة البرديني بخط فم الخليج، وتعد من الوكالات الكبرى إذ تضم العديد من الحواصل " المخازن " والطبقات والأروقة والمنافع والمرافق^(٤).

إضافة إلى أنها تمتلك أراضى تجاورها مما جعلها عظمة الاتساع، وفي أحيان كثيرة كانت تباع أجزاء من هذه الأراضى مثلما حدث عام ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م عندما بيع نحو ١٢ سهماً من أرض داخلية في حكر الوكالة نظير مبلغ ٣٠ قرشاً من الفضة^(٥).

(١) دشت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ ص ١٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٢٧٢، ص ٣٥٣

(٣) لا نجد تفسيراً واضحاً لوصفها بوكالة البرابرة، ولكننا نعتقد أن البعض قد نعتها بذلك ربما لتردد التجار غير المصريين عليها لتخزين غلالهم في حواصلها. وعموماً هي كانت للشريف البرديني الذي أوقف العديد من أملاكه بمصر القديمة مثل الربع الذي أوقفه قرب حمام العوافي. انظر محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ١٣١٩، ص ٤٣٢

(٤) دشت ١٤٩ لسنة ١٠٤١هـ ص ٣٠٥

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦٧٢، ص ٢٦١.

وقد رصدت العديد من الأوقاف لصالح الوكالة لرعايتها وإصلاحها كذلك التجديدات التى أدخلت عليها فى منتصف القرن السابع عشر تقريباً وبالتحديد فى ذى القعدة ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م^(١).

ووكالة الزيت التى تنسب إلى السلطان المملوكى برقوق^(٢) وكان يباع منها القمح والشعير والفل، وقد درج بعض الأمراء والوزراء على تخزين حبوبهم داخلها على أن يقوم اليازجى بتسجيل نوع وكمية الحبوب المخزنة داخل الوكالة. وكانت عليفة أثوار السواقى السلطانية تخرج من وكالة الزيت عن طريق طائفة الكيالين الذين يقومون بتقدير الأوزان اللازمة داخل الوكالة وبمعرفة بوابها^(٣).

أما وكالة العسل التى بدار النحاس هى من أوقاف البيمارستان المنصورى، وقد حدد مرسوم شريف ورد فى ٤ صفر ٩٧٤هـ نوعية التخزين بالوكالة فذكر " إنه لا يخزن العسل والسكر والتمر والعنب وغيره إلا بوكالة العسل التى وسط سوق دار النحاس.... " ^(٤). لذلك جاءت التسمية بوكالة العسل إشارة إلى تخزين كميات كبيرة من العسل داخلها. ولكن تبدل الحال نوعاً ما فى القرن السابع عشر حيث أصبح القمح من الحبوب التى احتلت الصدارة داخل الوكالة، حيث كان الأهالى يقومون بتخزين كميات

كبيرة من القمح داخل حواصلها، وفى بعض الأوقات كان يسمح لهم بالسكن مع حبوبهم المخزنة داخل هذه الحواصل خاصة إذا كانوا من أماكن بعيدة^(٥). وأحياناً كانت تحدث

(١) محكمة مصر القديمة: م ١٠٠، م ١٦٥، ص ٦٨

(٢) هو السلطان الظاهر أبو سعيد برقوق بن أنص، كان من بلاد الجركس وبيع ببلاد القرم فجلبه الخواجا فخر الدين عثمان بن مسافر إلى القاهرة، فاشتراه منه الأمير الكبير يليغا الخاصكى وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الأجلا، ثم بعد فترة من الزمن إستطاع بذكائه أن يتولى حكم مصر فى الفترة من " ٧٨٤هـ حتى ٨٠١هـ " أى حكم مصر نحو ٢١ عاماً وعشرة أشهر. وبه بدأ حكم المماليك الجراكسة، للمزيد انظر: المقرئى: المصدر السابق. ص ٣٩١، ٣٩٢

(٣) نشت ١٦٦ لسنة ١٠٥٧هـ، ص ٣ وأيضاً محكمة مصر القديمة م ١٠١، م ١٤١، ص ٥٤

(٤) محكمة مصر القديمة: م ٩٢، م ١٦١٩هـ، ص ٢٨٩

(٥) محكمة مصر القديمة: م ١٠٣، م ٤٣٣، ص ١٠٧٥

سرقات داخل الوكالة بين هؤلاء الأهالي القاطنين داخلها. ففي عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م قامت المرأة خضرة بنت المرحوم حجازى من أهالى ناحية كفر الشموت^(١) بالوجه البحرى بسرقة حاصل شحادة بن حجازى من أهالى ناحية كفر الدارين بالوجه البحرى أيضا. فقد كانت " كل ليلة تفتح حاصلها من حواصل الوكالة من الجهة الشرقية التى تجاور حاصلها وتسرق منه قمحا وتطحنه وتصنع منه خبزا وتبيع ذلك....." ^(١).

وبدار النحاس أيضا وجدت وكالة التمر قرب الحدادين، وقد كانت عامرة فى بداية القرن تحوى حوانيت وحواصل بالدور الأرضى أما أعلاها فطابق كبير^(٢). ولكن أصبحت خرابا فى النصف الثانى من القرن خاصة منذ عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م فقد وصفها المصادر بصريح لفظها بذلك. فنقول " الخبرة المعروفة بوكالة التمر قديما الجارية فى وقف المرحوم مجد اليوسفى الكاينة قريبا من الحدادين بخط دار النحاس بمصر القديمة" ^(٣).

وفى منطقة فم الخليج وكالتا النيدة والسادات الوفائية وبحمام جمدار العديد من الوكالات أيضا بجانب وكالة الزيت مثل وكالة أم لطفى ووكالة الأمير محرم، وبكفر الشيخ شهاب المستجد العمارة بظهر حمام جمدار - كما ذكرنا فى موضع سابق - شهد أيضا عدة وكالات نذكر منهم وكالة اشتملت على ١٦ حاصلًا بجانب حانوت خارجها^(٤).

وبجانب الأسواق والوكالات انتشرت الحوانيت فى أنحاء متفرقة بمصر القديمة سواء فى دار النحاس أو حمام جمدار أو حتى فى فم الخليج، والحانوت غالبا كان صغير الحجم مربع الشكل يبلغ ارتفاعه ستة أو سبعة أقدام وضلعه يبلغ نحو ثلاثة أو أربعة أقدام، ويلحق

(١) الشموت: هى من القرى القديمة، اسمها الأصلى ششموت ثم إلى الشموت من أعمال الشرقية كما قال بن نماتى فى قوانينه. وذكر جوتيه فى قاموسه قرية باسم Bou Chmaouit وقال إنه اسم ناحية مجاورة لعين شمس ويرى رمزى إن هذا هو الاسم القديم لقرية الشموت هذه، وهى عموما تابعة لمركز طوخ ولما أنشئ مركز بنها عام ١٩١٣ ألحقت به لقرية منها. محمد رمزى: المرجع السابق جـ ١ ص ١٩

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٤٣٣، ص ١٠٧٥

(٢) نشأت ١١٩ لسنة ١٠١٢هـ، ص ٤٤

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٢٠، ص ٥٣

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١، ص ١

به مخزن وترتفع أرضيته عن مستوى الشارع بمقدار قدمين أو ثلاثة وبخارج وجهته " مصطبة " من الطوب أو الحجر ومقعد يجلس عليه صاحب الحانوت ليستقبل الزبائن^(١). وكانت هذه المقاعد تتسبب فى ضيق الشوارع مما يدفع السلطات إلى إزالتها.

وقد كان بعض هذه الحوانيت مستقلا بذاته يحوى العديد من البضائع ويستخدمه صاحبه كسكن خاص به بجانب صفته التجارية مثل " الحانوت المعروف بسكن المعلم على نحلة بخط حمام جمدار "^(٢). أو قد يوجد البعض منه داخل وكالة تجارية كما ذكرنا منذ قليل، وأحيانا نجد حانوتا أسفل بعض الرباع مثل حانوت ترك العلاف الذى يقع تحت ربع بحمام جمدار تجاه جامع السويدية^(٣).

ب. المعاملات التجارية والنقدية:

١. حركة البيع والشراء:

وكان طبيعيا أن تنمو حركة البيع والشراء طالما توافرت مقار الأنشطة التجارية من أسواق وحوانيت ووكايل. فقد كثرت المعاملات بين الأفراد. وسجلات المحاكم الشرعية الخاصة بمصر القديمة لا تخلو صفحاتها من ذكر حجة بيع أو شراء. فقد شملت المعاملات بيع وشراء واستئجار البضائع والسلع المختلفة، وكذلك العقارات والأراضى الزراعية، بل والخرائب والأرض البياض.

فتذكر الوثائق إن سلامة بن عبد الله قام فى عام ١٠١٩هـ/ ١٦٠٩م بشراء مقطع قماش وقمح من رجل يدعى عبد العاطى بن منصور نظير مبلغ ستة دنانير ذهبية وعشرة أنصاف فضية^(٤). وأيضا بيع نحو ٢٠٠ حبل كتان بنحو ٢٠ ديناراً ذهباً، وكان اللحم البقرى والجاموسى يباع بسوق حمام جمدار، خاصة وأن مصر القديمة تمتلك مذبحاً ضخماً ولا يتم

(١) أندريه ريمون: المدن العربية الكبرى، ص ١٧٩

(٢) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٤، م ١٩٠٦، ص ١٥٧

(٣) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٣، م ١، ص ١

(٤) محكمة مصر القديمة: ص ٩٨، م ٨٤٢، ص ٢٤٢

تعاطى هذه اللحوم قبل الكشف عليها واستبعاد " الفاسد أو البائت منها " وذلك تجنباً للضرر أو الخسارة^(١).

وتجارة الحبوب من أهم التجارات داخل مصر القديمة وذلك لأنها تمتلك ميناء نشطا ترد إليه الحبوب من نواح متفرقة وله ديوان [موجب] خاص به وكذلك شونة خاصة لتخزين الغلال، وسوف نخصص جزءا للحديث عنها.

أما تجارة البطيخ فقد ذاع صيتها بالمدينة حتى خصص لها مكان قرب الآبار الشريفة أطلق عليه " دار البطيخ " حيث كان البطيخ يرد إليها من الوجه القبلى. وعلى معلمين البطيخ " موجب " أو " عوايد " نظير تعاطيهم الاتجار فيه. ويدفع للصوباشى أو الأمير المحافظ المسئول عن ذلك بمصر القديمة. فقد دفع الحاج محمد بن المرحوم على الزيات بحمام جمدار ٤٠ قرشا للصوباشى مصطفى نتيجة " تعاطيه البطيخ الوارد من الوجه القبلى إلى الدار الكاينة بالقرب من الآبار الشريفة بمصر القديمة عام ١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م " ^(٢).

وفى نفس سنة الوثيقة السابقة دفع كل من المعلم حسن بن محمد القطرى والمعلم حجازى بن محمد القاطنين بحمام جمدار أيضا نحو ٣٦ قرشا فضية للأمير رجب شرجى المحافظ بمصر القديمة. ولكن لا يعنى ذلك أن العوايد المفروضة على تجارة البطيخ تؤخذ نقدا فقط بل كانت فى أحيان كثيرة تحصل عينا بجانب القدر النقدي المدفوع فقد قام الأمير خضر " كاشف مدينة الجيزية سابقا والمتحدث على ناحية جزيرة الذهب وجزيرة النشوة الشرقية تجاه ناحية دير الطين من ضواحي مصر والآثار الشريفة بمصر القديمة " بتحصيل نحو ٧٥ قرشا و ٦٠٠ بطيخة من البطيخ الأخضر على مرات متفرقة من حجازى بن أبى شوشة وزين بن محمد القطرى وهما من كبار تجار البطيخ بالدار. وحكم عليهما أن يحضرا له البطيخ إلى منزله بمصر المحروسة، وحمل ذلك خارج المبلغ المذكور^(٣).

(١) نفس: م ٨٤٢، ص ٢٤٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٢٧٦، ص ١٠٣

(٣) نفس: م ١٦٣٢، ص ٦٠٥

وقد ارتبط بتجارة البطيخ عدة وظائف منها " المنادى بدار البطيخ "، فتذكر الوثائق رجلا يدعى سليمان بن المعلم رجب بن أحمد الشهير بابن معيزة المنادى بدار البطيخ بمصر القديمة عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وهو القاطن فى بولاق المحروسة^(١). أما المعلم حجازى بن محمد الشهير بأبى شوشة - سبق التعرف به - كان " رصاصا فى البطيخ بمصر القديمة عام ١٠٦١هـ/١٦٥١م "^(٢).

وقد شملت حركة البيع والشراء أيضا المنازل والحوانيت والحواصل والقلل والعطارة وغيرها، ولدينا العديد من النماذج، فقد سجل بيع منزل بخط الخطر يعرف " ببيت الفجيل " بقم الخليج يشمل قاعتين أرضيتين خراب وحاصل وقاعة خراب أخرى، وطبقتين خراب أيضا كل ذلك نظير مبلغ ٤٠ نصف فضة عام ١٠١٨هـ^(٣).

فى حين بيع منزل آخر بقم الخليج أيضا بالحدرة يكاد يشابه بيت الفجيل فى مكوناته بمبلغ ١٩ قرشا فضة كل قرش بثلاثين نصف فضة عام ١٠٥٤هـ، ونلاحظ هنا أن منحى الأسعار قد ارتفع بالطبع بين عامى ١٠١٨هـ، وحتى عام ١٠٥٤هـ^(٤).

أما الحواصل فقد انتشرت بكثرة وذلك نتيجة طبيعية لمدينة تحتل فيها تجارة الحبوب مكان الصدارة وسط تجارتها الرائجة. وسجلنا الكثير من عقود بيع وشراء الحواصل، ففى عام ١٠٦٧هـ بيع حاصلين داخل وكالة البردينى بـ ١٥ قرشا^(٥).

وتعتبر منطقة قم الخليج مستودع صناعة القلل والأواني الفخارية خاصة حارتا الدخامسة والكيزانية اللتان كانتا تتنافسان حول إبراز الدقة والمهارة فى شغل القلل^(٦)، وكما تقدم فقد أغرقت هذه البضائع سوق قم الخليج الذى كثرت فيه بيع وشراء القلل. فاشترى

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٥٦٨، ص ٢٠٨

(٢) محكمة بولاق: س ٤٨، م ٢٠٤، ص ٩٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٦٧، ص ١٠٤

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٣٧٧، ص ١٧٧

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٢٦، ص ٥٦

(٦) للمزيد انظر الفصل السابق الخاص بالصناعة والزراعة، ونود أن نشير إلى أنه منذ وقت قريب كانت منطقة قم الخليج تعتمد على هذا اللون من الصناعة.

محمد بن حسين الكلاف بفم الخليج من المعلم أحمد بن محمد القللى نحو ٣٥٠٠ قلة شغل الكيزانية والتي تعادل كل قلة منها نحو قلتين - على حد تعبير الوثائق - وهذا الكم من القل قدر بنحو ٢٨ قرشا^(١).

ووجدنا العطاره بحمام جمدار، وكان لها حانوت كبير، وكذلك الفاكهة بجميع أنواعها - فلا يغيب عن أذهاننا أن منطقة مصر القديمة أرض بساتين وفواكة - وفي بعض الأحيان كان التجار يحتكرون بعض السلع ويتسببون في الضرر، مثلما قام تاجر بن حسن " المتسبب في بيع العنب بمصر القديمة " بمنعه من المشتريين وراح يمنع الفقراء من تواصل الشراء ويؤذى الناس بالسباب، وبمقتضى ذلك أدبه الحاكم الشرعى وضربه على رجليه^(٢).

وقد سجلت المحاكم الشرعية العديد من حالات التصادق بين التجار، فتصادق الشريف أحمد بن الشريف محمد بن عمر الدين المدادى الحسنى مع المعلم أحمد بن محمد بن المرحوم يوسف الفرارجى المعصرانى على ما كان بينهما من الديون والمعاملات. وكذلك تصادق الزينى إبراهيم بن على من طائفة عزبان بمصر المحروسة مع المحترم أحمد بن محمد الدقاق فى البن بمصر القديمة، واتفقا على أن الذى يستحقه الزينى إبراهيم من أحمد الدقاق ثمن العمودين الحديد المعدين لدق البن نحو ٨ قروش. وقد دفع منهم قرشين عبرة كل قرش ثلاثون نصف فضة، وباقى المبلغ وهو ٦ قروش مؤجلة له على أن يدفع كل شهر قرشا واحدا، ولكن عندما يمضى الشهر وعشرة أيام فى الشهر الذى يليه ولم يوفى له القسط الشهرى " كان لا حق له فى التأجيل الشرعى ويدفع المبلغ المرقوم على حكم الحلول الشرعى " ^(٣).

(١) نشئ ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ، ص ١١٤

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٦٨٧، ص ٢٠٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٣٨١، ص ١٢٩

٢. عقود الإيجار:

كثرت حالات الإيجار في مصر القديمة خلال القرن، وتضمنت ما تضمنته حركة البيع والشراء النشطة. وتم العثور على العديد من عقود الإيجار التي تضمنت مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات وهذه المدة تسميها الوثائق " عقدا "، وهناك عقود إيجار لمدة سنة أو أقل من سنة أما العقود الطويلة فهي نادرة، لدرجة أن المدينة تكاد لا تعرف نظام عقود الإيجار هذه إلا في الأراضي الزراعية.

وفي عام ١٠٣٤هـ تم تأجير معصرة بحمام جمدار تعمل في عصر الزيت الحار وتضم ثلاثة عيدان وطاحونين وصواري وزنانير وحجر وزريبتين وبيرين من الماء الصالح للشرب والعديد من الزيتين إيجاره لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر نظير أجرة ١٠٠٠ نصف فضة تدفع كل سنة وشهر يليها على ثلاث أقساط متساوية^(١).

وهناك معاصر أخرى شملت عقود إيجارها أقل من سنة وهي المعصرة التي استأجرها القمص عبد المسيح بن يوحنا من بيت المجير من المعلم محمد الفرارجي لمدة ٩ أشهر متوالية بمبلغ قدره ٣٠ ديناراً من الذهب الشريفي^(٢).

وعثرنا على حالات تأجير وكالات بأكملها. فوكالة الزيت التي بحمام جمدار الجارية في وقف السلطان برقوق كانت تحت نظارة الأمير عثمان من أعيان طائفة الجراكسة بمصر، وقد وكل عنها نيابة عن الزيني مراد بن محمد الذي قام بتأجيرها للمحترم رمضان بن جابر من أعيان ناحية أبو جراح بإقليم البهنساوية، ولكنه قاطن بجوار هذه الوكالة. وتضمن عقد الإيجار مدة سنة كاملة هلالية مقابل مبلغ ٤ قروش عن كل شهر من شهور سنة الإيجار^(٣). ونلاحظ هنا في عقد إيجار هذه الوكالة ظاهرة استشرت في عقود الإيجار بالمدينة خلال

(١) نشت ١٤٣ لسنة ١٠٣٤هـ، ص ١٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٨، ص ٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٤٧٩، ص ١٨٢ - يقول الشرنيلاي أن ابن حنيفة النعمان قد أجاز بصحة بيع الوكيل لأن البيع " مبادلة المال بالمال مطلقاً من غير تعييد ينقد أو نسبة " ويجوز عزل الوكيل إذا ثبت عليه الفسق انظر: الشرنيلاي: ص ٣٩٠، ٣٩٣

الحقبة موضع الدراسة، وهى عملية التوكيل الشرعى لشخص آخر تكون له حرية التصرف فى العقار سواء بالبيع أو الشراء أو الاستئجار.

أما الوكالة المعدودة فى وقف المرحوم منصور بن عبد الله المهندي المجاورة لطايفة الينكجيرية بقم الخليج والتي تضم حواصل بالخارج وثلاث طباق مطلة على النيل، وثمان قاعات أرضيات وحوش وفسحة بجانب المرافق والمنافع والتوابع. وقد استأجرها الشيخ زين الدين فايد الجناحي عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م لمدة سنة كاملة هلالية نظير ١٩ قرشاً عن كل شهر^(١).

وشملت عقود الإيجار أيضاً المقاهى والحوانيت والأفران والطواحين والأروقة والفواخير والحمامات. فأجر الأمير حسن جاويش الناظر الشرعى على وقف جامع عمرو بن العاص (المقهى) الكاينة بخط حمام جمدار للمحترم محمد بن جمعة العمرى القهوجى بنفس الخط لمدة سنة كاملة بمبلغ ٤٨٠ نصف فضة^(٢). وفى ١٠٢٠هـ/١٦١٠م استأجر المعلم خفاجى بن على الدخيمسى (من حارة الدخامسة بقم الخليج) الطاحون الفرد الفارسى بخط الحجارين بدار النحاس بعدتها الكاملة التى تضم "قاعدة وحجر وهرميس وعجلة وعمود وفاس وقادوس" لمدة ثلاث سنوات بأجره عن كل سنة ٧٢٠ نصف فضة، ويعنى هذا أن كل يوم نصفين وعن كل شهر ٦٠ نصفاً واتفق الطرفان فى نصوص العقد أن يقوم المستأجر المذكور (المعلم خفاجى) بدفع الأجرة عن كل شهر أى ٦٠ نصف فضة^(٣).

وذهبت حالات الإيجار أبعد من ذلك لدرجة أنها شملت زقاق بأكمله، فقد أجر الحاج على بن إبراهيم النجار فى الصناديق لحجازى بن رمضان الزقاق الموجود بدرب ملوخية ليستخدمه كسكن له لمدة سنة تبدأ من عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م نظير مبلغ ٤ أنصاف من الفضة عن كل شهر^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٤٧٩، ص ١٨٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٦٤٥، ص ٣٠٩

(٣) نشت ١٤٤ لسنوات "١٠٣٤-١٠٣٦هـ"، ص ١١٢

(٤) نفسه: ص ١١٢

وهكذا رأينا كيف نشطت المعاملات التجارية من بيع وشراء أو استئجار داخل المدينة خلال القرن وذلك بفضل تعدد الأسواق والحوانيت والوكالات. فلا نكون قد بعدنا إذا قلنا إن مصر القديمة حوت ما يقرب من ١٥٠ حانوتا ووكالة، وما يزال بعضها قائما إلى الآن يشهد لكل من يتجول في ربوعها على مدى ما بلغته هذه المدينة - وريثة الفسطاط - من شهرة تاريخية عظيمة.

ووجدنا أيضا أن هذه المعاملات قد نشطت أكثر في النصف الثاني من القرن عنه في النصف الأول، يعود ذلك إلى أمور شتى من انخفاض مياه النيل وانتشار الأوبئة والطواعين.

٣. القروض والرهنات والإيداعات:

انتشرت القروض والرهنات بصورة ملحوظة هنا، وشملت جناحي مجتمع المدينة من المسلمين والنصارى، وأبلغ دليل لنا هنا الذمي ميخائيل بن عبد السيد النصراني القبطي الذي اقترض نحو ٤٠ قرشا من عامر بن الحاج منصور الشهير بابن مرعى التراس بشونة مصر القديمة^(١).

وربما لا يدفع المقترض ما عليه، فيلجأ الحاكم الشرعى إلى معاقبته، ففي حالة القرض الذى بين أيدينا، رفض الذمي ميخائيل دفع ما عليه فتم اعتقاله بناء على اختيار المدعى^(٢).

أما الرهنات، فقد كانت هناك بعض الحالات حيث يقوم شخص ما بأخذ مبلغ من المال من شخص آخر نظير أن يرهن الأول عقارا أو أى شئ ذا قيمة للشخص الآخر حتى يضمن حقه، فإذا استطاع الراهن بعد المدة المتفق عليها فى العقد من إعادة النقود عندئذ تفك الرهنية، وإلا فالعكس صحيح تماما. فقد قام أحد السادة الكتاب بالخرينة العامرة ويدعى العريفى شمس الدين محمد بفك الرهنية عن المكان الكائن بحارة الجمالة بفم الخليج بعد أن تسلم من الحاج جميل بن عامر مبلغ ١٠ قروش ثم عاد المكان المرهون إلى الحاج جميل

(١) محكمة مصر القديمة: م ١٠٥، م ١٥٠، ص ٥٤

(٢) نفسه: م ١٥٠، ص ٥٤

المذكور^(١). والجدير بالذكر أن الرهونات كان يتعهد بها كاتب تسمية الوثائق " الكاتب على الرهونات " سواء داخل المدينة أو على الساحل، فقد كان الشيخ شمس الدين محمد القلعى " كاتباً على الرهونات بساحل مصر القديمة " عام ١٠٥٣هـ.

أما الإيداعات فقد وجدت لها مكاناً بين تعاملات الأفراد حيث أودع أحمد بن عبد القادر مبلغ ديناران وستة عشر قرشاً وثمانية وثمانون نصفاً من الفضة لدى الشيخ الصالح أحمد بن الشيخ محمد القطرى وتم ذلك فى جمادى الثانى ١٠١٨هـ بشهادة عابدين الجاويش بالخدمة العالية والملتزم ببيت المال، وقاسم جاويش بخدمة مصالح بيت المال^(٢). وفى نفس العام سجلت لنا وثائق العصر استرداد بعض الإيداعات " فقد أقر الشيخ شهاب الدين أحمد القطرى أنه قبض وتسلم ووصل إليه من المعلم حجازى بن موسى بمصر القديمة جميع المبلغ الذى كان وديعة له عند المعلم حجازى المذكور وهى مبلغ وقدره دينارين ذهب وعشرة من القروش وتسعة عشر قرشاً من الفضة العديدة الأحمدية..... " ^(٣).

٤. نظم التعامل النقدي:

تؤكد أوراق البردى وقطع الأوستراكا^(*) على أن المعاملات التى كانت سائدة فى مصر قبل الفتح العربى تعتمد على العملة الذهبية المعروفة بالدينار أو بمعنى أكثر دقة كانت مصر تتبع قاعدة الذهب^(٤). ويتفق المقريزى مع هذا الرأى بقوله " أن خراج مصر من قديم الدهر وحديثه إنما هو الذهب ".

وقد انتشرت دور ضرب النقود فى مصر خاصة فى القاهرة والإسكندرية والفسطاط وغيرها معتمدة فى البداية على خامى الذهب والفضة، ويرى صامويل برنار " إن المصدر

(١) دشت ١٤٤ لسنة ١٠٣٤هـ، ١٠٣٥هـ، ص ٨٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٥٢، ص ٤٢

(٣) نفس: م ١٥٥، ص ٤٢

(*) الأوستراكا: قطع من الفخار والأحجار استخدمتها بعض الشعوب القديمة فى الكتابة، وعرف منها علماء الآثار الكثير من الحقائق التاريخية.

(٤) سيده إسماعيل الكاشف: دراسات فى النقود الإسلامية. مقال فى المجلة التاريخية. المجلد ٤ لعام ١٩٦٥، ص ٨٧

الرئيسى الذى يزود دور صك النقود بخامى الذهب والفضة منذ زمن لا تعيه الذاكرة إنما هم اليهود^(١).

ثم بدأ تزييف العملة منذ عهد على باشا الصوفى (٩٧١/٩٧٣هـ — ١٥٦٤/١٥٦٦م) حيث خلط العملة بالنحاس زيادة عن القانون^(٢).

وعموما قد تداولت فى مصر العثمانية النقود الذهبية التى أطلق عليها " الشريفي " وهو اشتقاق من نقود سلاطين المماليك الجراكسة، ثم النقود الفضية مثل الأقبجة والنصف فضة والبارة والدرهم والقرش والريال^(٣).

ومن خلال عمليات البيع والشراء رأينا — كما تقدم — نوعيات النقود التى تداولت فى مصر القديمة خلال القرن سواء كانت القروش أو الدنانير أو النصف فضة. وتكرر أيضا استخدام عملة " الأبى كلب الكبير " وهى عملة هولندية تعنى الدولار. وقد جاء ذلك نتيجة ارتباط النقد المصرى بالنقد الأجنبى خاصة أواخر القرن ١٦ الذى تعرض فيه النقد العثمانى لعدة تغيرات^(٤). وغير خاف أن دخول العملة الأجنبية لمصر قد تسبب فوضى فى الميزان النقدى.

وهكذا كثرت المعاملات التجارية والنقدية بالمدينة بشكل ملحوظ وهو أمر طبيعى نابع من النشاط التجارى الضخم الذى شهدته من بيع وشراء أو استئجار أو حتى القروض والرهنات.

(١) صامويل برنار: وصف مصر. الحياة الإقتصادية فى مصر فى ق ١٨، ج ٦ ترجمة زهير الشايب، ط ١، ١٩٨٠

مكتبة الخانجي، ص ١٨٣ كذلك انظر: Michel Tuchscherer

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول فى التاريخ الإقتصادى والإجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٣١١

(٣) أحمد السيد محمد الصاوى: النقود المتداولة فى مصر العثمانية. رسالة دكتوراه بكلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩١، ص ٧٦ وما بعدها

(٤) السيد رجب حراز: المرجع السابق، ص ٤١

ونعود إلى هؤلاء التجار المصريين الذين أثروا الحركة التجارية بالمدينة وحققوا أرباحا طائلة: نذكر منهم...

١. السادات الوفائية:

لقد كان للسادات الوفائية كيان عظيم بمصر القديمة، فكان لهم مكان خاص وزاوية " زاوية السادات الوفائية " بخط دار النحاس " والسادات الوفائية ينسبون إلى سيدي محمد بن وفا الإمام المشهور الذي يتصل نسبه إلى ملوك المغرب من آل الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد انتقل إلى مصر منذ أوائل القرن الثامن قادمًا من المغرب، ومنذ ذلك التاريخ أصبح لرجاله المنازل الرفيعة والمقامات السامية^(٣).

فقد كان للسادات الوفائية وكالة خاصة بهم بخط حمام جمدار وكذلك طاحون عامر بخط دار النحاس توافر لها الأثوار والحمير والقمح اللازم لإدارتها^(٤). واشتغل بعضهم فى العطاره مثل الشيخ زين الدين منصور بن على الوفائي العطار بخط حمام جمدار وكذلك

(١) محكمة مصر القديمة: ص ٩٨، م ٢٨٢٧، ص ٧٥١

(٢) نفس: ٤: س ١٠٥، م ١٣٦، ص ٤٩

(٣) محمد توفيق البكري الصديقي: بيت السادات الوفاية - دار الكتب المصرية، ١٩٧٥، ص ٧

(٤) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٩٤٦، ص ٣٧٦

شمس الدين محمد الثانى الوفائى العطار بدار النحاس^(١). فالعطارة قد انتشرت بصورة ملحوظة فى خطى دار النحاس وحمام جمدار.

وسجلات المحاكم الشرعية تمدنا بمعلومات غزيرة عن تجارة الوفائيين، فنجد أبو اللطف بن وفا الذى تولى مشيخة المسجدة الوفائية لمدة ٢٥ عاما، بجانب اشتغاله بالعلم والتدريس كانت له أنشطة تجارية بمصر القديمة، وقد توفى عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م. أما السيد عبد الفتاح أبو الأكرام بن وفا فكان أيضا من قراء العلم وصاحب المسجدة الوفائية، وله ثروة كبيرة اشتغل بها وعمل على ترميمها، فقد امتلك العديد من المراكب النيلية التى كانت تنقل الحبوب والبضائع، وفى عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م قام بتأجير مركبه الزنكى الذى طوله ثلاثون شبرا لعلى بن أحمد الوفائى المكى نظير مبلغ خمسون دينارا من الذهب الشريفي الخالص عن مدة أقصاها سنة كاملة^(٢). وقام بتأجير الحمام الكائن بخط دار النحاس للحاج محمد بن عفان لمدة عام كامل نظير مبلغ عن كل شهر ٣٠ نصف فضة و ٨٤ قرشا^(٣).

ومن الجارى فى أملاك السيد عبد الفتاح أبو الأكرام المصبغة المعدة لصبغ الحرير بقنطرة أق سنقر بمصر المحروسة^(٤). وعدة مقاهى بخط حمام جمدار قرب جامع عمرو بن العاص، وجاءت وفاته فى ١١ ذى الحجة عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م بمصر القديمة وصلى عليه بجامع عمرو وقد ترك ثلاثة من الأولاد هم عبد الرحمن أبو السيادات، ومحمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا^(٥). وتذكر الوثائق وجود ابنه له تدعى مؤمنة.

(١) نفسه: س ١٠٤، م ٢٤٧٣، ص ١٦٩٢

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢٦٥، ص ٧٣

(٣) نفسه: س ١٠٠، م ١١٤، ص ٤٥

(٤) نفسه: س ١٠١، م ١١٩١، ص ٤٦١، وقنطرة أق سنقر هذه تقع على الخليج الكبير، ويمر من فوقها إلى بر الخليج الغربى، وهى من إنشاء الأمير أق سنقر الشاد بالعمائر السلطانية زمن الناصر محمد بن قلاوون، وقد عمرها لما أنشئ الجامع بالبركة الناصرية وقد مات فى دمشق سنة ٧٤٠م. للمزيد انظر: المقرئى - الخطط، ج ٣، ص ١٣٩

(٥) محمد توفيق البكرى الصديق: المصدر السابق، ص ٣٦، ٣٧

وقد سار كل من محمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا على نهج أبيهما، وقدر لهما أن يلعبا دورا بارزا في تجارة مصر القديمة خلال القرن خاصة عبد الرازق أبو العطا.

والحقيقة إنه بعد وفاة السيد عبد الفتاح أبو الاكرام عام ١٠٥٤هـ دب النزاع وصدر التخاصم بين الشقيقين حول التركة لمدة خمسة عشر سنة، حتى جاء عام ١٠٦٨هـ / ١٦٥٨م وهو العام الذى تم فيه توزيع الميراث بينهما وشقيقتهم السيدة مؤمنة. فاختص الشيخ عبد الرازق: بقهوة (مقهى) بحمام جمدار وأجرتها في الشهر ١٨٠ نصف فضة، وخمسة حوانيت بجوار المقهى وأجرتهم في الشهر ١٢٠ نصف، وحمام دار النحاس وحواسله وأجرتهم ٦٠ نصف، وجباسة بدار النحاس وأجرتها في الشهر ٤٥ نصف، ومسمط وأجرتة في الشهر ثلاثة أنصاف، وبخارج مصر القديمة حوانيت ومقهى أيضا بأجرة ١١٢ نصف، وعدة أماكن سوق السباعين وأجرتهم ٣٨ نصف، وأملاك أخرى له بخط الجامع الأزهر وخط قنطرة أقي سنقر وجملة ما حصل عليه الشيخ عبد الرازق يقدر بنحو ١١٥٧ نصف فضة عديدة " ثابتة الوزن والعيار ". أما شمس الدين محمد أبو الفضل اختص بوكالة حمام جمدار وأجرتها ١٨٠ نصف فضة وأربعة حوانيت خارج الوكالة وأجرتها في الشهر نحو ٥٥ نصف ومقهى وطاحون بدار النحاس وأملاك أخرى بدرب الجماميز بالقاهرة . وقدر جملة ما حصل عليه بنحو ١١٦٤ نصف فضة^(١). وقد رضى كل منهما بما اختص به على أن يقوموا بحصة شقيقتهم السيدة مؤمنة حسب ما يقضى به الشرع.

وتوضح الحجة السابقة النشاط التجارى للشقيقين، وما جرى فى حصصهم وتواجرهم. ففي عام ١٠٧٧هـ / ١٦٦٧م أجر شمس الدين محمد أبو الفضل مركبه الزنكى المستجد الإنشاء والعمارة للرئيس أحمد بن يوسف القاطن بمدينة الجيزية لمدة سنة كاملة وشهرا يليها بأجرة ثلاثة عشر ألف نصف^(٢). وعلى ظهر هذه المراكب كان يجلب الغلال من صعيد مصر إلى مصر القديمة حتى صار من كبار تجار الغلال فى تلك الحقبة، يقصده الكثيرون للحصول على احتياجاتهم من هذه الغلال بكميات كبيرة، ففي جمادى الثانى عام

(١) محكمة القسمة العسكرية: م ٦٣، م ٣٠١، ص ١٧٧، ١٧٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٢٠٦، ص ٨٩

١٠٧٨هـ/١٦٦٨م اشترى منه الشيخ شمس الدين محمد بن زكريا من طائفة مستحفظان/ قلعة مصر المحروسة، ملتزم ناحية جهود بإقليم البهنساوية نحو ١٠٠ إردب من القمح الصعيدى نظير مبلغ ٤٠٠ قرشاً، أى أن ثمن كل إردب نحو أربعة قروش عبرة كئل قرش نحو ثلاثون نصف فضة^(١). ونلاحظ هنا أن ثمن الإردب قد ارتفع عنه فى النصف الأول من القرن، وهو ما سوف نرصده ونوضحه بعد قليل.

وفى عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م قام شمس الدين أيضاً بتأجير بعض أملاكه من حوانيت ومقاهى وحواصل ومصبغة النيلة لزين الدين صالح المدينى الوفاى أحد التجار بسوق الجوهريه والصاغة لمدة سنة كاملة بمبلغ ٣٠٠ نصف فضة كل شهر^(٢). وفى نفس العام أيضاً سجلت الوثائق أنه قام ببيع جارية بيضاء اللون تدعى " شاه باظ بنت عبد الله " وهى رومية بغدانية الجنس بمبلغ أربعة آلاف نصف فضة^(٣).

أما الشيخ عبد الرازق أبى العطا فلم يكن من أعظم تجار السادات الوفاية فقط بل هو من أعظم تجار مصر القديمة قاطبة خلال القرن السابع عشر نظراً لتجارته الواسعة ورحلاته. ففى عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م استأجر قطعة أرض خراب وبها أنقاض لمدة ثلاثين عاماً - نلاحظ هنا أن مدة الإيجار طويلة وليس كباقي المدد التى انضوى أغلبها على سنة أو ثلاث سنوات - وكان معه المهندسين المتخصصون فى الأبنية، لينتفع بذلك من إقامة بعض المنشآت التجارية، وذلك نظير مبلغ ١٢٠ نصف فضة كل سنة^(٤). كما قام بتأجير وكالة بيباب النصر من أملاك زوجته رابية خاتون ابنة المرحوم الأمير عبدى بيبك أمير اللوا الشريف بمصر القديمة، عن طريق التوكيل الشرعى للشيخ نور الدين على، وهى الوكالة المعدة لبيع

(١) نفس: ٥٨٤م، ص ٢٣٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٥١٨، ص ٥٨١

(٣) نفس: ١٥٨١م، ص ٦٠٥، وعن الرقيق ودورهم بمصر القديمة: انظر الفصل الخامس من بحثنا

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٢٧، ص ١٠

البذر وما بها من حواصل تحوى هذه البنور، وكانت مدة عقد هذه التواجر عام كامل نظير أجرة دفعها الشيخ نور الدين المستأجر المذكور ٧٥٠٠ نصف فضة عن كل شهر^(١).

وكان لعبد الرازق أبو العطا باع كبير فى تجارة الغلال والبن والجلود. فقد امتلك العديد من المراكب النيلية التى كانت تنقل الغلال من الوجه القبلى لمصر القديمة فجعل هذه المراكب تنقل لحسابه الخاص أحيانا، وقام بتأجير بعضها لتجار الغلال أحيانا أخرى. فقبل عام ١٠٨٤هـ/١٦٧٤م قام الحاج على شحادة وأقاربه باستئجار عدة مراكب وكذلك الوجه المعروف بمرسى المعادى وهى ضمن أملاك عبد الرازق أبو العطا نظير مبلغ مائتين وأربعة عشر ألف وربعمئة نصف فضة^(٢). وفى عام ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م أجر مراكبه القياسة التى بترس والزنكى وغيرهما لجماعة من أهالى ناحية الفشن بالوجه القبلى للإتجار فى الحبوب^(٣).

واشتري الكثير من العربان خاصة عربان غزالة بجزيرة القمامصة وعلى رأسهم الشيخ عمر بن خطاب الغياط شيخ عربان غزالة المذكور، كميات كبيرة من الغلال المعدود بحواصل عبد الرازق أبو العطا، تضمنت نحو ٦١ إردبا من القمح سعر كل إردب قرشين و ٢١ إردبا من الشعير سعر كل إردب هنا قرشا واحدا^(٤).

أما تجارة البن فقد نشطت فى مصر العثمانية بوجه عام خلال القرن السادس عشر، عندما جلب من الحبشة واليمن وقام المتصوفة بشرب القهوة أثناء الذكر^(٥) وكان لمصر القديمة نصيب فى هذه التجارة، فقد راجت بها خلال القرن، وليس أدل على ذلك من انتشار العديد من المقاهى خاصة فى منطقتى حمام جمدار ودار النحاس. وكان عبد الرازق أبو العطا واحدا من هؤلاء التجار الذين ساهموا فى رواج تجارة البن بمصر القديمة، فتسجل الوثائق

(١) نفسه: م ٢٣٣، ص ٩٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٠٠٤، ص ٩٤٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١١٦٨، ص ٤٦٠ وعدة وثائق أخرى تالية لها تحمل نفس الغرض

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٧٢٨، ص ١٤٤١

(٥) د/ نيللى حنا: تجار القاهرة فى العصر العثمانى (سيرة أبو طافية)، ترجمة وتقديم د/ رؤوف عباس، الدار المصرية

اللبناية، ١٩٩٧، ص ١٤٤

خروج كميات كبيرة من البن من حواصله لرجل يدعى شمس الدين محمد بن حسين الوفائي نظير مبلغ ١٤,٠٠٠ نصف فضة^(١).

- وتجارة الحرير والجلود من التجارات التي ساهم فيها أيضا خاصة الحرير الحبلزى الجيد الذى يقدر " بالشد "، وكان الشد الواحد بنحو ثلاثون نصف فضة، وقد باع ما جمّله نحو عشرة شهود لرجل من ناحية الفشن بثلاثمائة نصف فضة^(٢). وتجارة الجلود قد وجدت بمصر القديمة خاصة جلود الأبقار والجاموس نتيجة وجود مذبح ضخم بمصر القديمة، وقد كثر الجلادون بها واحترفوا دباعة الجلود داخل المداينغ العديدة التي انتشرت خلال القرن وكانت هذه المداينغ تحصل منها الضرائب لصالح مقاطعة (دباغ خانة) تلك المقاطعة التي كانت خاضعة لمقاطعتي بولاق ومصر القديمة قبل القرن السابع عشر^(٣).

ولما كان الشيخ عبد الرازق أبو العطا من كبار تجار مداينغ مصر القديمة، فقد قام هو وجماعته بدفع ما عليهم من مال الروزنامة الموجب عليهم دفعه لصالح مقاطعة دباغ خانة، وقد سجلت دفاتر الروزنامة أن قيمة ما عليهم دفعه لروزنامة غرة محرم عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٦م، فى اليوم ٧١ بارة أى فى الشهر نحو ٢١٣٠ بارة^(٤).

وتذكر المصادر قيامه بالسفر إلى القدس الشريف عام ١٠٩١هـ/١٦٨١م وبصحبه جماعة قام بتأجيرهم كحماية له فى الطريق حسبما يتعرض لأى أخطار. واستمر يمارس نشاطه حتى جاءت وفاته عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٨م ليسدل الستار على أعظم تجار مصر القديمة خلال القرن فكان ممن ساهموا برواج تجارتها الداخلية وكذلك تجارتها الخارجية خارج حدود مصر المحروسة.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١١٨٨، ص ١٠٢٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٠٠٣، ص ٩٤٦

(٣) د/ عبد الحميد حامد سليمان: المرجع السابق، ص ٢٣٢

(٤) سجلات الروزنامة: دفتر مقاطعة إحتساب، مخزن تركى ١، عين ١٧ رقم عمومى ٥٢٥٣، رقم الحفظ النوعى ١٠،

انظر ملحق رقم (١) التذكرة التي قمنا بنشرها وتوضح نشاط عبد الرازق أبو العطا فى تجارة المداينغ، ص ١٨٩

وكذلك قدر لمصر القديمة أن تشهد عائلة أخرى ذات نشاط تجارى لا يستهان به. ومن أبرز تجارها حسين بن على الخولى وأخواه يوسف وحسنى، وإن كان حسن أبرزهم على الإطلاق، فكان حسين ابن على الخولى من كبار تجار المراكب المقبلة والمبحرة بنهر النيل وما تحمله من غلال وخطب أو بوص إضافة إلى مشاركته فى بعض حالات البيوع المنتشرة فى زمانه.

وقد بدأت فعاليات نشاط عائلة الخولى أواخر النصف الأول من القرن السابع عشر. فى جمادى الأول سنة ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م اشترى المعلم حسين الخولى من الرايس صالح بن حسن الرشيدى الرايس ببحر النيل مركب الأشكيف نظير مبلغ ٤٠ قرشاً^(١) وذلك لحمل الغلال من الصعيد. فكانت مراكبه تحمل الفول والقمح والشعير، وكان الأهالى يقبلون عليه للحصول على احتياجاتهم من هذه الحبوب، فقد اشترى الرايس محمد بن على بن منصور ٢٠٠ إردب من الفول و ٢٢ إردب من القمح الصعيدى الخالى من العيوب^(٢). وأجر للرايس عبد الفتاح بن الشيخ على من أهالى منشية خميس بالمنصورة المركب القياسة التى بسنة لمدة سنة كاملة وشهر بمبلغ ١٧ ألف نصف فضة، واتفقا على أن يدفع نصفها حالا، والباقى على ثلاثة أقساط^(٣).

وبخلاف نشاطه الملاحي الضخم، عقد الكثير من العقود التجارية الأخرى، فقد اشترى قطعة أرض تقدر بنحو ١٢ سهماً بخط حمام جمدار من الشيخ أبو السعود بن مسطولة الخطيب بجامع عمرو بن العاص نظير مبلغ ٧٠ قرشاً وبنفس الخط قرب مقام سيدى شمس الدين محمد ساعى البحر اشترى وكالة بها حواصل وفسحة كشف سماوى^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٣١٤، ص ١٣٦

(٢) نفس: ٤؛ م ٤٧٩، ص ٢٤٠

(٣) محكمة مصر القلبيمة: س ١٠١، م ٤٢٢، ص ص ١٥٧، ١٥٨

(٤) نفس: ١١٧٨، ص ٤٥٤

وقد عثرنا على وثيقة تثبت إنه كان على علاقة مع العربان حيث قام بإقراض شيوخ عربان هواره بناحية الشيخ زياد مبلغ إثني عشر ألف نصف فضة قبل عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م^(١).

ورغم كثرة تجارته كان يعمل بخدمة الدولية بمعصرة الزيت بمصر القديمة. ولكن يمكننا القول أن المعلم حسين الخولى رغم تنوع وتعدد نشاطه التجارى إلا أن تجارة الحبوب والغلال كانت أهم مصادر تجارته، فالمصادر نفسها تصفه بذلك وتقول " المعلم حسين ابن على الخولى المتسبب فى الغلال بمصر القديمة " ^(٢).

أما يوسف بن على الخولى، فكان يشبه شقيقه المعلم حسين بدرجة كبيرة فى أسلوب تجارته، حتى إنه كان يعمل هو الآخر مدولب بمعصر الزيت بخط حمام جمدار، وكان يبيع ما وجد فيها من بذور كتان وتبن وخيول وحمير^(٣). وكانت مراكبه تجوب نهر النيل طولا وعرضا للإتجار فى الغلال، حيث امتلك المعلم يوسف العديد من المراكب النيلية.

وأیضا عمل حسنى بن المعلم على الخولى الشقيق الثالث لهما بجوارهما فى معصرة الزيت المذكورة وسار على درب سابقه وإن كان أقلهم نشاطا. بذلك تكون عائلة الخولى قد سجلت صفحات فى تاريخ مصر القديمة خلال القرن، وأصبح اسمها مدرجا - كما رأينا - بتجارة الغلال. حتى أن الوثائق عندما تذكرهم تقول " عائلة الخولى المشهورة بالتواجر فى الغلال وغيرها بمصر القديمة " ^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٦٦١، ص ٣١٤، ٣١٥

(٢) نفسه: م ٦٤٠، ص ٣٠٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٣٥٤، ص ١٤٦

(٤) نفسه: س ١٠٠، م ٥٠٩، ص ٢٥٥

٣. عائلة البديوى:

إذا كان بيت السادات الوفائية وبيت الخولى من البيوت التجارية التى حققت شهرة فائقة وسط محيط مصر القديمة فعائلة البديوى لا تقل عنهما أهمية وإن اختلف نوع النشاط كما سنرى.

الحقيقة أن عائلة البديوى من العائلات التى تركزت فى فم الخليج واقتصرت نشاطها على صناعة القلل والإتجار بها، وإن وجد لها بعض التجارات الأخرى، ولكنها حالات فردية لا تغير من مسار وأسلوب حياتها.

وتردد ذكر الحاج على البديوى وابنه. فوجد المعلم الحاج على بن المرحوم محمد البديوى القللى بخط فم الخليج قد ورث هذه المهنة عن أبيه المعلم محمد البديوى، ثم ورث على بن على البديوى المهنة عن أبيه أيضا. إذن هذه العائلة قد توارثت المهنة جيلا بعد جيل، وهو الأمر الذى جعل الدقة والمهارة هى أهم سمات صناعة القلل بها.

وانتشرت فى فم الخليج العديد من الفواخير المعدة لصناعة القلل مثل فواخير المعلم محمد النقيطى والمعلم شكر الزبدانى وفواخير عائلة البديوى وتركز معظمها فى حارتى الكيزانية والدخامسة اللتين اشتد التنافس بينهما حول صناعة القلل.

وقبل عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م قام عبد الرازق بن عبد الكريم عرف بإبن سنجر المصرى وسليمان ابن عبد الجواد القللى بشراء العديد من القلل من الحاج على البديوى بمبلغ قدرته الوثائق بنحو سبعون قرشا ونصف فضة^(١) وهو يعتبر مبلغ كبير لأن كل قرش يمثل ثلاثون نصف فضة، أى تقدر الصفقة هنا بنحو ٢١٠٠ نصف فضة.

وفى عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م كتب المعلم على البديوى حجة وقف بما يمتلكه، وكان ضمن ما أوقفه ثلاث فواخير بظهر فم الخليج وقد أوصى بأن يصرف من ريع ذلك على

(١) نفسه: س ١٠١، م ٤١٧، ص ١٥٦

طائفة القلالية وشيخهم بالكيزانية^(١). ويرجح أن وفاته جاءت عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٣م حسبما تشير المصادر إلى ذلك.

٤. الأمير بهرام شربجي:

هو بهرام شربجي/ بلوك باشي طايفة مستحفظان قلعة مصر المحروسة بن المرحوم الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة وكان مسئولاً عن توفير الحطب لمطبخ السلطنة الشريفة وذلك منذ عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٤م. ودوام على جلب الحطب المذكور على ظهر مركب القياسة التي بسنة خاصة من الوجه القبلي^(٢).

وفي بعض الأحيان كان يكلف بعض الأفراد لحمل هذا الحطب على ظهر مراكبهم نظير أجر معلوم يخرج من الديوان، ففي عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م كلف المعلم على بن طعيمة الحطاب ببولاق لكفاية المطبخ والفرن السلطاني من الحطب يوماً واحداً في كل شهر، حيث كان يتم تكليف الفرد بتوفير الحطب يوماً واحداً فقط في الشهر ثم يأتي آخر وآخر وذلك حتى لا يتقل كاهل هؤلاء التجار. وقد تم اختيار يوم ٥ ذي القعدة ليؤدي فيه المعلم على بن طعيمة الحطب المرصود للمطبخ وله نظير ذلك أجره الرجال والدواب وقياسته التي بترس المعدة لحمل الحطب^(٣). في حين يذكر أن يوم ١٠ ذي القعدة خصص للرايس على بن عطا الله من أهالي ناحية المعطف بولاية الجيزية^(٤).

وإضافة إلى أنه كان متحدثاً على حطب المطبخ والفرن السلطاني كان أيضاً ملتزماً على بعض النواحي. فقد إلتم بناحية شرونة بإقليم الألفيحجية منذ جمادى الثاني

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٨٠، ص ٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٨٢٢، ص ٦٩٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٦٠، ص ٧١

(٤) نفسه: م ١٦٩، ص ٧٤، والمعطف، هي من النواحي القديمة، إسمها الأصلي عطف بهبيت لمجاورتها لناحية تسمى بهبيت للمزيد انظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ج ٣، ص ٤٠

١٠٧٦هـ/١٦٦٦م، ثم دخل في إلزامه في نفس العام ناحية المفهمين بإقليم الأطفيحية أيضا لتحصيل ما عليهما من مغل السنة المذكورة^(١).

وتركز نشاط الأمير بدار النحاس وفم الخليج. فقد اشترى قطعة أرض بدار النحاس كانت خرابا قام بتعميرها وشيد عليها شونة لخرن الحطب ومناخ لإستراحة الدواب وطاحون فرد فارسي. وتملك العديد من الحوانيت ووكالة كل ذلك بدار النحاس، أما في فم الخليج فكلن هناك العديد من الحوانيت أيضا والأفران المعدة لخبز الطحين بجوار موقف الحمارة^(٢).

وقد توفي الأمير بهرام عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٣م بعد أن أوقف العديد من أملاكه التي أوصى بأن تصرف من بعده لصالح ضريح الإمام الليث بن سعد السمرقندي.

٥. الأمير يوسف جوربجي:

هو الأمير يوسف جوربجي / طايقة عزبان. قلعة مصر المحروسة المتحدثة على حطب مطبخ الديوان السعيد القاطن بمصر القديمة. وقد بدأ تحدّثه على المطبخ منذ عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م وكما كان يفعل الأمير بهرام لتوفير حطب المطبخ، قام أيضا الأمير يوسف بتكليف بعض الأفراد بذلك مثلما كلف عبد المعطي بن حماد والحاج عبد الرحمن بن نصار من أهالي دير الطين بولاية الأطفيحية بتوفير البوص والحطب اللازمين لطبخ نحو ألف قنطار من العسل وأعطاهم عوايد ذلك^(٣) كما إلترم بناحيتي المفهمين سالفه الذكر لمغل سنة ١٠٧٨هـ/١٦٦٨م وناحية زهرة بالوجه القبلي لمغل سنة ١٠٩٢هـ/١٦٨٢م.

وللأمير يوسف هذا تجارات واسعة تؤكد ذلك سجلات محكمة مصر القديمة بالذات، فقد امتلك العديد من المراكب القياسة والزنكي والعقب وغيرها والتي كانت تحمل بغلال مدن الصعيد إلى مصر القديمة. وهو أيضا يعد من كبار تجار البن بمصر القديمة، فتسجل المصادر العديد من أسماء تجار الصعيد الذين حصلوا على كميات كبيرة من قناطير البن من

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٠٢، ص ٤٥، ونفس السجل، م ١٧٤، ص ٧٦

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٠١، ص-ص ٤٢، ٤٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٦٠٦، ص ص ١٣٨٨، ١٣٨٩

152

ولما توافرت له الثروة العريضة والتجارة الواسعة أحاط نفسه بالعديد من الأرقاء العبيد الذين اعتمد عليهم في تدبير أموره، وكان الأمير يوسف يفضل العبيد الروس الجنس، وكان يعاملهم معاملة طيبة وعبر عن ذلك بكتابة المكاتبات والحجج التي تضمن لهؤلاء العتق والحرية بعد وفاته على أن يظلوا في خدمته ورعايته طوال حياته. وقد عبر عن ذلك بصريح لفظه فقال " عبدى هذا - يعنى أحد معتوقيه - مدبراً في حياتي معتوقاً بعد مماتي " (٢).

وقبل وفاته قام بكتابة حجة وقف على أملاكه من أروقة وحواصل وأطباق وحوائيت وجناين عامرة بالأشجار والفواكة وأصول النخيل بخط دار النحاس ليصرف ريع ذلك على مصالح أوقاف الحرمين الشريفين وضريح سيدي محمد بن المقداد^(٣).

د. هيناء مصر القدمة:

إن أهم ما يميز مصر القديمة هو وجود ميناء ومنفذ مائى تطل منه على نهر النيل، ذلك الميناء الذى جعلنا نطلق عليها لفظ " مدينة " وليس " حى ". فقد درج الكثيرون على أن يصفوها بلفظ حى كباقى أحياء القاهرة العثمانية. ولكن وجود مثل هذا الميناء أخرجها من " التوقع " إلى الإطلالة البحرية والعلاقات التبادلية النشطة مع باقى أجزاء مصر أو البلدان الخارجية كما سنرى . لذلك فوصفها بحى لهو قول يحتاج إلى مراجعة ودراسة دقيقة.

لقد كان ميناء مصر القديمة خلال القرن السابع عشر بمثابة قبلة يقصدها التجار، خاصة تجار الحبوب والغلل. وكان الميناء يحمل لفظ "أسكلة أو سقالة".

والملاحة فى نهر النيل خلال القرن كانت منتظمة، حيث كانت المراكب تجوب النهر مقبلة ومبحرة، ولا تتوقف إلا عند حدوث مجاعات ناجمة عن الجفاف أو ارتفاع الفيضان

(١) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٥، ج ٢٣٦، ص ٨٢

(٢) نفس: ٤: ٨٠، ص ١٣٦

(٣) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٥، م ٤١٨، ص ١٤٢

بصورة كبيرة تهدد بنشوب كارثة. لذلك كان ضرورياً أن نعرف منسوب النيل فلا نجد مشكلة في ذلك ما دام عندنا مقياس الروضة هذا المقياس الذي انشئ عام ٢٤٧هـ وعرفت الجزيرة باسمه فأطلق عليها " جزيرة المقياس " بمصر القديمة. وقد قامت الإدارة بمصر القديمة بالاهتمام بهذا المقياس خلال القرن. فقد خصصت له جماعة يقومون بتنظيفه نظير ١٠٠٠ بارة تخرج من الخزينة العامة لحسابهم^(١). وارتبط به أيضاً جماعة المنادين بالبشارة على النيل يقومون بالإعلان عن بداية وفاء النيل يرأسهم أمين أطلق عليه " الأمين على قياس بحر النيل المبارك " وكان الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي الرداد أشهر الأمناء الذين تولوا قياس نهر النيل في فترة " ١٠٤٣هـ - ١٠٧٦هـ " (٢).

فكانت عائلة أبي الرداد من العائلات التي تعلق اسمها بقياس نهر النيل، حتى أخرجت لهم الخزينة عوائد تحت مسمى " عادات أولاد أبي الرداد أمناء مقياس شريف " نحو ١١٠٠ بارة. وظهرت لهم المراكب العديدة أمام ميناء مصر القديمة. وقد وفرت الإدارة العثمانية الأمن للمراكب النيلية واهتمت بها، فقد قام سليمان القانوني بنفسه عام ٩٢٧هـ بالتوجه صوب بولاق للإطمئنان على المراكب^(٣).

أما أمن المراكب بمصر القديمة، فقد خصص له أمين خاصة يسمى " أمين البحرين بمصر القديمة " الذي يحصل الغلال من رويسا المراكب لصالح شونة الغلال بمصر القديمة، ويتقاضى منهم رسوم سنوية مقابل هذه الحماية^(٤).

وقد تعددت المراكب بمصر القديمة فتعلق بعضها في أملاك أفراد عاديين ينقلون عليها غلالهم وبضائعهم، وخصصت مراكب أخرى لنقل الغلال لجهة السلطنة الشريفة أطلقت

(١) دفتر الرزنامة: دفتر مال خزينة عامرة من أقلام سنة ١١١١هـ مخزن تركي ١، عين ٢٩، مسلسل ٢١١١، رقم الحفظ السنوي ٦

(٢) دشت ١٥٠ لسنة ١٠٥١هـ، ص ٧٠١

(٣) د/ ليلى عبد اللطيف: دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠، ص ٣٧

(٤) إسماعيل مرهوك: حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ط ١، بولاق، ١٣١٤هـ، ص ٣٨

عليهم المصادر اسم "مراكب الرسالة السلطانية". وبعضها مراكب خصصت لصيد الأسماك مثل مركب "الشختور الصيد" وغيره، فقد انتشرت مصايد الأسماك قبالة نيل مصر القديمة، وقد كان يتم بيع ما يخرج من نهر النيل من أسماك بخط حمام جمدار الذى انتشرت به حلقات السمك وما بها من تجار وفراشين يقومون برش السمك^(١). وكانت كل حلقة من هذه الحلقات أحياناً تختص ببيع نوع واحد من السمك مثل "حلقة السمك البطارخ المملوح الطيب"^(٢). وعند حدوث بيع قارب من قوارب الصيد أو حتى استئجارها يقوم المشتري بأخذ هذه القارب وما فيها من الصيادين حتى يضمن المشتري المذكور استمرار عملية الصيد^(٣).

وقد قمنا برصد أسماء المراكب التى ترددت على ميناء مصر القديمة خلال القرن، وحاولنا أيضاً معرفة أطوالها وبعض المعلومات عنها حتى تتضح الرؤية.

(١) محكمة بولاق: س ٤٣، م ١٠٢، ص ٤٤ وكذلك س ٥٧، م ٥٢، ص ١٧

(٢) الباب العالى: س ١٢٧، م ١٨٨، ص ٤٢

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٣٥٨، ص ٩٩، وقد لاحظ الرحالة (جون أنتيس John Antes) الملايين من الأسماك النيلية مثل البورى والبلطى والقشرة (Keshar) واليونى (Bunni) وكذلك البطارخ التى أسماها البتارجو (Butargo).
انظر: جون أنتيس: المصدر السابق، ص ١٠٩، ١١٠

طوله	المركب
٣٥ شبرا	١. المركب الزنكى
-	٢. القياسة التى بسنة
-	٣. العقب القياسة
٢٥-٥٠ شبرا من قاعه	٤. القياسة
٢٥	٥. العقب
-	٦. بنوانى
٣٥ شبرا من قاعه	٧. الشختور البنوانى
-	٨. القياسة البنوانى
٧٠ شبرا	٩. الشختور الأتفينى
٣٠-٤٠ شبرا	١٠. العشارى
٣٥ شبرا	١١. المركب القارب
٢١ شبرا	١٢. القياسة التى بترس
-	١٣. القارب الرشيدى
-	١٤. الأشكيف
-	١٥. النفيرة
-	١٦. القياسة الفلوكة التى بترس
١٠ أذرع، ومنها ١١ ذراع	١٧. الزهيرى
٢٤ شبرا	١٨. ابوافيرى (الابوفيرى)
-	١٩. البنوانى التى بسنة
-	٢٠. المركب العشارى التى بترس القشاش
-	٢١. المركب الباطوسى (الباطوشى)
٨ أذرع	٢٢. الزهيرى العقب

هذه بعض المراكب التي وردت أمامنا داخل بطون سجلات المحاكم الشرعية، وهى متفاوتة إلى حد ما فى الطول، ولكن متقاربة فى كميات الحمولة، وقد تعلق بها جماعة الدلالين، أطلق عليهم " الدلالين فى المراكب " وقد عثرنا على طائفة من نجارى المراكب بمصر القديمة قاموا بتعمير العديد من المراكب المبحرة ناحية أسيوط^(١) عليهم يعيدوا لنا أمجاد هذه المدينة التى خصها الإخشيديون منذ زمن لتكون داراً لصناعة السفن عندما كانت تسمى بالفسطاط.

هـ . شونة الغلال بمصر القديمة :

احتلت شونة الغلال بمصر القديمة مكانة بارزة، وحظيت بإهتمام من قبل السلطنة العثمانية نظراً لما توفره هذه الشونة من غلال لهذه السلطنة، لذلك أدرك سليمان القانونى ذلك جيداً وأدرج ضمن قانونه (قانون نامة سليمان) بنداً خاصاً أطلق عليه " قانون الشونة السلطانية فى مصر القديمة " ^(٢).

وكانت الغلال تخزن بهذه الشونة عن طريق الغلال الواردة إليها من الصعيد على ظهر المراكب كما ذكرنا وقد إلترمت العديد من النواحى بالوجه القبلى والبحرى لتحصيل الغلال لصالح الشونة وتأمين وصوله إليها وتنظيمه وحمايته. وأسماهم المصادر اسم " المحافظين " وكذلك " أمين البحرين ".

وأطلقت المصادر على الشونة لقب العنبر الشريف وقد كان لهذا العنبر أمين ينظم شئونه ويكون من الأشخاص المشهود لهم بالإستقامة. وقد سجلت الوثائق للشونة أكثر من أمين فى نفس الوقت. وكان الأمين يرسل من الباب العالى فى مطلع العهد العثمانى، ولكن بعد أن تزايد نفوذ رجال الأوجاقات حاولت الدولة خلق عناصر أخرى موالية للسلطنة وكان ذلك فى منتصف القرن ١٦، وأصبح منصب " أمين الشونة " قاصراً على رجال طائفة الجاويشية، ولكننا رأينا فيما بعد أن هذه لم تكن قاعدة ثابتة، فقد كان الأمير يوسف جوربجى

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٢٦، ص ٩

(٢) قانون نامة مصر: المصدر السابق، ص ٢٣

وقد ارتبطت بالشونة العديد من الوظائف لإدارة شئونها وترتيب أمورها، فقد وجد جماعة اليازجية (الكتاب) وهم من جماعة المتفرقة أو الجاويشية الأتراك ومعهم المباشرين ببابها، ويقوم هؤلاء جميعا من الكتبة والمباشرين بضبط الوارد إليها والمصروف منها والمتحصل فيها داخل حواصلها (مخازنها) بموجب الدفاتر الديوانية المشهودة بالإمضاء والختم من قبل الديوان الشريف، وأشهر هؤلاء الكتبة في النصف الأول من القرن الأمير عبد الكريم، والأمير محمد جلبى من طائفة مستحفظان بقلق. مصر المحروسة / بلوك ١٠٠ / جامكية ٨ فى اليوم والشيخ الفاضل شمس الدين محمد بن المرحوم القاضى بدر الدين ورفيقه القاضى زين الدين^(٢). أما فى النصف الثانى من القرن وجد العديد من هؤلاء الكتبة وأرباب الأقلام منهم حسن أفندى الكاتب التركى والشهابى أحمد بن شهاب الدين الشهير بإبن مهلهل من طائفة مستحفظان^(٣).

ووجدنا أيضا وظائف أخرى تتعلق بالشونة كجماعة التراسين الذين يصنعون الزكائب من الشعر لحمل الغلال من الشونة، وقد كونوا طائفة كبيرة يرعى شئونها شيخ يختارونه بأنفسهم تبعا للقانون والعرف السائد بينهم^(٤). وجماعة المغربلين والخزانين والكيليين والوزانين وعمال الدولية وأمناء المخازن الذين يقومون بتسجيل كميات الغلال الواردة إلى كل مخزن مع تحديد مصدرها من أى ملتزم هي^(٥). واللواحين وسماسرة الغلال بساحل مصر القديمة التى كانت لها مقاطعة التزام خاصة بها يتولاها أحد الملتزمين العاديين أو من أهل

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ١١١١، ص ٣٥٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٦٩٧، ص ٢٢٦

(٢) نفس: ٦١٧، ص ٢٠٢ وللمزيد عن طوائف الحرف انظر: الفصل الثاني من هذه الدراسة

(٥) عراقى، يوسف محمد: الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين ١٦، ١٧ دراسة وثائقية ج، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٩٣

الذمة مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم اليهودي الريان الشهير بالكبوسى الملتزم لجهة السمسرة بالشونة الشريفة عام ٩٨٨هـ^(١).

وقد كان لهذه الوظائف جميعا الدور الفعال عندما تستقبل الشونة كميات الغلال الواردة إليها من الوجه القبلى أو حتى الوجه البحرى عن طريق ملتزمى هذه النواحي. وتنقل خلال هذه النواحي على سفن خاصة بالسلطنة الشريفة وتسمى " سفن الرسالة " وإذا لم تكن السفن السلطانية كافية لهذا الغرض فيتم استئجار المراكب الخاصة بالتجار. وكان أغا الرسالة المتحدث على المركب السلطانية يقوم بتكليف بعض الرويسا بقيادة هذه المراكب وحمل الغلال على ظهورها نظير بعض العوايد التى يدفعها لهم، فالأمير رجب أغا المتحدث على المراكب السلطانية فى سنة ١٠٥٤ هـ دفع لكل من الرئيس شهاب الدين مروان والمعلم عاشور الوحشى ويوسف حميان وغيرهم من رويسا المراكب السلطانية الجارية فى تحديث الأمير العوايد المفروضة على كل مركب من المراكب المذكورة دون زيادة فى ذلك أو نقصان^(٢). أما المراكب الخاصة بالتجار التى تستأجر لنقل غلال السلطنة بجهة الشونة، فقد كانت تكتب (رسالة) على كل تاجر من هؤلاء مضمونها سنة نقل الغلال مع الكمية المكلف بنقلها ومن أى جهة. فالمعلم على بن عبد الله بن داود الرايس ببحر النيل المبارك حمل نحو ١٥ إردب شعير عام ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م من رسالة كانت مكتوبة عليه فى هذه السنة لجهة الشونة بمصر القديمة^(٣). أما الرايس حسين بن على الوسطاوى فقد حمل ١٤٠٠ إردبا من الغلال - لم تذكر الوثيقة أنواع هذه الغلال - من ولاية المنفلوطية بالوجه القبلى على ظهر العشارى الجارى فى ملك الأمير على أغا أمين عنبر مصر القديمة المؤجر بإسمه وله فى نظير أجرة حمل ذلك على كل ١٠٠ إردب من ذلك من الفضة ثلاثماية نصف فضة للأمير على أغا خارجا ذلك عن أجرة الميرى الجارى على العادة المتبعة بإعترافهما ودفع العوايد والمصاريف اللازمة عليه بباب العنبر وغيره أسوة أمثاله، وقد تم

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٥، م ٢٤٣، ص ٤٨، وكذلك محكمة بولاق: س ٢٧، م ١٠٧٥، ص ٢٣٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٤٠٢، ص ١٩٥

(٣) دشت ١٤٤ لسنة ١٠٣٤، ١٠٣٥هـ، ص ٨٩

ذلك عام ١٠٩٣هـ^(١). وقد لاحظنا أن الغلال قد كثرت بباب الشونة في هذا العام وازداد خراج الأرض من الغلال وقتئذ.

والجدير بالذكر أن بعض التجار يتأخرون في سداد ما عليهم من غلال الرسالة المكتتة، فالحاج فتوح بن شحادة الشهير بإبن علوم وهو أحد معلمين الحلفاوية ببولاق القاهرة كان قد تعهد بحمل غلال تقدر بألف إردب بكيل الورد من الأمير شاهين كاشف ولاية الأشمونيين لمغل سنة ١٠٩٣هـ الخراجية. ولكنه سدد فقط نحو ٥٥٠ إردب وتأخر عليه نحو ٤٥٠ إردب قام بسدادها في ذى القعدة من العام التالي^(٢). ولما كثرت حالات تأخير سداد الغلال لعنبر مصر القديمة على طول القرن السابع عشر بوجه عام، وفي الربع الأخير منه بوجه خاص صدر بيورلدى في ذى الحجة ١١٠٧هـ مضمونه " إن كل الرويسا الحاملين لغلال العنبر الشريف بمصر القديمة وكل ريس عليه غلال لجهة الميرى عليه أن يدفع ثمنها لجهة العنبر المرقوم....."^(٣).

وتذكر الوثائق أن روح التعاون قد انتشرت بين رويسا الغلال اتضح ذلك من قيام محمد بن الحاج حسن التراس بالشونة بسداد نحو ستة وستين إردبا وثلثاى أدرب من القمح الحنطة الصعيدى لجهة الشونة عن الرايس سالم بن الحاج أحمد العيساوى - أحد الرويسا ببحر النيل - على أن تكون في ذمته سدادها فيما بعد^(٤).

والحقيقة أن أهمية الشونة جعلتها محط اهتمام من قبل الإدارة العثمانية، هذه الإدارة التى حرصت دائما على عمران الشونة بالعديد من الغلال، لذلك عددت لها الموارد سواء من الوجهين القبلى والبحرى على حد سواء، ففي الوجه القبلى جاءت الغلال من المنيا وولاية دجرجا (جرجا) والأشمونيين والمنفلوطية والبهنساوية وغيرها من ولايات الصعيد، وفي

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٣٩٩، ص ١٣٤

(٢) نفس: م ٧١٦، ص ٢٣٢، كذلك يذكر أن شخصا يدعى هيكى بن خضير المعروف بباب الرسائل السلطانية ببولاق قد تأخر عليه عام ١٠٦١هـ نحو ٤٠٠ إردب قمح من أصل ٢٢٠٠ إردب لجهة شونة الغلال

بمصر القديمة. انظر: محكمة بولاق: س ٤٨، م ٢٦٠، ص ١١٤

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ١٤٥٤، ص ٤٧٣

(٤) نفس: م ٣٨٤، ص ١٣٠

الوجه البحرى نجد ولاية الشرقية وبالتحديد ناحية منية الخنازير التى استمرت عدة سنوات خاصة فى النصف الثانى من القرن تحت إلتزام الأمير عبدى بىك أمير اللوا الشريف والمحافظ بمصر القديمة الذى وكل نيابة عنه شخصين لحمل الغلال من فلاحى هذه الناحية^(١). وكذلك ولاية الدقهلية والغربية وغيرها. وقد تعددت أنواع الغلال الواردة من هذه النواحي منها القمح والشعير والذرة والفول وبذر الكتان أو حتى حطب الشعشاع والفحم الصعبدى الذى يقدر بالقنطار^(٢).

وتعددت المراكب النيلية التى تنقل الحبوب للعنبر الشريف وذكرنا أن منها سفن الرسالة وأخرى للتجار والمراكبية، وظهر منها أنواع عديدة مثل العشارى والعقب والأشكيف وغيرها من الأنواع التى تعرضنا لها من قبل، وما تعلق بهذه المراكب من المعرفين المساعدين لأمين البحرين، هذا الأمين الذى أشرف إشرافا كاملا على حركة سير المراكب، فلا يمكن لأى مركب الإبحار إلا بعد الحصول على التراخيص الخاصة بذلك من أمين البحرين هذا أو من ينوب عنه^(٣). وأيضا كان يجمع من البحارة بعض (العوايد) أو الرسوم الخاصة المفروضة عليهم، مثلما قام النورى على بن عبد الله كتحذا عامل البحرين بساحل مصر القديمة لعام ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م بجمع " عوايد التعريف لجهة عامل البحرين " من بعض الأفراد بالساحل المذكور ونخص بالذكر منهم الحاج على بن جعفر الأكرادى وسليمان القواس من رويسا بحر النيل^(٤).

وقد تعرضت الغلال على ظهور هذه المراكب للعديد من العقبات والمشكلات وصلت لحد غرق بعضها فى نهر النيل فى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م أوثق الرايس طاهر بن العمرى مركبه مائة إردب قمحا من ساحل قنا بالوجه القبلى وأبحر فى سلام قاصدا شونة مصر

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٢، م١١٩٧، ص٤٧٠ حملوا له نحو ٣٥٨ إردب ٤٠ إردب قمح، ٣٠٠ إردب شعير،

١٢ إردب فول، ٦ إردب نرة.

(٢) دثت ١٥٩ لسنة ١٠٥١هـ، ص١٦٦

(٣) عبد الحميد حامد سليمان: الملاحة النيلية فى مصر العثمانية. تاريخ المصريين رقم ٧٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩، ص٥٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، م١٠٠٣، ص٣٦٩

القديمة حتى وصل قرب جزيرة الروضة بالبر الغربى ولم يشعر إلا وانكسرت مركبه على آثار ساقية قديمة بباطن البحر الأعظم وانفتح من أسفله وغرقت بعض غلالها رغم إغاثة بعض الريسا له^(١). كما غرقت المركب التى بسنة أمام ساحل مصر القديمة فى العام الماضى ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وكانت محملة بالغلال من ولاية البهنساوية لجهة الشونة وقدره ثلثمائة وخمسون إردب ما هو من القمح ثلثمائة، وما هو من الشعير خمسون، وكان على ظهرها الرئيس محمد حسن، وحين حل الوقت الأخير من الليل أثناء نوم الرئيس محمد المذكور، ما لبثت المركب أن غرقت، فأرسل الحاكم الشرعى الحنفى الأمير مصطفى - كتحذا بساحل العنبر الشريف وهو مندوب الأمير يوسف بيك أمير اللوا السلطاني وناظر الشؤون بمصر القديمة - وصحبته الشهود إلى الساحل المذكور للكشف على هذا المركب، فوجدوا الماء ملقى بها على الجانب الأيمن من الجهة الغربية وظهره ملئت بالماء أيضا ولم يظهر من الغلال إلا اليسير من القمح. وقد صدر هذا الكشف بحضور الأمير مصطفى المندوب، والأمير درويش بن على كتحذا على القلوع تابع الأمير يوسف بيك والأمير مصطفى شرجى عزبان وكتحذا أمين البحرين بمصر القديمة^(٢).

وربما العقبات التى تتعرض لها سفن الغلال تتجاوز حد الغرق الذى هو قضاء الله دون صنيع لأحد. فهناك شخص يدعى الرئيس سليمان المعروف بأبو تمساح كتب رسالته بالمركب الزهيري الجارى فى ملك السلطنة الشريفة وأتى بخمسائة إردب من الشعير من ساحل جرجا لجهة الشونة، ولكنه أوقف المركب عند ناحية الشيخ عثمان^(٣) بإقليم الجيزية وفر هاربا ولم يعرف مكانه وقام جماعة المعرفين للمركب بإحضاره وما فيه من الشعير إلى ساحل الشونة وضبط ما به من غلال فوجدت نحو ثلثمائة وثمانون إردب فقط من الشعير بكيل التحويل، رغم أن رسالتها - كما ذكرنا - خمسائة إردب شعير^(٣). على أية حال

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٣١، ص ١٩٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٣١٨، ص ١١٧، ١٨٨

(٣) هى من القرى القديمة إسمها الأصلية منشية طموه من أعمال الجيزية، وجاء إسمها فى تربييع سنة ٩٣٣هـ قيد

زمائها بإسمها الحالى. محمد رمزى: المرجع السابق، ص ٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٠٩، ص ١٩١

عندما ترسو مراكب الغلال هذه قرب ساحل الشونة، فى التو تتم عملية التفريغ وفحص الغلال للتأكد منها وكذلك مراجعة " تذكرة " الرسالة التى على هذه المركب لضمان وفاء صاحب الرسالة برسالته. ويقوم الوازنون والكيالون بسحب الغلال ووزنها بعدة مكاييل خاصة متفق عليها سواء - كما ذكرنا - كيل الورد، أو كيل التحويل، وهناك مكاييل خاصة بكل ساحل أو شونة مثل كيل الغلال بساحل بولاق أو حتى كيل الغلال بساحل مصر القديمة. ويقوم أيضا أمناء المخازن والكتبة بتسجيل كميات الغلال قبل تخزينها فى الحواصل (المخازن) فى زكائب كبيرة مصنوعة من الشعر على أيدي جماعة التراسين بالشونة، فكانت هناك زكائب للقمح والشعير والذرة والحمص.....إلخ.

وكانت إدارة المدينة وعلى رأسها الحاكم الشرعى تقوم سنويا بحصر الغلال داخل الشونة تحت مسمع ومرأى من ناظر الشونة وأمينها - حيث كان للشونة ناظر وأمين فى وقت واحد - حيث توجه الحاكم الحنفى بمصر القديمة وبصحبه شهود مجلسه فى عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م إلى الشونة لحصر الغلال وكان يتولى نظارتها وقتئذ الأمير يوسف بيك الذى كان أمير لوا سلطانى بجانب مهام النظارة والإشراف على إدارة شئون الشونة، والأمير محمد أفندى أمين الشونة الذى تكمن مهمته فى تحصيل الغلال. وقد تبين بعد الإستفسار من السادة الكتبة بالعنبر الشريف أن ما تبقى من الغلال داخل الشونة بعد صرف الجناب العالى الأمير عبدى بيك المتحدث السابق على العنبر الغلال اللازمة للجهات التى تصرف فيها حسب قانون الشونة وإدارتها نحو " أربعة آلاف وخمسمائة وإثنان وعشرون إردب ونصف إردب وربع إردب وثمان إردب "(١). وقد صنفت هذه الكمية إلى عدة أنواع كما هو معين بالمقاطعة الديوانية وجاءت فى الجدول التالى:

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٣٠٤، ص ١١٢

السلعة	الكمية	وحدة الوزن
قمح	٤٠٣ + ثلثاى وربع ثمن	إردب
شعير	١٣١٣ + قيراط واحد	إردب
فول	٥٤,٥	إردب
حمص	١٩٢	إردب
ذرة	٨٩٥,٧٥	إردب
حلفاء	١٦٦٤,٥	إردب

وهناك على طول القرن السابع عشر العديد من الأوامر الصادرة من قبل الحاكم الشرعى بهدف حصر الغلال وكتابة الحجج بالباقي والمنصرف مما بداخل الشونة^(١). والحق إنه قد تعددت أوجه المنصرف من الشونة، فيخرج منها الجراية المقررة لكل أمير من أمراء الأوجاقات على العادة المتبعة فى قانون الشونة^(٢). وكان لكل شخص أو أمير من هؤلاء قدر معين من الجراية ويحدد فيها أنواع الغلال وفى بعض الأحيان الخارجة عن عادة الشونة. فالأمير عبد الرحمن بن أحمد من أمراء المتفرقة رغب فى إخراج جرايته وقدرها ٤ إردب قمح وإردبان ونصف شعير، فأخرج له منصور بن رقية خمسة أرادب قمح وإردب ونصف شعير وبذلك أبدل إردب الشعير بإردب قمح دون أمر من الأمير بيالة أمين العنبر الشريف وشهد بذلك السادة اليازجية (الكتبة) بالشونة وجماعة المباشرين والأضاباشية بالشونة^(٣). وكانت الجراية أحيانا كثيرة تتعرض للسرقة.

وكانت تخرج أجزاء كبيرة من غلال شونة مصر القديمة لصالح الحرمين الشريفين أيضا والتي تعتبر بمثابة (مخزن غلال الدولة). وكان هناك ناظر خاص للأنبار الشريفة (الحرمين الشريفين) بمصر القديمة ليرعى شئونها ويضمن توفير الغلال اللازمة لها. فيوسف

(١) انظر: ملحق رقم (٥) كنموذج لحصر الغلال بشونة بمصر القديمة فى إحدى السنوات (١٠٥٨هـ/١٦٤٨م).

(٢) إصطلاح جراية: هو أجر أو منحة أو علوفية تصرف لبعض الأمراء وهى شهرية وتساوى إصطلاح جامكية. انظر:

أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٥٩

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٩، م ٩٣، ص ١٤، ١٥

أغا أغاوات الرسائل السلطانية ببولاق لعام ١٠٩٦هـ كان فى نفس الوقت ناظرا على الأنبار الشريفة بمصر القديمة يباشر المراكب المحملة بالغلل ويعاقب المراكبية المتخلفين عن رسالتهم تجاه الأنبار^(١). فمن المعروف أن مصر كانت تزود الحجاز بما تحتاج إليه من غلال منذ صدر الإسلام وظلت هذه السنة مستمرة فى العصر العثمانى، حيث أقر سليم الأول نحو سبعة آلاف إردب غلال لذلك، وصدق على هذا قانون نامة ولكن هذه النسبة زادت فيما بعد خلال النصف الأول من القرن السابع عشر حتى وصلت إلى ٤١٢٠٠ إردب إضافة إلى ما قرره السلاطين لقضاة مكة والمدينة وهو ٥٦٦ إردب ترسله مصر كل عام^(٢). لذلك نشطت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الحجاز وكان لتجار مصر القديمة نصيب وافر منها، وهو ما سوف نلاحظه أثناء تعرضنا للتجارة الخارجية بالمدينة.

وكان لأثوار السواقي السلطانية نصيب من غلال الشونة مسجل ذلك بالتذاكر الديوانية وفى دفتر المباشر بالسواقي المذكورة نظير أجر معلوم يسدده أمين هذه السواقي، وكذلك أجر الكياليين واللواحين والمساعدين، وأجرة حمير وزكايب وشوانين من العنبر، فقد دفع الأمير سليمان بن الأمير محمد جاويش أمين السواقي عام ١٠٧٨هـ نحو عشرة آلاف وخمسمائة وثمانية من الفضة الأنصاف نظير الغلال التى أخرجها من عنبر مصر القديمة^(٣).

وقد قدرت دفاتر الروزنامة الأموال التى خرجت من الخزينة العامرة عام ١١١١هـ لصالح علف أثوار السواقي هذه فجاءت نحو عشرة آلاف بارة^(٤).

وبجانب العسكر والأغاوات كان أيضا لكل من رجال المالية والعلماء والشيوخ نصيب من غلال الشونة. وكان الأمين يوزع النقاوى على كل قرية على أن يسجل ذلك فى دفاتر خاصة ليستوفى مقدارها وقت الحصاد. وإذا تبقى غلال فى الشونة بعد ذلك تطرح

(١) محكمة بولاق: س ٥٨، م ٥٧٣، ص ٩٤٤

(٢) حسام محمد عبد المعطى: العلاقات المصرية الحجازية فى ق ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب. سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٤٩، ١٩٩٩، ص ٢٥٥

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٥٨٥، ص ٢٣١

(٤) دار الوثائق: دفتر مال وارد الخزينة العامرة من أقلام سنة ١١١١هـ رزنامة ٢١١١. - رقم الحفظ السنوى ٦، عين ٢٩، مخزن تركى ١

كميات منها فى القاهرة، وأحيانا تباع للتجار المصريين أو الأجانب (الافرنج) فى الثغور بعد موافقة الباشا^(١).

وفى أوقات كانت السلطنة العثمانية تحتاج كميات من الغلال، فيقوم الباشا على الفور بإصدار أوامره بطرح وتجهيز الكميات المطلوبة من بولاق ومصر القديمة والقاهرة والإسكندرية وإرسالها إلى إسطنبول.

و. النشاط التجارى مع أنحاء مصر المختلفة:

ارتبطت مصر القديمة خلال القرن بعلاقات تجارية مع أقاليم مصر المختلفة سواء مدن الصعيد أو الدلتا أو حتى باقى أحياء القاهرة ولاسيما حى بولاق وطولون. وقد ظهر ذلك بجلاء فى عملية تبادل السلع المختلفة أو الرحلات التجارية البعيدة التى يقطعها التجار فى عمق نهر النيل الذى كان أهم طريق تجارى ربط بين شمال مصر وجنوبها.

١. مع أقاليم الصعيد:

تعود العلاقات التجارية بين مصر القديمة والصعيد إلى ما قبل القرن السابع عشر. فقد كثرت الرحلات التجارية بينهما منذ القرن السادس عشر عبر نهر النيل لنقل الغلال المختلفة إلى شونة مصر القديمة أو سلع أخرى مما تحتاجها المدينة وتتوافر فى صعيد مصر. فنقل الرئيس محمد بن على كميات كبيرة من القمح من فلاحين ناحية الدواينة بالوجه القبلى على ظهر المركب الزنكى إلى مصر القديمة عام ٩٣٧هـ^(٢). وكذلك تذكر الوثائق وجود رحلات تجارية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بين مصر القديمة وملوى وجرجا، وقدرت إحدى هذه الرحلات التى تمت عام ٩٨٨هـ بنحو خمسة دنائير ذهابا وإيابا^(٣). ووصلت هذه الرحلات فى عمق النيل حيث أبحر النوتية (البجارة) من جزيرة أبريم إلى مصر القديمة والعكس ومثل هذه الرحلات كانت

(١) عراقى يوسف محمد: المرجع السابق، ص ١٩٤

(٢) دشت ١١ لسنة ٩٣٧هـ

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٥، م ٢٦٥، ص ٥٣

تحتاج مرشِد أو كشاف يرشد هؤلاء التجار الغرباء إلى الأماكن التى يقصدونها نظير أجر معين^(١). ويذكر أن جماعة من جزيرة أبريم هذه وبلاد النوبة وساو حضروا فى بداية القرن السابع عشر وبالتحديد فى جمادى الثانى عام ١٠١٩هـ/١٦٠٩م إلى ساحل مصر القديمة قبالة سوق دار النحاس واشتروا من المدينة نحو مائة وعشرون سيفاً جديداً وقاموا بشحنها فى مركبهم، ولما استفسر منهم الأمير حسن جاويش صوباشى مصر القديمة آنذاك عن سبب شرائهم لهذه السيوف، فأجابوا إنها لأمير أبريم تكون له عوناً لإخماد حركات التمرد التى نشبت ضده فى الجزيرة^(٢).

وكانت المدينة تستقبل من صعيد مصر كميات كبيرة من الفحم والحطب خاصة من الأقصر وكذلك الحلفاء التى تقدر بالعقدة، حيث كانت تستخدم فى المطابخ والأفران الحديد داخل المدينة^(٣). وعملية نقل هذه البضائع تتم على ظهور المراكب النيلية نظير أجره معينة، أما أهم سلع الصعيد للمدينة - ولا شك - هى الغلال بجميع أنواعها سواء القمح أو الفول أو الشعير، وقدرت بكميات كبيرة خلال القرن يصعب حصرها كما سبق الإشارة. لذلك حرصت الإدارة العثمانية دوماً على ضرورة وصول هذه الشحنات إلى شونة مصر القديمة. فصدرت العديد من الأوامر التركية لهذا الغرض.

أما إقليم الفيوم الذى هو فى عداد صعيد مصر، فتؤكد الوثائق على وجود الصلات التجارية والاجتماعية الوثيقة بين المدينتين منذ بداية القرن. فتذكر سجلات الدشت لعام ١٠١٣هـ/١٦٠٣م أن المعلم على بن صولى الكباشى من أهل مصر القديمة قد تسلم من

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٢، م ٨٣٠، ص ١٤١، وجزيرة أبريم هى إحدى قرى مركز عنينة بمحافظة أسوان وهى من القرى القديمة وسميت فى فترة من الفترات بإسم "القايسة" لأنها كانت مركزاً لإقامة القابض أى الصراف المعين لتحصيل الأموال الأميرية المقررة على أراضي بلاد مركز الدر. انظر: رمزي: القسم الثانى ج ٤، ص ٣٠، ويذكر ابن الوكيل فى التحفة أن الوالى محمد باشا المعروف بقول قران (١٠١٦/١٠٣٠هـ-١٦٠٧/١٦١١م) نفى إلى تلك الجزيرة نحو ١٣ منجقاً بعد رفع السالينات (المرتبات) عنهم لما عرف أنهم قد تورطوا فى قتل الوالى إبراهيم باشا والى مصر عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م. انظر: ابن الوكيل: المصدر السابق، ص ١٦٧

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٨٢٠، ص ٢٣٧

(٣) تقدر الحلفاء بالعقدة أما الحطب فيقدر بالشدة، وزنة كل شدة نحو خمسة أرتال بالمصرى. انظر: محكمة مصر القديمة: س ٩٥، م ٥٢٩، ص ١١٠

ناحية أم الخنازير بالفيوم^(*) ثلاثة وثلاثون زكية من الفول الصعيدي السالم من العيوب وتقدر كل زكية بنحو ٤ وبيات بالكيل المصري^(١).

وقد تردد العديد من أبناء مدينة الفيوم على مصر القديمة، ويمرور الزمن أصبح لهم كيان إجتماعي داخلها. وكانت العادة المتبعة على الأحمال الواردة من ناحية الفيوم، أن كل حمل محزوم عليه موجب ٣٥ نصف فضة. وقد اعترض على ذلك شخص يدعى عبد الباقي الفيومي حضر إلى مصر القديمة عام ١٠٧٩هـ. ومعه أحمال كثيرة، ولما طلب منه الموجب وهو ٣٠ نصف ناقص عن القانون و ٥ أنصاف عادية للسيدار فامتنع عن الدفع رغم تحذير موسى اليهودي - وكيل الملتزم على الموجبات - له، لذلك رفع إمضائه الجمالي يوسف الشاد بديوان الموجبات^(٢).

وخلاصة القول أن صعيد مصر كانت بمثابة مخزن الغلال والبضائع لمصر القديمة خلال القرن، نشطت بينهما الصلات التجارية والإجتماعية. حيث استقر بعض الأهالي من الصعيد بمصر القديمة وانتشروا في معظم خططها وامتلكوا العقارات ومارسوا العديد من المهن. فالمحترم عبد الجواد بن الحاج محمد من أهالي كوم أنريج بالوجه القبلي قاطن بمصر القديمة ويعمل تبان بها، ومحمد بن أحمد بن غزالة من أهالي ناحية قفارة بالبهنساوية يقطع بمنزل مساحته ١٢ سهما من أصل ٢٤ سهما بحارة الخامسة بقم الخليج، ورأينا من قبل العديد من الرباع خصصت لهم " مثل ربع الصعايدة " وغيره من الأماكن بالمدينة إلخ.

٢. مع مدن الدلتا:

دائما ما يتردد أن مصر القديمة قبلتها الصعيد بينما بولاق تولى وجهها شطر الوجه البحري. هذا الحكم يحتاج بعض المراجعة. ذلك أنه يعنى أن مصر القديمة ليس لها أى نشاط - ولو على نطاق ضيق - مع مدن الوجه البحري. إننا نؤكد على وجود روابط جمعت بين أبناء مصر القديمة والوجه البحري، صحيح أنها علاقات لم تكن على نفس

(*) أم الخنازير: وردت بهذا الاسم في دفتر تربييع ولاية فيوم و بهنساوية واجب سنة ٩٣٣. فيوم ناحية رقم ١٢٧

(١) دشت ١٢١ لسنة ١٠١٣هـ، ص ٨٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٩٩٢، ص ٣٦٥

الدرجة التي كانت لها مع الوجه القبلي. فقد كان السنا المكي والسنا الصعيدى والخيارشـنبر يحمل من مصر القديمة إلى الثغر السكندرى^(١).

وكانت المراكب تبحر من مصر القديمة إلى المنوفية بفرع النيل ذهابا وإيابا لنقل البضائع والغلال. فتذكر الوثائق وصول مراكب مصر القديمة إلى ساحل شذوان (شنوات) بالمنوفية^(٢). وفي عام ١٠١٠هـ/١٦٠٠م استأجر عبد المنعم بن الشيخ صالح المعروف بالمساطي عين أعيان السادة التجار بمصر القديمة أراضي طينا سواء بناحيتي دمنهور شبرا ومنية نما لمدة سنة بأجرة ٣٤٠٠ نصف فضة^(٣).

ومن ناحية أخرى امتلك رجل من طوخ (من أعمال القليوبية) قطعة أرض خلف دار النحاس قرب حمام السادة الأربعين والشيخ محمد الحويوى، ولكنه قام ببيعها عام ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م^(٤).

ولدينا وثيقة فى غاية الأهمية مؤرخة بتاريخ (١٤ ذى الحجة لعام ١٠٥٤هـ) تؤكد نقل العجوة البلح من إقليم الشرقية إلى مصر القديمة، ويقدر ثمن قنطار العجوة بنحو ١٥ قرشا^(٥). وهناك وثيقة أخرى بتاريخ ١٠٧٦هـ توضح أن شخصا يدعى على بن شاهين بن منصور من أهالى منية خباج بإقليم الغربية أصبح الآن يقطن بمصر القديمة ويعمل بمقهى بخط حمام جمدار، بل أصبح يتاجر فى البن الأخضر بشكل يخدم مهنته^(٦). وتعود أهمية هذه الوثيقة والعشرات مثلها على مدى انتشار بعض أهالى الوجه البحرى داخل المدينة، ولا ريب أن ذلك جاء نتيجة طبيعية وتأكيدا على العلاقات التى جمعت بين الطرفين.

(١) محكمة الباب العالي: س ٧٤، م ٢٧٢٣، ص ٥٠٢.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٣، م ١١٨٥، ص ٢٢١ لسنة ٩٧٩هـ

(٢) محكمة الباب العالي: ص ٧٤، م ٣٦٢، ص ٤٢٦

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٥٤٦، ص ٢٧١

(٥) نفس: ٤٢٨، ص ٢١٢

(٦) محكمة مصر القليمة: س ١٠٣، م ١٣٠، ص ٥٨

٣. مع بولاق القاهرة:

كانت بولاق بجانب مصر القديمة منفذا رئيسيا للقاهرة على النيل خلال العصر العثماني. وتشير نيللى حنا كيف كان لبولاق عمقا في تاريخ مصر العثمانية، وكيف كان لمينائها دورا هاما لتجارة ومرور القاهرة يقصدها التجار في سهولة ويسر من كل صوب وحذب^(١).

أما عن العلاقات التي ربطت بين مصر القديمة وبولاق فهي علاقات قديمة تعود إلى ما قبل فترة الدراسة التي يتناولها بحثنا هذا فالمراكب النيلية والحركة التجارية كانت بينهما منذ بداية العصر العثماني فتسجل الوثائق سير المراكب بينهما محملة بالغلال والبضائع المختلفة بل أنه في أحيان عديدة كانت البضائع تنقل من الوجه القبلى إلى الميناءين مناصفة. فقد حمل الخوaja عبد الصبور بن أبى الفتح العجمى من ناحية الأخضرين بالوجه القبلى إلى ساحل بولاق ومصر القديمة على ظهر مركبه العشارى ٤١ حملا من الفحم المحروق و ٢٨٧ قنطارا بالوزن القبلى من حطب السنط^(٢).

وتذكر سجلات المحاكم الشرعية العديد من النماذج التي تدل على العلاقات التجارية التي ربطت بين أهالى المدينتين من بيع وشراء أو استئجار أو حتى قروض. ففي عام ١٠٠٩هـ اقترض محمد بن يوسف بن خليل الوفاى القاطن بمصر القديمة مبلغا قدره (٤٠٠) نصف فضة من الحاج على بن أحمد بين عبيد الشهير بالدبش المتسبب فى الأرز ببولاق^(٣). وكان لسماسرة الغلال ببولاق تعاملات بشونة غلال مصر القديمة والعاملين بها. فقد إشتري يوسف بن حميده أحد رجالات الشونة المذكورة ٢٠٠ إردب من الفول الصعيدى من المعلم أحمد بن موسى عين أعيان سماسرة الغلال فى بولاق وقد تمت هذه الصفقة عام

(١) Nelly Hanna: An Urban History of Bulaq in The Mamluk and Ottoman Periods. Cairo, 1983. P7

(٢) محكمة بولاق: س ٢٤، م ١٩٦٣، ص ٥٣٥ لسنة ١٠٧٠هـ وكذلك نفس المحكمة: س ١٩، م ٢٣٠، ص ١١٠

(٣) محكمة بولاق: س ٢٢، م ١٤٠٥، ص ٣١٣

١٠٢٣هـ/١٦١٣م نظير مبلغ تسعة آلاف نصف فضة^(١). بل ذهبت العلاقة بينهما لأبعد من ذلك فقد عقدت العديد من المصاهرات بين أهالي المدينتين، وحملت أسماء بعض الحارات بمصر القديمة مسمى حارات، أخرى في بولاق نذكر منها على سبيل المثال حارة الدخامسة بقم الخليج وحارة الدخامسة ببولاق.

والجدير بالذكر أن كميات الملح الخاصة بتمليح الجلود بمصر القديمة كانت تخضع لإلتزام سقالة مقاطعة خضراء بولاق وشونة الملح السلطاني لبعض فترات القرن السابع عشر. فتذكر سجلات الدشت إنه في عام ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م توجه السيد الشريف جمال الدين يوسف العاملى الوكيل الشرعى عن المعلم يعقوب المهديى الملتزم بسقالة المقاطعة المذكورة. إلى خط حمام جمدار بمصر القديمة بعدما نما لعلمه أن جانب من الملح موضوع بحاصل داخل حارة الخواجا أبو سعيدة المغربى بالخط المذكور وكان مقداره نحو سبعة أرانب ولم يؤخذ عليه موجب لجهة الملتزم المذكور، ولكن ثبت للوكيل الشرعى إن هذه الكمية من الملح خالصة من جانب الموجب الجارى به العادة^(٢).

وبجانب بولاق ارتبطت مصر القديمة بعلاقات مختلفة مع باقى أحياء القاهرة العثمانية، فتؤكد الوثائق على وجود حالات بيع وشراء بين مصر القديمة وقناطر السباع وحى طولون والصاغة وغيرها . فيذكر أن الحطب كان ينقل من شون مصر القديمة على ظهور الجمال إلى حى طولون خلال القرن^(٣). وفى عام ١٠٥٨هـ اشترى منصور بن سليم الجزيرى التاجر بسوق الجملون من الحاج على بن كشك العداد بشونة مصر القديمة، حصة قدرها ثمانية أسهم شائع ذلك فى جميع المكانين الكائن أحدهما ببولاق والثانى خارجها برأس

(١) محكمة بولاق: س ٢٩، م ٦٤٧، ص ١٦٠، وعن التعاملات بين شونة الغلال بمصر القديمة وسمايرة الغلال ببولاق

انظر: محكمة قناطر السباع: س ١٣٤، م ٢، ص ١ توضح الصفقة التى تمت عام ١٠٦٧هـ

(٢) دشت ١٧٤ لسنة ١٠٦٥هـ، ص ٩١

(٣) محكمة طولون: س ٢٠١، م ٩٥، ص ٢٠٠

درب ابن كله بخط رملة العرب، وقدرت هذه الحصاة بـ ١٥٨ قرشا من الفضة الأبي كلب الكبير^(١).

وتعتمد باقى أحياء القاهرة على القمح الوارد من شونة الغلال بمصر القديمة أو بولاق الذى ينقل إليهم فى زكائب على ظهور الحمير والجمال أو البغال، وكذلك المصنوعات الفخارية لاسيما القلل التى يتم شغلها بغم الخليج [حارتا الكيزانية والدخامسة]. وكما ذكرنا فى بداية هذا الفصل، فقد امتلك العديد من تجار مصر القديمة عقارات وأماكن تجارية بالقاهرة المحروسة والعكس بالنسبة لتجار القاهرة، فوجدنا السيد عبد الفتاح أبو الأكرام الوفائى يمتلك مصبغة معدة لصبغ الحرير بخط قنطرة أق سنقر، وعدة أملاك أخرى بسويقة السباعين وحول الجامع الأزهر، ورأينا كيف كان له ولولديه محمد أبو الفضل وعبد الرزاق أبو العطا علاقات تجارية راسخة مع تجار القاهرة المحروسة.

التجارة الخارجية:

كان طبيعيا أن تكتمل أركان الزاوية، فالنشاط التجارى الذى شهدته المدينة على الصعيد الداخلى لا بد وأن يوافقه نشاطا آخر لا يقل عنه أهمية ألا وهو النشاط الخارجى. فمخطئ من كان يظن أن نهاية أحلام مصر القديمة تتبلور فقط حول علاقاتها مع صعيد مصر أو الوجه البحرى لتوفر ما يمكن توفيره للقاهرة التى تمثل مع بولاق منفذى العاصمة على النيل فقط. بل خرجت المدينة من عباءة تلك الدائرة لتساهم فى النشاط الخارجى الذى شهدته مصر العثمانية خلال القرن السابع عشر.

فموقع مصر الجغرافى مكنها من أن تلعب دور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب، وأن تتحكم فى تجارة الترانزيت (العبور) نظير المكوس الجمركى المفروض على هذه التجارة. كان ذلك وراء ثراء دولة المماليك فى مصر والشام، هذه الدولة التى تحكم فى تجارة البحار الشرقية الوافدة إلى مصر عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية واليمن والهند

(١) باب على: س ١٢٦، م ٢٩، ص ٨

حتى ظهر البرتغاليون بأسطولهم فى البحر الأحمر ووصل فاسكو داجاما إلى مداخل البحر لعرقله النشاط التجارى العربى فى المحيط الهندى منذ عام ١٥٠٢م وأسرى بعض البحارة العرب، وفرض الحصار البرتغالى على المياه الشرقية بقوة عام ١٥٠٦م خاصة بعد وصول البوكيرك^(١). بل وصل الأمر لحد مهاجمة البرتغاليين عدن ومخا وسواكن واستولوا على جزيرة كمران واشتد تهديدهم لجدة، فأرسل الغورى أسطولاً من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى الذى تمكن من طرد الأسطول البرتغالى حتى مشارف الهند فتبعه الكردى بعدما أرسل إليه الغورى حملة بحرية أخرى بقيادة سليمان الرئيس غير أنهما لم يحققا النجاح المطلوب^(٢). وجاء طريق رأس الرجاء الصالح وموقعة مرج دابق ليسطرا نهاية الدولة المملوكية فى مصر. وبعد ذلك استطاع الأسطول العثمانى بقيادة سنان باشا هزيمة الأسطول البرتغالى أمام شواطئ مصوع وبنوا القلاع وطردها البرتغاليين نهائياً من المنطقة منذ عام ١٥٥٧م واستقرت السيطرة العثمانية على طول شواطئ البحر الأحمر الإفريقية^(٣). وبذلك استطاع العثمانيون أن يعرقلوا حصار البرتغاليين للطرق القديمة. وحلت الأساطيل الإنجليزية والهولندية محل الأسطول البرتغالى فترة القرن السابع عشر.

وكان نجاح العثمانيين فى إحكام قبضتهم على تجارة البحر الأحمر ومدنه مع وجود المنافسة التجارية بين كل من الإنجليز والهولنديين وكذلك الفرنسيين واهتمام هذه القوى بتجارة مصر. كل ذلك كان له أثر فى إثراء ونشاط تجارة مصر فى المنطقة خلال الفترة موضع الدراسة.

والحقيقة أن هدفى من إلقاء الضوء حول تجارة البحر الأحمر عند معالجتى للتجارة الخارجية لمصر القديمة جاء ذلك مرهونا بطبيعة اتجاه المدينة وتجارته صوب تلك الأصقاع أكثر من غيرها. فلم تكن هناك علاقة تجارية صريحة بين المدينة ودول أوروبا رغم تبادل

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول من تاريخ مصر الإقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، ص ١٢٢

(٢) مصطفى على السيوفى: تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان الحكم العثمانى. رسالة ماجستير بآداب القاهرة عام ١٩٧٢، ص ٣٥

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، ص ١٠٠

العديد من السلع والبضائع بينهما، ولكن ذلك يتم من خلال وسيط كان فى معظم الأحيان هو ميناء بولاق النشط مع مدن الشمال أكثر من غيرها.

وقد تعددت الطرق التجارية بين مصر وبلدان البحر الأحمر وإفريقيا فتؤكد الوثائق وجود طريق تجارى صريح بين مصر القديمة وبلاد الحجاز حيث تدخل المراكب من بلاد الحجاز الشريف إلى السويس ومنه عبر الجمال إلى خط حمام جمدار مباشرة^(١). وهذا يعنى أن منطقة حمام جمدار كانت بمثابة محطة تجارية للمدينة. وغير خاف أن الجمال آنذاك كانت أهم وسيلة للنقل عبر دروب الصحراء، وأى رحلة تقصد السويس مثلا لابد من اصطحابها عددا لا بأس به من الجمال. فقد أقر الرحالة تفنو إنه تحرك من القاهرة صوب السويس ثم عاد فى موكب عدته ٢٠٠ جمل^(٢).

ونذكر وثيقة أخرى مؤرخة فى ١٧ شوال عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م وجود طريق برى خالص إلى الحجاز دون عبور البحر الأحمر. حيث تقطع قوافل الجمال من مصر المحروسة إلى مكة المشرفة عبر سيناء وجنوب فلسطين ثم جبل عرفات ومنى، وتعود أدراجها مرة أخرى من حيث أتت^(٣). إضافة إلى طريق النيل الذى يربط مصر القديمة مع بلدان إفريقيا. ومن خلال هذه الطرق انتقلت تجارتها الصادرة والواردة إلى عدة نواح مختلفة.

١. تجارة مصر القديمة مع الجزيرة العربية والقدس والهند:

ساعد الطريق التجارى بين مصر والحجاز على وجود علاقات تجارية بين البلدين، ولما كان الطريق طويلا وعبر الدروب الصحراوية الوعرة عمل حكام مصر على تأمينه وتوفير المياه اللازمة للقوافل المسافرة عن طريق إصلاح بعض عيون الماء. فقد قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بتنظيف بعضها فى الطريق بين مصر ومكة عام ٨٢٨هـ^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٠٨٤، ص ٤٠٠ لسنة ١٠٨٠هـ.

(٢) Thevenot Op. Cit. P308

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢١٠٨، ص ١٥٦٦ لسنة ١٠٨٩هـ.

(٤) عبد القادر بن محمد الجزيرى: درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المكرمة. مخطوط بدار الكتب

القومية. تاريخ رقم ١٥٧٠، ميكروفيلم ٣٥٧٤٩، ص ١٠٨

وكان ميناء الطور هو الميناء الرئيسى للحركة التجارية مع الجزيرة العربية حتى سنة ٩٥١هـ/١٥٤٣م عندما أصدر السلطان سليمان القانونى أوامره بنقل النشاط التجارى من الطور إلى السويس فى أعقاب مهاجمة إستيفان داجاما للطور فى إبريل ١٥٤١م^(١). ولكن لا يعنى ذلك إهمال الميناء كليا. فقد ذكر الرحالة أوفنجتون Ovington الذى زار ميناء الطور Toar عام ١٦٨٩م أن القوافل العائدة من مكة إلى مصر تأتى إليه للتزود بالماء^(٢). وعموما تؤكد الوثائق أن مدينة السويس هى المحطة الأساسية لتجارة العاصمة مع بلاد الحجاز، وأن ميناء السويس على البحر الأحمر يدار بواسطة القاهرة الكبرى التى تبعد عنه بنحو ٥٠ أو ٦٠ ميلا^(٣).

وقد قام تجار مصر القديمة بحمل الماء على ظهور الجمال إلى مكة المكرمة نظير مبلغ يدفعه هؤلاء التجار للجمالة. فقد دفع الحاج يوسف بن وفا الحطاب بخط فم الخليج لكل من منصور بن بطيحة وولده سلامة الجمال كلاهما بساحل مصر القديمة مبلغا قدره ستون قرشا عن حمل واحد ونصف حمل من الماء من مصر المحروسة إلى مكة المشرفة ذهابا وإيابا^(٤). بل أن بعض الجمالة بمصر القديمة يسافرون بجمالهم لصالح بعض التجار إلى مدن الحجاز لنقل البضائع نظير أجر معلوم. حيث سافر ياسين بن سعد الدين الدخيمسى بفم الخليج عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٧م مع الحاج عياد بن عمر الجيزى إلى بندر مكة وجدة لنقل بضائع له على ظهر جماله نظير ١٢ قرشا أجرة حمل ثلاث جمال فقط^(٥).

(١) الجيزى: المصدر السابق، ص ٤٤ — وقد زار الطور الرحالة Pitts (١٦٨٥م) وقال إنها مدينة صغيرة كانت بها بعض الإصلاحات، ومينائها الهام يمر عبره المسافرين، وتقل سيناء إلى الطور الكثير من الفاكهة خاصة المشمش المخزن فى صقلات، ويكون السفر عبر حافة الجبل الذى يبعد عن حافة البحر بنحو ٦ أو ٧ أميال. انظر: Joseph Pitts: Voyage de 1685 AÉTÉ imprime en 1981 Francais. P142

(٢) John Ovington: Voyage de 1689 — AÉTÉ imprime en 1981 Francais. P154

(٣) Ovington: p157

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١١٠٠، ص ٤٠٩ لسنة ١٠٨٠هـ

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٤٩٧، ص ١٩٨

وكانت الغلال هي أهم صادرات مصر القديمة إلى الحجاز خارجا ذلك عن غلال
الحرمين الشريفين التي أشرنا إليها في موضع سابق إضافة إلى بعض السلع الأخرى مثل
البقسماط والحلبة والجبن إلخ. يتضح ذلك من الإرساليات التي يرسلها تجار المدينة إلى
الحجاز. فهناك وثيقة هامة مؤرخة في ٩ ربيع أول ١٠٨١هـ بمحكمة مصر القديمة توضح
الشحنة المحزومة من مصر القديمة لبندر السويس ومنه إلى بندر جدة هذه الشحنة الجارية في
تعلق الأستاذ الأعظم عبد الرازق أبو العطا بن وفا من كبار تجار مصر القديمة - سبق
التعرف به - خلال القرن السابع عشر. والجدول التالي يوضح هذه الشحنة وتفاصيلها.

السلعة	الكمية	وحدة الشحن	وحدة الوزن
قمح	٢٢	حمل	إردب
فول	٩٦,٢٥	حمل	إردب
بقسماط	٣ وثلاث	حمل	قنطار
زيت مبارك	١٠	زلع-عنها ٦ وثلاثي حمل	قدرة
أرز	١٢	حمل	إردب
جبن	٥	زلع-عنها ٣ وثلاث حمل.	بط(*)
عدس	٥	حمل	إردب
أقفاص	٨	عنها- ٥ وثلاث حمل	-
كشك	٢	حمل	-
حمص	١,٥	حمل	إردب
فريك	٢	حمل	إردب
دقيق	٢٥	حمل	بطة
سمن - عسل - طحينة	١٠	مراود عنها ٦ وثلاثي حمل	قنطار
زيت وزيتون وخل	١٣	زلعة عنها ٨ وثلاثي حمل	قدرة - خل - جرة
حلبة	١	حمل	-

وقد قدرت الكميات السابقة بنحو ١٦٧٨٠ نصف فضة^(١). أما واردات مصر القديمة من الحجاز فيأتى على رأسها البن اليمنى إضافة إلى بضائع يمنية أخرى. ففي عام ١٠٨٠هـ نقل على بن جعفر الفيومي السواق بمركب الحاج سليمان الشاطبي من بلاد الحجاز إلى السويس ومنها إلى خط حمام جمدار نحو أربعة قناطير بن أخضر قلب مغربل بالوزن المعتاد

(*) بطط: مفردا بطة وهى وعاء من الجلد كالقربة وقال الجبرتي فى تعريفها " وهى الظروف المصنوعة من الجلود

التي تسمى بطط. انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتي من الدخيل ص ص ٤٠، ٤١

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٩٦، ص ص ٥٣، ٥٤

لصالح الحاج محمد بن ناصر التراس بشونة غلال مصر القديمة^(١). وقد قيل إن انسحاب العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥م أدى إلى تراجع السفن التجارية المصرية عن اجتياز جدة ولم تعد هناك ثمة رحلات تجارية على ظهور السفن من السويس إلى جدة مباشرة^(٢). ويرجع تأخر السفن المصرية إلى سيطرة تجار جزيرة سورات Surat الهندية على الملاحة في هذه المنطقة بل وصل بهم الأمر إلى محاولة الوصول إلى السويس نفسها. ولكن في حقيقة الأمر أن ما تردد من عدم وصول السفن من السويس إلى جدة بعد عام ١٦٣٥م -وهو قول تراجع الوثائق التي تثبت أن تجار القاهرة ومصر القديمة قد وصلوا بسفنهم من السويس إلى ميناء جدة بعد هذا التاريخ.

ففي عام ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م توجهت مركب النبطي التي تحمل كميات من الفول ملك الحاج على بن نجيم التراس بعنبر مصر القديمة إلى بندر جدة المعمور بالحجاز الشريف^(٣). بل وأبعد من ذلك فقد حمل الحاج أحمد بن أحمد الحلقى شيخ طائفة المعاصرية بمصر عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٣م ما جملته نحو ٦٠٠ قلة من الزيت الحار المبارك المستخرج من بذر الكتان و ٢٠٠ إردب أرز أبيض مكتال بالكيل المصري كل ذلك على ظهر مركبه من بندر السويس إلى بندر جدة، وعليه أن يبيع هذه السلع ويشتري بثمنها بن قلب يمنى سالم من العيوب وأن "يحملة بالمراكب من بندر جدة إلى السويس ثم إلى مصر المحروسة وبينهما - حيث كان له شريك يدعى الخواجا محمد بن الخواجا أحمد الشهير بالخطيب - الله تعالى بالربح في ذلك يكون محسوباً بينهما نصفين بعد المصاريف اللازمة"^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١٠٨٤، ص ٤٠٠، ٤٠١ - انظر: ملحق رقم (٧) الخاص بتجارة البن بين مصر القديمة والحجاز من خلال مدينة السويس.

(٢) Michel Tuchscherer. La Flotte Imperiale De Suez 1694-1715. Turcica. 20 - 1997 pp47-59. France p48

وكذلك انظر: حسام محمد عبد المعطى: المرجع السابق، ص ١٥٢، ١٥٣

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٦، ص ٧

(٤) محكمة الزاهد: س ٦٨١، م ٢١٨، ص ٨٨ أعوام ١٠٩٢-١٠٩٧هـ

وقد وصلت البضائع الهندية إلى مصر القديمة عن طريق المدن اليمنية والبحر الأحمر منذ وقت مبكر عندما خضعت اليمن لحكم العثمانيين، وأصبح الباشا اليمنى يجلس على الحكم تحت سلطة العثمانيين نظير دفع الجزية السنوية^(١). وقد لاحظ بعض الرحالة الذين زاروا مصر خلال القرن نعى Edward Brown في فترة (١٦٧٣-١٦٧٤) هذه العلاقة التجارية التي جمعت بين مصر والهند، وكثرت البضائع المتبادلة بينهما، وأن نظام التعامل بينهما قام في بعض الأحيان بطريقة المقايضة بدلا من النقود^(٢).

وتثبت الوثائق وجود علاقة بين مصر القديمة ومدينة القدس الشريفة، فقد عزم الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا في عام ١٠٩١ هـ الذهاب إلى القدس، وقد احتاج لرحلته هذه جماعة لخدمته وحراسته نظير مبلغ من المال. فأصطحب معه نحو ١٦ شخصا منهم القرايين والسقاين بمبلغ ١٦٨٠ نصف فضة ذهابا فقط^(٣). والوثيقة لا تحدد هدف الشيخ عبد الرازق من رحلته، ولكن يبدو لنا منذ الوهلة الأولى أن غرضها هو التجارة وذلك لإصطحابه هؤلاء الأنفار بغرض الخدمة والحراسة.

٢. تجارة مصر القديمة مع بلدان إفريقية:

بجانب طريق البحر الأحمر ومدنه مثل جدة وينبع والسويس والدور الذي لعبه في تجارة مصر القديمة مع بلدان الجزيرة العربية، وجد طريق آخر لا يقل عنه أهمية نعى طريق وادى النيل ذلك الشريان الملاحي الخطير الذي راجت من خلاله تجارة مصر مع بلدان القارة السمراء أو حتى إشتراكه مع البحر الأحمر عندما ترسو السفن عند ميناء القصير

(١) Abdel Hamid El-Batrik: Egyption – Yemeni Reletion (1819-1840) and Their Implications For British Policy in The Red Sea. P281

والجدير بالذكر أن مصر خلال العصر العثماني كانت ترسل المحكوم عليهم بالنفى إلى اليمن في بعض فترات القرن السابع عشر.

(٢) Edward, Brown: Le Voyage en Egypte (1673-1674), Co: 28. Ch:5 – 15872 en 1974, Caire p146

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٤١٠، ص ١٦٧١

وتنتقل الجمال البضائع عبر الصحراء الشرقية حتى قفط على النيل ومنها تحملها المراكب النيلية إلى العاصمة.

فكانت المراكب تسير في النيل حتى بلاد السودان لجلب العاج والأبنوس وريش النعام والعبيد والقماش من سنار وكردفان ودارفور والتكرور. فهناك وثيقة بتاريخ ١٠٣١هـ/١٦٢١م تسجل قدوم قافلة التكرور للديار المصرية، وقد قام الديوان العالي بتأمين القافلة حيث برز أمر شريف بخصوص تجار القافلة السودانيين فيقول " بأن لهم مزيد الرعاية ومزيد العناية وعدم المعارضة لفرد منهم وأن يكون عليهم أمان الله وأن من مات من التجار عن ورثة شرعية فترسل لهم خلفاته إلى بلاد السودان أو على يد وجية أو وكيل ورثته أو على يد شيخ القافلة فليكن التجار مطمئنين الخاطر بسبب ذلك "(١).

ويذكر جيران أن سوق مدينة إسنا يعتبر مستودع لبعض البضائع الواردة من قوافل سنار ودارفور وكردفان^(٢). وكانت دارفور Darfur تمثل قوافل السودان الرئيسية في مجال التبادل التجاري مع مصر القديمة، وكانت الرحلة تبدأ - كما يروى عبد الرحيم عبد الرحمن من كوبي Kobbei العاصمة التجارية لدارفور حتى تصل إلى ميناء مصر القديمة بعد دفع الرسوم الجمركية التي يقدرها رجال الجمر ك حسب نوع السلعة^(٣). فمثلا الجمل المحمل بالصمغ عليه ٩٠٠ مدينى، أما الآخر المحمل بريش النعام فيدفع ١٩٨٠ مدينى^(٤).

على أية حال رغم كثرة البضائع والسلع القادمة من إفريقيا لمصر القديمة من عاج وأقمشة سودانية وحبشية وريش نعام وسن الفيل وغيرها، إلا أن العبيد قد مثلوا أعظم البضائع المطلوبة للمدينة من قلب القارة السمراء خاصة من بلاد الحبشة والسودان لاسيما بلاد العبد الواقعة داخل ناحية كردفان^(٥). وقد تصارع أمراء مصر القديمة على اقتناء هؤلاء

(١) دشت ١٤٢ لسنة ١٠٣١هـ، ص ٧٤

(٢) جيران: وصف مصر: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في ق ١٨، ترجمة زهير الشايب، ج ٤، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٢٤٦ وأيضاً: إستيف: وصف مصر، ج ٥، ص ١٦٤

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن: فصول من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي في مصر في العصر العثماني، ص ٢٣٥

(٤) إستيف: المصدر السابق، ص ١٦٤

(٥) دشت ١٥٠ لسنة ١٠٤٢هـ، ص ٦٤٧

العبيد السود بجانب نظرائهم من الرقيق البيض المجلوب من الشمال فقد امتلك الأمير يوسف جوربجي المتحدث على المطبخ السلطاني - سبق التعرف به - العديد من الأرقاء السود والبيض على حد سواء، وتسجل الوثائق أنه قام بعرق العديد منهم^(١). كذلك امتلك الأمير سليمان زعيم مصر القديمة في النصف الثاني من القرن العديد منهم. وقد لاحظنا أن بعض هؤلاء العبيد بعد عتقه قد وصل إلى مكانة مرموقة داخل مجتمع مصر القديمة بما حققه من تجارة و ثراء مثل الزيني مرجان بن عبد الله معتوق الأمير يوسف جوربجي^(٢).

والحقيقة أنه من خلال استقراءنا للأحداث في ضوء وثائق ومصادر القرن لاحظنا أن حجم تجارة مصر القديمة مع بلاد العرب في محيط عالم البحر الأحمر أعظم من تجارتها مع بلدان إفريقيا رغم المخاطر التي اكتتفتها تجارة البحر الأحمر بعد ظهور البرتغاليين في المياه الجنوبية الشرقية. وإذا جاز لنا أن نضع تقييم للصادر والوارد مع كلا الإقليمين نجد أن الغلال هي أهم صادرات مصر القديمة إلى بلاد العرب أما الواردات فيأتي على رأسها البن اليمني. وبلدان إفريقيا نجد العبيد هم أهم مغزى تغزو به القارة أسواق مصر القديمة ولكن حجم الصادرات ضئيل يتمثل في الأقمشة الحريرية أحيانا وبعض الأسلحة المصنعة بمعمل البارود بروضة مصر القديمة.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٨٩٧، ص ٢٨٢. وغيرها من الوثائق العديدة

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٥٢٣، ص ٥٨٢، وكذلك نفس السجل، م ١٨٧٠، ص ٧٠٦، والمزيد عن العبيد بمصر القديمة انظر: الفصل الإجتماعي من دراستنا.

الفصل الخامس

الحياة الإجتماعية والصحية

الحياة الاجتماعية والصحية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع المصرى فى العهد العثمانى وما قبله يتكون من قوى فوقية وأخرى تحتية أو بعبارة أكثر دقة أقلية مسيطرة تتألف من الأتراك العثمانيين وبكوات المماليك الذين ازدادوا مع مرور الأيام. وأغلبية تتألف من عامة الشعب المصرى والطبقات الكادحة التى تتصارع من أجل البقاء مع وجود عناصر أخرى دخيلة على المجتمع وفدت بغرض التجارة أو بغرض هجرة استهوتها الحياة فى مصر فمكثت بها وشكلت بمرور الأيام لبنة فى بنيان المجتمع.

ومصر القديمة بوصفها جزء من هذا المجتمع أصبح محيط المجتمع داخلها يتكون من هذه اللبنة. فساكن المدينة خلال القرن السابع عشر كانوا عدة أخلاط حاولنا فى ضوء ما هو متاح بين أيدينا من مادة أن نقرب من وضع إحصاء بصفة تقديرية لهؤلاء السكان فرجال الحملة الفرنسية يقدرون تعدادهم بنحو ١٠ إلى ١١ ألف نسمة من بينهم ٦٠٠ شخص مسيحي^(١). وهو بالطبع إحصاء متأخر عن فترة الدراسة. وعندما نقرب من مصادر معاصرة لتلك الفترة مثل نتزو مثلاً نجده يقرر أن مصر القديمة مدينة شعبية مزدهمة بالسكان وشوارعها مكتظة بهم حتى أنه عندما أبصرها من مكان مرتفع وصفها "بوكر النمل"، ورغم ذلك لم يضع رقماً لعدد سكانها ولكنه أشار إلى أمرٍ لفت أنظارنا وهو أنه عندما حدث بها طاعون قد مات ما بين ١٢-١٤ ألف شخص فى الحال^(٢). ولكن هذا الرقم بالطبع مبالغ فيه بالنسبة لمدينة مثل مصر القديمة التى هجرها العديد من سكانها للإقامة فى القاهرة. وأيضاً من الصعب أن نقبل هذا خاصة بعد تعداد علماء الحملة، فهل من المعقول أن يقل

(١) دى شابرول: المصدر السابق، ص ١١، وكذلك جومار: المصدر السابق، ص ٣٣٢

(٢) Neitzschitz, Op. Cit, P223

عدد سكانها بهذه الدرجة فى فترة ما قرره نتزو ؟ وما أعلنه رجال الحملة !! وإذا قبلنا بهذا على حد الافتراض، فهذا يعنى وقوع عدد ضخم من الطواعين والمجاعات التى عصفت بمعظم سكان المدينة وتوقف الحركة والنشاط بها وهو أمر يتنافى مع ما ذكرناه فى فصول سابقة من وجود رواج تجارى ونشاط صناعى بالمدينة آنذاك. ناهيك عن أعداد المنازل المأهولة بالسكان وكذا الربع التى يقر البعض بأن تواجدهما دليلاً على تواجد سكانى ملحوظ^(١).

لذلك فأى محاولة من جانبنا لوضع إحصاء لعدد سكان مصر القديمة خلال القرن السابع عشر لهى محاولة تكتنفها الصعوبات التى تقلل من مصداقية تقديرنا. فسواء كان تعداد سكانها عشرة آلاف أو أربعة عشر ألف أو يزيدون لهى أرقام نعتقد أنها تقترب للواقع الحيوى للمدينة آنذاك. خاصة أنها منذ أن عمرت لم يفترض لها نوع معين أو فئة بعينها من السكان، وهذا ما صرح به أحمد بن سعد الدين العثمانى فى ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م من حيث سكنى الغنى والفقير بها دون نقص^(٢). وهو أمر قد شجع الكثيرون للوفود إليها بهدف السكنى والإستقرار. وتوافرت لها العديد من عناصر السكان خلال القرن من أتراك Turcs ومماليك ومغاربة Moures ويهود juifs وأقباط Coptes ويونانيين Grecs وأرمن Arméniens إضافة إلى عامة الشعب المصرى. هذا ما أعلنه ساندى Sandys وغيره^(٣).

(١) عن الرباع وسكانها انظر: محمد عفيفى: الرباع فى العصر العثمانى. مقال بمجلة المعهد الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٩٩، ص ١١٦

(٢) أحمد بن سعد الدين العثمانى: ذخيرة الأعلام بتاريخ الخلفاء الأعلام وأمراء مصر الحكام وقضاة قضائهم فى الأحكام من فتحها الإسلامى إلى زمن الناظم. مخطوط بدار الكتب، تاريخ ١٠٤، ميكروفيلم ٥١١١

(٣) Sandys: Voyage de 1611, p138

فئات السكان:

١. الأتراك والمماليك:

شكل كل من الأتراك العثمانيين والمماليك القوة السياسية الحاكمة في مصر، فكان منهم الباشا العثماني وهو وكيل السلطان ورئيس الهيئة الإدارية ويعاونه بعض الموظفين ورجال الحامية العثمانية. والمماليك لا يقلون عنهم، بل إن سليم الأول بعد إتمام فتح مصر عين عليها الوالي المملوكي خاير بك. ويطلق على المماليك مسمى الصناجق وعددهم ٢٤ صنجقاً. لذلك تحكم هؤلاء في سير الأمور في مصر العثمانية، بل وفي مدينة مصر القديمة على وجه الخصوص، فكما رأينا في النظام الإداري مدى السلطات الواسعة لكل من أمير اللوا والقاضي (الحاكم الشرعي) بمحكمة مصر القديمة والصوباشي وغيرهم. وكان من بين هؤلاء ما هو أمير عثماني وأمير مملوكي فمثلاً الأمير قاسم من طائفة الجراكسة بمصر المحروسة وزعيم مصر القديمة عام ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م^(١). نجده عندما يمارس مهما وظيفته يصطحب معه بعض معاونيه من أبناء جلدته مثل الأمير يوسف بن حسين جاويش والأمير حسين بن حسن من طائفة الجراكسة. وهناك العديد منهم ممن كان يقطن بالمدينة وذاع صيته خلال القرن مثل الأمير يوسف جوربجي طائفة عزبان والأمير بهرام جوربجي طائفة مستحفظان وقد سبق وأن تعرفنا على هؤلاء بالتفصيل.

والحقيقة أن هؤلاء الأمراء لم يكونوا متسلطين على طول الخط بل ظهر منهم الكثيرون من أصحاب الخير الذين أعتقوا الكثير من العبيد وساروا بين الناس بالعدل. بل وصل الأمر أن بعضهم قد تزوج بالفعل من الأرقاء بعد عتقهم على صداق كبير. فقد تزوج الأمير بهرام شربجي بن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة في ٢٠ ذي الحجة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م من صالحة بنت عبد الله البيضاء اللون الجرجية الجنس على صداق قدره ٤٥ قرشاً^(٢). والأمثلة على ذلك كثيرة. وهو أمر بالطبع يؤدي إلى إذابة الفوارق بعض الشيء

(١) محكمة الباب العالي: س ١٢٥، م ١٠٢، ص ٣٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٧٣٢، ص ٦٣٨

بين طبقات المجتمع بالمدينة ويعطى نتائج خطيرة لو استمر على ذلك قد يؤدي إلى إحداث تغيير فى الهرم الاجتماعى للمدينة، ولكن فى الحقيقة أن هذا الأمر لم نشعر به إلا بعض الشيء عند دراسة العبيد كما سنرى، ومدى بزوغ نجم بعضهم بعد العتق ولكن على نطاق ضيق أيضاً.

٢. الأشراف:

هم الذين ينتمون إلى الحسن والحسين والسادات التى كان هناك طائفتان منهم (طائفة السادات الوفاية - السادات البكرية). ورأينا كيف انتشرت السادات الوفاية بمصر القديمة خلال القرن ولمعت منهم أسماء عديدة مثل عبد الفتاح أبو الأكرام ونجليه محمد أبو الفضل وعبد الرازق أبو العطا^(١). وغيرهم ممن استقروا بالمدينة وتزوجوا بها. ففى ١٠ ذى الحجة ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م تزوج السيد الشريف سليمان بن السيد الشريف محمد بمصر القديمة من صالحة بنت حسين القهوجى على صداق ٢٠ قرشاً^(٢). وكان بعضهم يحرص على اقتناء السيوف الذهبية وكذلك الخناجر وغيرها وهو الأمر الذى استهوى الشريف محمود بن الشريف رجب الحسينى الذى اشترى من الأمير سليمان بن محمد جاويش - صوباشى مصر عام ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م - سيفين مطعمين بالفضة ومطلين بالذهب ورخت من الفضة وكذلك خنجر من الفضة مطلق بالذهب وأشياء أخرى ثمينة نظير ٣٠٠٠ نصف فضة^(٣). ويروى أن بعض هؤلاء الأشراف كانوا يرتدون الزى الأخضر مما يميزهم عن غيرهم من باقى الطبقات^(٤).

(١) راجع: الفصل الرابع

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٠٧٨، ص ٤١٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦٠٧، ص ٢٣١، ٢٣٢

(٤) Henry Costele: Voyage de "1600-1601" p150

٣. أهل البلاد:

نقصد بهم المصريين ممن سكنوا المدينة من تجار وصناع وحرفيين وسقايين ومكاريين وغيرهم. وهؤلاء هم اللبنة الأساسية في عماد مجتمع المدينة خلال القرن، فكان التجار الذين يجوبون البلاد طولا وعرضا قد أثروا في الحركة التجارية لمصر القديمة، فقد كان منهم تجار مستقلون بذاتهم يعملون لحسابهم الشخصي داخل أسواق المدينة سواء سوق حمام جمدار أو فم الخليج أو دار النحاس أو أسواق خارجية أو يعملون كتجار مراكب لنقل الغلال لصالح السلطنة الشريفة أو لأشخاص نظير أجر معلوم.

أما الصناع فقد رأينا في الفصل الثالث من دراستنا هذه كيف توافر للمدينة العديد من الصناعات التي أشرف عليها صناع مهرة مثل صناعة القل في فم الخليج ووجود معلمين بها مثل محمد البديوى ومحمد النقيطى وشكر الزبدانى وغيرهم، وصناعة الزيوت والقائمين عليها من الزياتين والمعصرانية والمدوليين وصناعة ملح البارود ونجارة المراكب والحيافة والصباغة والصناعات الغذائية بجميع أنواعها.

أما جماعة السقايين فقد انتشروا بمصر القديمة ولعبوا دورا خطيرا خاصة أثناء ظهور المجاعات، فقد وقع عليهم عبء كبير من توفير المياه أثناء الأزمات. ويذكر ريمون أن هؤلاء كانوا ينقلون الماء في "قراب"، "سقا القرية" على ظهورهم أحيانا أو على ظهور الجمال أو الحمير أحيانا أخرى^(١). ولاحظ ريمون أيضا أنهم بوسعهم نقل الأخبار لطبيعة عملهم، ومساهماتهم في إطفاء الحرائق التي اندلعت في بعض الأوقات بمصر القديمة نذكر حريق قد وقع يوم ٩ جمادى الثاني ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م في منزل المعلم محمد بن على البوشى القللى بفم الخليج حينما أشعلت النار في البوص والحفاة الملاصقين لمنزله^(٢). ويقوم هؤلاء السقايون أيضا بصب الماء داخل الأسبلة التي انتشرت بمصر القديمة خلال القرن نظير أجر معلوم أيضا، فمثلا قدر أجر السقا الذى كان يسكب الماء في السبيل الذى يقع

(١) أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٩٨

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٤٥٣، ص ١٦٦

خارج خارجة الوكالة الكائنة بالكفر المستجد بظهر حمام جمدار بمصر القديمة لمدة سنة ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م عنها خمسة قروش ونصف وثلاث قرش^(١).

أما جماعة الحمارية فقد انتشروا في أنحاء متفرقة من المدينة نظراً لأن الحمير آنذاك كانت وسيلة النقل الأساسية داخل البلاد وكان لهم شيخ يرعى شئونهم وموقف خاص بهم (موقف الحمارية) فتذكر الوثائق تركيز جماعة منهم بدار النحاس وعلى رأسهم أحمد بن خليل وصالح بن قميحة من كبار الحمارين بدار النحاس في منتصف القرن السابع عشر^(٢). حتى الطوائف المتننية مثل الشحاذين قد انتظموا أيضاً في طائفة لها شكل داخل مصر القديمة يرعى شئونها " شيخ طائفة الشحاذين ونقيبهم "^(٣).

كل هذه الفئات قد تشكل منها المصريون، وقد تعايشوا معاً فترات ونام أحياناً وفترات اضطراب أحياناً أخرى مما قد يصعد الأمور إلى القاضى الذى يصدر الحكم بالفصل فى مثل هذه الأمور التى تهدد أمن المدينة. فتذكر الوثائق وجود حارة تعرف " بحارة المعلم يحيى بن سلطان " بالكفر المستجد بظهر حمام جمدار، عاش أهل هذه الحارة فى وئام واستقرار إلا أن امرأة من جملة القاطنين بالحارة المذكورة تدعى آمنة بنت فليفل الشللى زوجة عوض الحلياك تعتدى على سكان الحارة بالسب والقذف والأذية وتهدهم بإحضار اللصوص، لذلك رفع أهل الحارة الشكوى للقاضى بهدف إخراجها من الحارة حتى يعود إليها الهدوء مرة أخرى^(٤).

٤. أهل الذمة:

كان أهل الذمة من النصارى واليهود يمثلان شريحة هامة من شرائح المجتمع فى مصر القديمة. ولما فتح العرب مصر وبمرور الزمن نتيجة لمعرفة النصارى أصول الإدارة الداخلية فى البلاد اعتمد عليهم العرب والأتراك بعد ذلك. وقد عمل هؤلاء فى التجارة

(١) نفسه: ٤: م ١٠٧٤، ص ٩٧٤

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٢، م ١٤٩٣، ص ٥٧٤

(٣) محكمة مصر القديمة: م ١٠٠، م ٤٣٦، ص ٢١٥

(٤) محكمة مصر القديمة: م ١٠٤، م ٢٤٦٥، ص ١٦٩٠

والأعمال المالية وبخاصة الصيرفة وأعمالها التى أجادها اليهود إضافة إلى عمليات الإقراض.

وقد انتشر النصارى بمصر القديمة خاصة فى منطقة قصر الشمع والتى سميت بإسمهم نعى (حارة النصارى بقصر الشمع) وجاء تركزهم هنا منذ القدم حيث تركزت معظم مقدساتهم بها. وقد وجدت أكثر من طائفة، فهناك اليعاقبة والمالكية والأروام. وإن كانت طائفة النصارى اليعاقبة أكثرهم عدداً وعدة.

فتذكر الوثائق العديد من بيوت النصارى اليعاقبة ولدينا الأمثلة العديدة على مثل هذه البيوت، فجاد الله بن عسلى وبقت بن منصور من بيت الصيرفى وعبد المسيح بن حنين الفشنى ومرزوق بن صليب من بيت الحدايدة والقسيس داود بن عطية من بيت حسن والمعلم قزمان بن جرجس من بيت حديد والمعلم كتكوت بن القسيس نصر الله وجرجس بن غبريال من بيت نصير الذمى اليعقوبى^(١).

وقد حرص هؤلاء اليعاقبة على ضرورة تعمير حارتهم كما رأينا وكذلك مقدساتهم الدينية حتى لو جاء ذلك على حساب المقدسات الإسلامية وهو أمر قد عالجناه فى موضع سابق. ولا يعنى ذلك وجود سوء تفاهم مستمر بين المسلمين والنصارى بالمنطقة فهناك المئات من الوثائق بين أيدينا تثبت جدية التعامل بين طرفى المجتمع هنا فعلى سبيل المثال لا الحصر. اقترض المعلم سليمان بن إبراهيم البياض عشرة قروش قبل عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م من المعلم شكيدرا بن المعلم إيلية النصرانى اليعقوبى^(٢). بل ذهب الأمر لأبعد من ذلك فقد جمعت التجارة كلاً من الشيخ عثمان بن أبى السعود أشهر خطباء جامع عمرو بن العاص آنذاك والمعلم يونس النصرانى اليعقوبى فتذكر بعض الوثائق المؤرخة فى ١٥ جمادى الأولى ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م أنهم قاما بإستئجار طاحون فرد فارسى بحمام جمدار من إبراهيم أفندى كشاف الأوقاف وقتئذ وناظر وقف القاضى حسن السويدى لمدة سنة كاملة

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٢٣، ص ٩

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٣٣٢، ص ٣٣٢

نظير أجرة عن كل يوم ثلاثة أنصاف من الفضة^(١). وهناك الأمثلة العديدة كما قلنا لا تعد ولا تحصى. وأحياناً كانت تنتظر قضايا هؤلاء النصارى أمام قاضى مصر القديمة المسلم سواء كان حنفياً أو مالكيّاً أو حنبليّاً أو شافعيّاً^(٢).

وكان يتولى شئون كل طائفة من طوائف النصارى بترك خاص بها مثل " بترك النصارى اليعاقبة ". وكذلك النصارى المالكية والدير الخاص بهم بقصر الجمع. أما طائفة النصارى الأروام فقد نالوا الاهتمام من قبل الإدارة العثمانية التى أصدرت العديد من البيورلدات من أجل منحهم العديد من الحقوق والمميزات. فقد ورد بيورلدى شريف فى ١٤ ذى القعدة ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م من الباشا مضمونه " بحث قاضى عسكر مصر ونائب مصر العتيقة وقضاة بولاق والإسكندرية ورشيد ودمياط وأغاوات الجوالى وكواخى القبطانات وغيرهم ... أن طائفة النصارى الأروام لهم أربع كنائس وبيمارستان وإنهم ليس لديهم أوقاف ولا كنائس مثل كنائس الروم وإنما يعيش بطريقهم بالصدقات، وقد أبرزوا من يدهم خط حمايون.... بأنهم لا يعارضوا بشئ من التكاليف العرفية وبموجب الخط الشريف أعطيناهم هذا البيورلدى بأنكم لا تعارضوهم بشئ ولا تدعوا أحد يعارضهم....." ^(٣).

ثم صدر بيورلدى آخر بعد ذلك بثلاث سنوات فى ٢٢ ذى الحجة ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٤م من الوزير عمر باشا بناء على أوامر سلطانية قد وجهت له من القسطنطينية، فجاء هذا البيورلدى على نفس شاكلة سابقة بعدم التعرض للنصارى الأروام وأديرتهم والبيمارستان الخاص بهم بمصر القديمة^(٤).

وهكذا شكل النصارى بجميع طوائفهم ركناً هاماً فى مجتمع مصر القديمة خلال القرن هذا الحكم الذى أطلقناه نابعاً ليس من تعرضنا لهم فى هذا الموضع فحسب، بل فى عدة

(١) نفس: م ٣٧١، ص ٣١٨

(٢) نفس: م ٦٣، ص ٢٦

(٣) محكمة مصر القديمة: م ١٠٢، م ٩٨٤، ص ٣٩١

(٤) محكمة مصر القديمة: م ١٠٢، م ١٨٤٧، ص ٦٩٨

أما اليهود فكانوا معنيين بأمر الجمارك، ففي فترات عديدة من القرن - كما رأينا في موضع سابق - كان يدير جمرك مصر القديمة ملتزم يهودى يعاونه عدد من الكتبة والمباشرين والكشاف. ولكن في الحقيقة أن انتشارهم في مصر القديمة جاء محدوداً لا يتعدى منطقة حمام جمدار. وهو أمر يكاد يكون طبيعى لوجود تركيز يهودى قرب حارة زويلة نعى حارة اليهود والتي تمثل - كما يرى محمد عفيفي - جزءاً من حارة زويلة^(١).

فظهر اليهود على مسرح أحداث المدينة قليل للغاية، فمن هؤلاء الذمي يعقوب بن أليا اليهودي الاشدايلي كان يقطن بمنزل خاص به بحمام جمدار مع زوجته الذمية حطوة بنت الذمي سليمان اليهودي الاشدايلي، وكانت زوجته هذه مثيرة للشغب دائماً ما تخرج من منزلها دون إذن زوجها وتتغيب الأيام الطوال عن منزلها الكائن بحمام جمدار دون سبب قاطع الأمر الذي دفع زوجها المدعو يعقوب أن يشكوها للقاضي الحنفى بمصر القديمة عام ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م^(٢). وفي العام التالي ادعت على جارة لها تدعى الذمية مزار بنت الذمي خنفار اليهودي العبراني بأنها سرقت منها أساور فضة قيمتها أربعة قروش ودمستين من النحاس قيمتهما ثمانية قروش، ولكن ثبت عدم جدوى دعوتها وكذبها لذلك منعها الحنفى من استخدام مثل هذه التصرفات^(٣).

وقد سجل الشافعي بمحكمة مصر القديمة يوم ٨ شوال ١٠٥٣هـ — ١٦٤٣م إسلام شخص يهودي يدعى موسى بن شحادة بناء على رغبته، وقام بنطق الشهادتين ووعد بتعلم

(¹¹) محمد عفيفي: الخطط والحياة الاقتصادية في حارة اليهود بالقاهرة. مجلة المؤرخ المصري، العدد العاشر. يناير

٢٩، ص ١٩٩٣

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٠٨٠، ص ٩٧٦

(٢) نفس: ١٣٧٢، ص ١٠٩٣

بعض القرآن الكريم بما يعينه على الصلوات الخمس، ولكنه رغب فى أن يبقى اسمه موسى، وتزوج من خاسكة بنت محمد القاطنة قرب مصبغة الحرير بخط الشعرواى^(١).

٥. الرقيق:

كثّر العبيد بمصر القديمة سواء الرقيق الأبيض المجلوب من بلاد كردستان وجورجيا وغيرهما من بلدان أوربا، ووجد بها الرقيق الأسود من كردفان ودارفور وغيرهما من بلدان إفريقيا فكان المماليك والعثمانيين يشترونهم ليكونوا الساعد الأيمن لهم فى حلهم وترحالهم، والنساء كن يعملن فى بيوت الأمراء كخدم حتى يحل بهن العتق. ومن أشهر الأمراء بمصر القديمة ممن امتلكوا العبيد الأمير يوسف جوربجى طائفة عزبان سواء من الجنسين أو رقيق أبيض أو أسود.

وعندما يتم إحضار العبيد إلى الوكائل الخاصة بهم مثل وكالة الجلاية يتم الفحص والتقليب قبل الشراء للتأكد من خلوهم من الأمراض أو وجود عيب خلقى. أما بالنسبة للإماء فتقوم سيدة بالكشف على بكارتها أو أى عيوب أخرى^(٢). واستمرت عملية شراء الرقيق بالمدينة خلال القرن ففى ١٠٩١هـ/١٦٨١م اشترى شلبى بن سلامة البرمشاوى القهوجى بحمام جمدار من المعلم عامر بن سلطان الكومى المعروف بباب الرسالة السلطانية ويقطن أيضاً بمصر القديمة الجارية المدعوة مريم بنت عبد الله الحبشية الجنس نظير سبعون قرشاً^(٣). وقد لاحظنا ارتفاع أسعار العبيد بمرور الوقت خلال القرن، فإذا نظرنا إلى ثمن الجارية مريم المذكورة نجد أن ثمنها قد وصل إلى سبعين قرشاً عام ١٠٩١هـ وفى نفس الوقت تثبت الوثائق وجود عبد حبشى وله نفس مواصفات مريم من حيث الجنس واللون ولكن قدر ثمنه بنحو ٣٤ قرشاً عام ١٠٢٦هـ/١٦١٧م^(٤). والأمثلة على ذلك كثيرة.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ١٣٠، ص ٥١

(٢) دشت ١١٩ لسنة ١٠١٢هـ، ص ٨٤، وكذلك محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٠٩٨، ص ٣١٠

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٤٠١، ص ١٦٦٨

(٤) محكمة مصر القديمة: س ٩٩، م ٣٤٤، ص ١١٢

وقد تعددت مصادر العبيد المجلوب لمصر القديمة كما ذكرنا سواء من الشمال أو الجنوب على يد الجلاية الذين يودعونهم فى الوكالة الخاصة بهم على أن يقوم الدالين بعد ذلك ببيع هؤلاء العبيد فى الأماكن المتفرقة من البلاد نظير حوالة شرعية معلومة. ووجد العديد من الجلاية والدالين فى مصر القديمة خلال القرن السابع عشر.

ويذكر أن بعض هؤلاء الأرقاء كانوا مثيرين للشغب يمارسون أعمال اللصوصية والسرقة ، فقد قام بعضهم بسرقة بعض الفواخير بقم الخليج وتعدى البعض الآخر على أحد المنازل بنفس المنطقة^(١).

أما عن حركة تحرير العبيد بمصر القديمة من الأمور التي لاحظناها سواء قام بذلك الرجال أو النساء على حد سواء. إبتغاء وجه الله. وكانت عملية العتق هذه تشمل مجموعة لنفس السيد يتم عتقهم في آن واحد. فمثلا قام الأمير مراد بيك - أمير اللوا الشريف بمصر القديمة عام ١٠٦٦هـ - بعتق مجموعة من مرقوقية في يوم واحد وهو يوم ١٥ ربيع الآخر في سنة ١٠٦٦هـ وهم " مصطفى الجرجي ومرتضى الجرجي الخازندار ومحمد شاهين الأفرنجي وعثمان عبد الله أفرنجي أيضا ومصلى بن عبد الله الروسى وسنبل الحبشى الكرارجي وسياغوث الرومى وبلال الأسود الطباخ ويوسف روسى المؤمن". وقد أعلن الأمير مراد أنه أراد الثواب وقال بصريح اللفظ " أنه أعتقهم ابتغاء وجه الله تعالى وطلب الثواب وعمل بقوله صلى الله عليه وسلم من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله تعالى بكل عضو منها عضوا منه من النار حتى الفرج بالفرج "(٢). وبذلك صار هؤلاء من أحرار المسلمين. وفي نفس اليوم قام الأمير أيضا بعتق مرقوقاته جميعهن (فاطمة البيضاء الإفرنجية وصالحة الجرجية وسمور الحبشية ومقبلة البوابة وولدها بلال وكريمة الجرجية "(٣). وأصبحن بذلك من حرائر المسلمين.

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ١١١، ص ٤٩

(٢) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٦٧، ص ٢٦

(٢) نفس: ٤: ٦٨، ص ٢٧

أما النساء فقد امتلكن أيضاً العديد من الأرقاء وقمن بعنق مرقوقيهن، وخير مثال لذلك قيام المصونة كريمة بنت علي الحداد زوجة الزيني شرف بن محمد من أتباع الأمير يوسف جوربجي، قد قامت هذه السيدة بعنق مرقوقتها غزال بنت عبد الله السوداء اللون^(٢).

وقد علق الكثير من الفقهاء ورجال الدين على مدى أهمية عتق العبيد من تكفير الذنوب وطلب الثواب سواء كان عتق هذا العبد لذكاء أو لمرضٍ أصابه ففي كلتا الحالتين هو أمر من الأمور الواجبة الجائزة^(٣). وقد ورد هذا العتق في عدة مواضع من القرآن الكريم ففي سورة النور الآية (٣٣) يقول الله تعالى "والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاوتهم إن علمتم فيهم خيراً وأنوهم من مال الله الذي آتاكم".

وبعد عتق العبد أو الآما يمارس حياته الطبيعية داخل سياج المجتمع من حيث الزواج والتملك، وتسجل الوثائق عدد من زيجات هؤلاء مع أشخاص لهم وزنهم داخل مجتمع مصر القديمة، ففي عام ١٠٢٠هـ/ ١٦١٠م تزوجت ريحانة السوداء اللون معتوقة القصابى محمد بن زين العابدين من الشيخ العلامة شرف الدين يحيى على صداق قدره عشرة دنانير كل دينار يساوى خمسين نصف فضة^(٤). ومن جملة معتوقى الأمير يوسف جوربجى عبد يدعى

(١) محكمة مصر القديمة: من ١٠٥، م ٤٠٨، ص ١٣٦

(٢) نفس: ٤: م ١١٦، ص ٣٧٣

(٢) عن عتق الرقيق وأصول ذلك انظر: الشرنبلای: المصدر السابق، ج ١، وأيضاً: محمد عريف إسماعيل: تحرير الكلام

في مسائل الإلتزام. مخطوط بدار الكتب، فقه مالك ٢٨١، ميكرو فيلم ١٦٨٩٨، غير مرقم - وكذلك: محمد مختار:

بغية المريد في شراء الجوارى وتقليب العبيد، القاهرة، ١٩٩٦

(٤) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١٢٣٤، ص ٣٤٥

الزيني مرجان بن عبد الله الأسود اللون، بعد أن تم عتقه أخذ يتبوأ مكانة داخل المجتمع فإمتلك العديد من المراكب النيلية التي استأجرها البعض منه، فقد استأجر مثلاً الشريف أحمد بن الشريف راوى الحسنى المركب الأشكيف البنوانى لمدة سنة بأجرة ستمائة نصف فضة^(١). وقام ببيع مركب أخرى للأمير مصطفى بن الأمير على شرجى طائفة عزبان بمبلغ قدرة ألف نصف فضة^(٢).

٦. عناصر أخرى:

إضافة إلى ما تقدم قد وجدنا عدة عناصر أخرى داخل مجتمع مصر القديمة من مغاربة وشوام وأحياناً يمنيين وبعض الأجانب وكذلك العربان. فالمغاربة قد استقروا بمصر قبل الوجود العثماني وشكلوا شريحة لا بأس بها في المجتمع، وكان تواجدهم بمصر القديمة ملحوظ، بل أننا وجدنا حارة تأسسها لهم وهى حارة أبى سعيدة المغربى نسبة إلى الخواجا عبد العزيز بن أبى سعيدة المغربى الذى كانت له عدة أوقاف بها قد تولى نظارتها أحفاده من بعده منهم شهاب الدين أحمد المغربى الذى تولى النظارة سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م^(٣). وقد عمل المغاربة بالتجارة داخل أسواق المدينة، فشاركوا فى تجارة الرقيق بها وكذلك تجارة الدخان والغلال والمراكب وامتلكوا العديد من العقارات فقد اعتاد كل من عبد الله بن بلقاسم بن محمد المغربى المراكشى وشريكه القداد بن أحمد المغربى الطرابلسى جلب العبيد وبيعها بمصر القديمة وحققا من وراء ذلك الأرباح الطائلة^(٤). أما تجارة الدخان فقد كان لهم فيها باع طويل^(٥) ولكن لم تكن على مستوى

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٥٢٣، ص ٥٨٢، ٥٨٣

(٢) نفس: م ١٨٧٠، ص ٧٠٦

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٦٣١، ص ٦٠٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ١٣١، ص ٥٢ وللمزيد عن أحوال المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى. انظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧/١٧٩٨م). المجلة التاريخية المغربية،

الجزائر، ١٩٨٢

(٥) دشت ١٤٨ لسنة ١٠٤٠هـ، ص ٧٠١

كل الطائفة، فقد كان بعضها يرفضها. فقد ذكر أحمد شلبي أن من عادات المغاربة حمل الكسوة الشريفة التي تعمل كل سنة ويمرون بها في شوارع القاهرة ويضربون كل من يروه يشرب الدخان فتحدث المشاكل^(١).

وقد برع المغاربة في طهي الأطعمة وقد لاحظ نتزو هذا وشاركهم في ذلك الأتراك، وكانوا يبيعونها بثمن قليل على الأرصفة الشعبية وأحياناً يحضرونها للناس أمام البيوت وداخل المنازل^(٢). وهذه الأمور كلها مجتمعة تدل على مدى ما بلغه المغاربة داخل مصر القديمة خلال القرن وكذلك مدى تأثيرهم في محيط الحياة بها.

وقد ظهر. بالمدينة عدد من العرب سواء الشوام أو اليمنيين أو من الجزيرة خاصة من الأشراف كما رأينا ولكنهم لم يلعبوا الدور البارز الذي قام به المغاربة. وظهر بها أيضاً لبعض الوقت الأجانب وعدد من الرحالة واليونانيين والأرمن والأعاجم الذين استقروا بالتكية الموجودة بالقصر العيني بمصر القديمة، ولكن رغم ذلك قد فضل هؤلاء التواجد في العاصمة عن غيرها من المدن.

أما العربان فقد استقر بعضهم في روضة مصر القديمة على نطاق ضيق منها، وكعادتهم دائماً ما يثيرون القلاقل والشغب لأهل المنطقة فقد اشتكى منهم حسين بن محمد الغيطاني بأنهم قد تعدوا على أرضه " بغيط المقياس الشريف " في ١٠ ذى القعدة ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٧م وقطعوا البلح وضربوا ولده وكان معهم العديد من الأسلحة يثيرون بها الرعب في قلوب أهالي الروضة^(٣).

(١) أحمد شلبي بن عبد الغنى: المصدر السابق، ص ٢٠٤

(٢) Neitzschitz. Op. Cit. P228

(٣) محكمة مصر الفنية: س ١٠٥، م ٩٣٦، ص ٢٩٧

أ. جدول خاص بنسب حالات الزواج:

سنوات لم تسجل		سنوات سجلت نسبة منخفضة		سنوات سجلت نسبة متوسطة		سنوات سجلت أعلى نسبة	
عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة
-	١١٠٣هـ/١٦٩١م	١٩	١٠٨٠هـ/١٦٦٩م	٧٠	١٠٧١هـ/١٦٦٠م	١٠٠	١٠١٨هـ/١٦٠٩م
-	١١٠٤هـ/١٦٩٢م	١٨	١٠٩٥هـ/١٦٨٤م	٥٥	١٠٧٢هـ/١٦٦١م	١٠١	١٠١٩هـ/١٦١٠م
-	-	٤	١٠٩٧هـ/١٦٨٦م	٦٧	١٠٧٣هـ/١٦٦٢م	١٥٩	١٠٢٠هـ/١٦١١م
-	-	١	١١٠٠هـ/١٦٨٨م	٥٥	١٠٧٤هـ/١٦٦٣م	١٣٣	١٠٢١هـ/١٦١٢م
-	-	٢	١١٠١هـ/١٦٨٩م	٥٧	١٠٧٥هـ/١٦٦٤م	٩١	١٠٨١هـ/١٦٧٠م
-	-	٢	١١٠٢هـ/١٦٩٠م	٥٥	١٠٧٧هـ/١٦٦٥م	٩٢	١٠٨٢هـ/١٦٧١م

ب. جدول خاص بنسب حالات الطلاق:

سنوات سجلت أعلى نسبة		سنوات سجلت نسبة متوسطة		سنوات سجلت نسبة منخفضة		سنوات لم تسجل	
السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات	السنة	عدد الحالات
١٠١٨هـ/١٦٠٩م	٨٣	١٠٢١هـ/١٦١٢م	٣٧	١٠٢٤هـ/١٦١٥م	٧	١١٠٢هـ/١٦٩٠م	-
١٠١٩هـ/١٦١٠م	٦٠	١٠٢٢هـ/١٦١٣م	٤٦	١٠٥٦هـ/١٦٤٥م	٧	١١٠٣هـ/١٦٩١م	-
١٠٢٠هـ/١٦١١م	٧٠	١٠٢٣هـ/١٦١٤م	٤٧	١٠٦٧هـ/١٦٥٦م	٨	١١٠٤هـ/١٦٩٢م	-
-	-	١٠٦٢هـ/١٦٥١م	٣١	١٠٩٠هـ/١٦٧٩م	٩	١١٠٦هـ/١٦٩٤م	-
-	-	١٠٧١هـ/١٦٦٠م	٣٦	١٠٩١هـ/١٦٨٠م	٦	-	-
-	-	١٠٧٩هـ/١٦٦٨م	٣٩	١٠٩٧هـ/١٦٨٦م	٦	-	-
-	-	-	-	١٠٩٩هـ/١٦٨٧م	١	-	-

ونلاحظ على كلا الجدولين أنهما قد تشابها في معدل الزيادة في حالات الزواج والطلاق في نفس السنوات وكذلك في السنوات التي لم تسجل، في حين اختلفا بعض الشيء في معدل تسجيل النسب المنخفضة والمتوسطة. والحقيقة أن السنوات التي لم تسجل أى نسب سواء زواج أو طلاق يكتنفها الغموض بعض الشيء الأمر الذي يجعلنا نتساءل هل من المعقول أن هذه السنوات لم تتم فيها حالة زواج أو طلاق واحدة !! أم أن تسجيل عقود الزواج والطلاق قد اتخذت مساراً آخر ؟ وهذا أمر بالطبع غير وارد على الإطلاق آنذاك ؟ أو أن القاضى قام بتسجيلها في دفاتر أخرى لم نعثر عليها نحن ؟ وهذا أمر نستبعده خاصة وأنه في سنوات تالية للسنوات التي لم تسجل قد شهدت حالات زواج وطلاق مثل سنوات ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ١١٠٨هـ/١٦٩٦م.

على أية حال فإن الزواج كان يتم أمام القاضي الذى كان يوقع وشهود مجلسه على عقد الزواج الذى شمل اسم الزوج والزوجة وكذلك يوضح المهنة واللقب إن وجد وقيمة الصداق والمدفوع منه الآن، وما يتبقى منه إلى وقت معلوم. فعلى سبيل المثال عقد زواج قد سجل فى محكمة مصر القديمة يوم الخميس ٢١ ربيع الثانى ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م قد جاء فيه " إنه لدى الحنفى أصدق المحترم منصور بن المحترم سليمان الجلفاط القاطن بمصر القديمة مخطوبته المصونة البكر القاصرة فاطمة ابنة المحترم محمد بن المرحوم الحاج أبو جابر القهوجى على كتاب الله وسنة رسوله بصداق قدره أربعون قرشاً كل قرش يعادل ثلاثون نصف فضة يدفع منها خمسة وعشرين حالاً والباقي لفراق أو موت " (١). وتحدد عقود الزواج أيضاً مكان الزوج والزوجة اللذان ربما يكون أحدهما يقطن فى منطقة أخرى عن الثانى، ولدينا الأمثلة على ذلك منه حالة عبد الرحيم بن منصور من مصر القديمة الذى تزوج من سليمة ابنة الحاج أحمد الحزام فى الكتان ببولاق على صداق قدره ٢٥ قرشاً دفع منها ١٥ قرشاً فقط، وقد سجلت لنا محكمة بولاق هذا العقد فى ٢٨ شوال ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م (٢).

وعقود الزواج عموماً تحمل عبارات تكاد تكون متشابهة تماماً، وإن اختلف بعضها فى أمور ربما يوافق عليها البعض ويرفضها آخرون. فمن العقود التى ظهر فيها الاختلاف تلك العقد الذى سجل فى ٢١ ذى الحجة ١٠١٤هـ/١٦٠٥م عندما اشترط على الزوج حجازى بن عبد الله الجلفاط بمصر القديمة أنه " متى تزوج على مخطوبته صفية بنت الشيخ محمد الحويوى زوجة أخرى تكون طالقاً طلاقاً واحدة تملك بها نفسها (٣).

ومن الأمور التى يجب أن تراعى فى عقد الزواج الشهود العدول المشهود لهم بحسن الخلق وإلا يعتبر العقد باطلاً وتحققاً لهذا المبدأ قام الشيخ عبد الباقي الزرقانى مفتى السادة الملكية بمصر بفسخ عقد زواج موكلته أنا ابنة زين الدين محمد بن علاء الدين الوفاى من الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل بن وفا الذى استند لشهود غير عدول رغم أنه دخل بها

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦٦٠، ص ٢٥٦

(٢) محكمة بولاق: س ٤٩، م ١٥٥، ص ٥٨

(٣) نشت ١٢٣، ص ١٠٢٩ لسنة ١٠١٤هـ

وأصابها، لذلك كلف أن يطلقها ثلاثاً وقام بتجديد عقده عليها فى ١٨ جمادى الآخر ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م من غير محلل واستند فى ذلك لما ذكره شيخ الإسلام العلامة محمد الدقلى فى شرح المنهاج فى كتاب النكاح، وأصدقها نحو ٧٠٠ نصف فضة^(١).

وقد ذكرنا من قبل وجود حالات زواج للعبيد بعد عتقهم، سواء زواجهم من أشخاص عاديين أو من أمراء دون مراعاة للفوارق الطبقيّة هنا. حيث تزوج الأمير محمد جلبى بن الأمير بهرام شربجى القاطن بمصر القديمة من صالحة البكر البالغة ابنة عبد الله البيضاء اللون الجرجية الجنس معتوقة السيدة خديجة ابنة أحمد على صداق قدره ٤٥ قرشاً^(٢).

وفى نفس الوقت رأينا سنبل بن عبد الله معتوق الأمير سليمان بن الأمير محمد الصوباشى بمصر القديمة عام ١٠٦١هـ من مكية ابنة علام المحلاوى التى اشترطت عليه كسوتها فى الشتاء والصيف خارجاً ذلك عن صداقها^(٣).

وقد عثرنا على عقود زواج لبعض النصارى قد سجلت أمام القاضى الشرعى بمصر القديمة خلال القرن، وأشرنا منذ قليل إلى مثل هذه الحالات التى فضلت الذهاب أمام المحاكم الشرعية لدى المسلمين بدلاً من الكنيسة التى تشجع على الزواج بين النصارى. وقد وضع بعض المؤرخين تفسيراً مقنعاً لذلك وهو رغبة هؤلاء بالتمتع بما يتمتع به المسلمين بالحق فى الطلاق حينما يرغبون ذلك^(٤). وبالفعل تؤكد ذلك بعض عقود الطلاق التى سجلت فى محكمة مصر القديمة بين هؤلاء النصارى، فمن المعروف أن الفقة الإسلامى يؤكد على حق الزوجة فى الطلاق عند غياب الزوج الغيبة الشرعية ومدتها ستة أشهر ونصف دون أن يترك لها نفقة^(٥). وقد تمتع بهذا الحق بعض النصارى ممن تزوجوا أمام القاضى المسلم، فطلقت المرأة النصرانية مالوم ابنة نصر بن رزق الله فى ١٩ ذى القعدة ١٠١٨هـ/١٦٠٧م، لأن زوجها

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٣٢٤، ص ١٣٤

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٧٣٢، ص ٦٣٨

(٣) نفس: م ٩٩٨، ص ٣٧٢

(٤) محمد عفيفى: الأقباط، ص ٢٣٢

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٤٥٠، ص ١٨١، ١٨٢

وسجلت المحاكم الشرعية العديد من حالات الطلاق داخل مصر القديمة وهو أمر قد أشرنا إليه من خلال الجدول السابق، وقد تعددت أسباب الطلاق منها كما ذكرنا الغيبة الشرعية للزوج دون ترك أى نفقة للزوجة إضافة إلى الخلافات الزوجية التى قد تؤدى بعضها إلى فسخ عقد النكاح منها تعدى أحدهما بالضرب أو السباب على الآخر، فيذكر أن امرأة تدعى سكرية ابنة على ضربت زوجها عبد الجواد بن حسونة الشمسار فى الطين على رأسه لأنه منع عنها كسوتها الشرعية، فإنتهى التخاصم والنزاع بينهما بالانفصال فى ١٠٨٠هـ/١٦٧٩م^(٣). وفى بعض الأمور كانت المرأة المطلقة تحرم من حضانة ابنها الرضيع خاصة إذا رغبت هى فى الانفصال.

ومن الأمور الهامة التي ارتبطت بالزواج والطلاق مسألة النفقة التي كفلها الشرع للزوجة على زوجها أو مطلقها، حيث التزم الرجل تجاه زوجته بتوفير النفقة والكساء من بداية الزواج أو عند حدوث الطلاق سواء كانت هذه النفقة للمرأة أو صغارها ممن توجب لهم الحضانة فالتزم المعلم شرابي بن شعبان المساقى ببولاق بدفع نفقة يومية قدرها ثلاثة أنصاف

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٤٤١، ص ١٢٩

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٣، م ١١١، ص ٤١٤. نود أن نشير إلى أنه قد حدث جدل كبير بين الفقهاء حول تحديد الفرق بين الطلاق والفسخ في عقود الطلاق عندما يهجر الرجل زوجته فالإختلاف حدث حول أسباب الفراق هذه هي التي تحدد الفرق بين الإثنتين وهو أمر قد حصمه الكثيرون ومنهم الجرجاوى الحنفى فى القرن ٦هـ/ ١٢م وللمزيد من التفاصيل انظر: محمود بن محمد المهندس الجرجاوى الحنفى الأزهرى: الكواكب المشرقة فى أحكام النكاح والطلاق والنفقة. مخطوط بدار الكتب، فقه حنفى ٨٠٥، ميكروفيلم ٨٠٦١.

من الفضة لمطلقة سنيّة ابنة الحاج على بن إبراهيم القهوجي بمصر القديمة ومعها ابنتها القاصرة التي تدعى " سيدة أبيها " منذ حدوث الطلاق في ١٥ شوال ١٠٢٣هـ/ ١٦١٣م ولم يتأخر في دفع ما هو مقرر عليه^(١). والطفل الذي لم يولد كان له نصيب أيضاً من النفقة التي قدرت بنحو نصف فضة أيضاً، فدفع عياد بن سلطان الزيات بحمام جمدار النصف فضة المذكورة لمطلقة سيدة ابنة سليمان التراس بساحل مصر القديمة هذا القدر إلى أن تضع حملها^(٢). ويظل الرضيع تحت حضانة والدته سنتي الرضاعة بحيث ينفق عليه كما حددت الوثائق نصف فضة في اليوم، إلا أن بعض الفقهاء قد أجاز أن تزيد حضانة الأم لولدها عن هذه المدة التي اتفقت عليها وثائق العصر^(٣).

ويؤكد الجرجاوي على أمر هام من أمور النفقة، حيث يقر بأن النفقة تجب للزوجة على زوجها سواء كان حراً أو قنأً أو مدبراً ومكاتباً بإذن من المولى أو بدون إذنه^(٤). وهذه من الأمور الهامة التي أجازها الفقه الإسلامي من أجل تجنب المرأة مشقة الحياة ونفقة الأولاد بما يتقل كاهلها مما يدفعها ذلك لتركهم وبالتالي تفككهم بل وتفكك المجتمع بأسره.

وتجنباً لحدوث مثل هذه الكوارث التي تعصف بأركان المجتمع وضعت بعض عقود الزواج شروطاً توضح كيفية سير الحياة الزوجية بين الطرفين بما يتوافق مع كل طرف، وهو ما يمكن أن نسميه " دستور الحياة الزوجية " إذا جاز التعبير. فعندما تزوج المحترم عامر بن عبد الفتاح من ناحية كتامة بإقليم الغربية والطحان الآن بمصر القديمة، من زينب ابنة محمد الطحان بمصر القديمة أيضاً، اشترطت عليه كسوتها في الشتاء والصيف أسوة أمثلها، ولا ينقلها من مصر القديمة إلى بلده ولا يجمعها مع زوجة أخرى في منزل واحد،

(١) محكمة بولاق: س ٣٠، م ٤٥٣، ص ١٣٣

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٠٠٧، ص ٩٤٩

(٣) محمد عريف إسماعيل: المصدر السابق، غير مرقم

(٤) الجرجاوي: المصدر السابق، ص ٥٧

ويرضى بولديها من غيره شريطة أن يشربا من شرابه ويأكلان من أكله وينامان على فراشه. فوافق على ذلك كله عن قناعة دون رجوع^(١).

العادات والتقاليد:

غالباً ما تكون العادات والتقاليد في مجتمع ما من الموروثات القديمة التي تتناقلها الأجيال تباعاً داخل هذا المجتمع، وهناك بعض العادات التي تطرأ على المجتمع يكتسبها نتيجة عدة أسباب إما لوجود حراك اجتماعي ووفود عناصر سكانية أخرى تغير مظهر المجتمع ؟ أو ظهور عادة في منطقة ما ثم استشرت داخل هذا المجتمع مثل عادة شرب الدخان أو القهوة مثلاً.

وفي مصر القديمة ظهرت عادات وتقاليد حديثة العهد على المجتمع المصري بأثره، ووجدت عادات كانت من الموروثات السالفة كعادة الذهاب إلى المقابر وقراءة القرآن بها نظير أجر نقدي أو عيني تقرره الدولة نفسها. فعلى ضريح أبي السعود الجارحي انصب اهتمام الدولة. ففي ١٠٤٩هـ/ ١٦٣٨م قام قائم مقام شيخ الإسلام بتعيين الإمام أبو بكر السعودي وولده أبو هادي في قراءتين ربع من القرآن الكريم في كل يوم بضرخ أبي السعود المذكور^(٢). وكان الخبز هو المكافأة التي كانت تصرف لهؤلاء القراء، حيث يقوم شيخ الإسلام (قاضى القضاة) بتحديد كمية الخبز المنصرفة لهم، فعين مثلاً لمحمد الصغير رغيفين من الخبز الدواري، ورغيفين من الخبز الحماوى في كل يوم نظير قيامه بالقراءة في مقام أبي السعود الجارحي أيضاً^(٣). هذا المقام الذى تعلقت به زاوية نسبت لأبى السعود وقد اعتاد أهالى مصر القديمة وغيرهم ممن يرغبون ويعتقنون فى الأولياء وضع النذور والصدقات فى " خلوة " داخل الزاوية معدة لذلك ولم تقتصر هذه النذور على النقود فقط بل وجد منها ما هو

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٩٢٤، ص ٣٦٤

(٢) دشت ٥٧، ص ٣٠٨ لسنة ١٠٤٩هـ

(٣) الباب العالى: س ١٦٥، م ١٠٤٥، ص ٣٤٨ لسنة ١٠٩٠

عينى، فتشير الوثائق أن هذه الخلوة كانت تضم مقادير من الشمع السكندرى والأرز والقمح والعدس، هذه المقادير التى لا يتورع البعض عن سرقتها أحياناً^(١).

ومن العادات التى لاحظها ننتزو أثناء جولاته بالمدينة هى قدوم الأتراك والمغاربة لتناول وجبة الإفطار مبكراً فى بعض المحال التجارية " المطاعم "، فكانت هذه بمثابة عرف أو عادة قد داوموا عليها كل يوم، ولاحظ أيضاً أن النساء كن يركبن حمير صغيرة وعندما يصل الأجانب ويلاحظون أنهم أقباط مسيحيين يتجمهرن حولهم وأحياناً تحدث منهن بعض الاعتداءات على هؤلاء الأجانب^(٢). على أنه قد سادت فى مصر القديمة بعض العادات السيئة مثل شرب الخمر والبوطة التى اعتبرت من المحرمات، ووضعها الفقهاء فى عداد الكبائر، فأورد الغزى مع أبيات من الشعر ما يؤكد صدق قوله:

شرب وقتل لو ط وسرقة وزنا	قذف وزور وغصب وإحتسا الخمرى
مسكر وعقوق الوالدين ربا	وهتك حرمة شهر الصوم بالفطر ^(٣)

لذلك صدرت الأوامر بتحريم شرب الخمر والبوطة خلال العصر العثمانى، وفى القرن السادس عشر وبالتحديد فى ٩٩٣هـ/١٥٨٢م صدر بيورلدى للقاضى الحنفى بمصر القديمة بإزالة خمارة لرجل يهودى بجوار المقياس الشريف^(٤). ثم تعددت البيورلدات خلال القرن السابع عشر فى خصوص ذلك التحريم، فبدأ منها ما يوجه تحريمها خلال الأشهر الحرم (رجب - شعبان - رمضان - ذو الحجة - المحرم) كذلك البيورلدى الصادر فى بداية سنة ١٠٦٧هـ/١٦٦٥م إلى القاضى والصوباشى بمصر القديمة آنذاك بضرورة غلق الأماكن التى يمارس فيها شرب الخمر والبوطة والتى تسميها الوثائق بإسم " بيوت الميخانات والبوذية "، فقام الصوباشى المذكور بغلق هذه البيوت فى مصر القديمة وسلم مفاتيحها للأغا محمد

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٦٧٣، ص ٢٦١

(٢) Neitzschitz. Op. Cit. P218

(٣) الغزى: جواهر الذخائر فى عدد الكبائر والصغائر. مخطوط بدار الكتب، تصوف ٢٧٦١، ميكرو فيلم ٣٣٨١٨، غير

مرقم

(٤) محكمة مصر القديمة: س ٩٦، م ٥٠٦، ص ١٣٨

باشا مختار مبعوث الباشا^(١). والجدير بالذكر أن هذه البيورلدات تطبق على سائر سكان المدينة من مسلمين ونصارى أو يهود، ومن يخالف منهم يقع عليه حكم القاضى المسلم. فحينما بعث الوزير (الباشا) تابعه محمد أغا بخطاب إلى القاضى الحنفى والصوباشى محمد جلبى بمصر القديمة فى ٧ شعبان ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م يحثهم فيه على غلق هذه البيوت، لم يمثل للأمر الشريف الذمى دميان الذى اتخذ من منزله بحارة النصارى بقصر الجمع ميخانة يتعاطى فيها عصير الخمر وبيعه، فذهب إليه القاضى بنفسه ليتأكد من ذلك، وبالفعل وجد منزله مفتوح به آلة عصير الخمر وطبخه فى دس من النحاس وبعض الجرار من الفخار ومواجير وحلقة وغير ذلك، ولما استفسر منه القاضى عن عدم امتثاله للأوامر الشريفة أخذ يتلاعب بالألفاظ فدفع ذلك إلى إيقاع التعزير الشرعية عليه^(٢).

ومن العادات السيئة أيضاً التى ظهرت فى مجتمع مصر القديمة عادة شرب الدخان والتى دار حولها الجدل الذى تبلور حول تاريخ دخول الدخان إلى مصر، هل دخل فى أواخر القرن ١٦ وبداية القرن ١٧ ؟ أم أنه ظهر فى بداية القرن السابع عشر كما يروى أحمد شلبى بن عبد الغنى والإسحاقى ؟ وهذا التساؤل الأخير هو الذى يروق لبعض المؤرخين الأخذ به ضمن بعض الدراسات التى وضعت حول الدخان فى مصر^(٣). ويقول الشيخ إبراهيم اللقانى فى نصائحه التى قدمها عام ١٠٢٥هـ/١٦١٤م عن الدخان " إن أول من أخرجه ببلاد السودان المجوس ثم جلب إلى مصر والحجاز واليمن والهند وغالب أقطار الإسلام وعمت به

(١) محكمة مصر القديمة: س١٠٣، وذكر البيورلدى فى الصفحة المخلفة فى بداية جلد السجل فلم ترقم الوثيقة وكذلك الصفحة.

(٢) محكمة مصر القديمة: ١٠٣، م٦٢٣، ص ص٢٤٢، ٢٤٣. ومن الجدير بالذكر أنه قد صدر أمر سلطانى عام ١٥٧٤م بعد شرب الخمر الذى شاع استعماله أيام السلطان سليم خان الثانى وأفرط فيه الحنود خاصة الإنكشارية، فدفع ذلك الإنكشارية إلى الثورة مما إضطر إلى عودة شرب الخمر ولكن ليس بالقدر الذى يذهب العقل. انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١١٣

(٣) محمد عفيفى: تجارة الدخان فى العصر العثمانى. مقال فى مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد ١٩ لسنة ١٩٩٨، ص ٣٤٦

البلوى، ففي أوائل شيعه بمصر دخل به رجل من تافيلان ببلاد المغرب يقال له أحمد بن عبد الله الخارجى المشهور بسفك الدماء بغير حق»^(١).

وقد حدث اختلاف بين الفقهاء حول تحريم الدخان أو إجازته وانقسموا فى ذلك إلى ثلاث كما يرى العصامى فى رسالته التى حررها حول تحريم الدخان، فقال فى مقدمتها " فالسبب الداعى لتحرير هذه الرسالة والباعث المتداعى لترتيب ما فى هذه القبالة أنه لما شاع الدخان المعروف فيما بين المشرقين كان الناس فى شأنه شقين. شق قال بجعله وجواز شربه مستدلين بالإجابة الأصلية، وشق كان صنفين، صنف ذهب إلى حرمة وعدم جواز قربه فضلا عن جواز شربه منورا دعواه بما يسر له نقله أو اهتدى إليه عقله. وصنف توسط فيما بينهما وقال بكرهته وصار توجه قلبى (رأى العصامى) إلى عدم حله وإباحته»^(٢). وتأميما على قول هؤلاء الفقهاء صدرت العديد من الأوامر والبيورلدات بتحريم الدخان وشربه فى مصر القديمة، فرأينا من قبل الأوامر التى صدرت بتحريمه داخل المحكمة^(٣). ثم البيورلدى الصادر فى ٧ رجب ١٠٢٣هـ/ ١٦١١م من الديوان العالى بحث فيها صوباشى مصر القديمة " منع كل مسلم ونصرانى ويهودى شرب الدخان والخمر »^(٣).

ومن العادات السيئة التى وجدت أيضا انتشار الزنا وممارسة السحر والشعوذة. فواقعة الزنا دائما ما ترتبط بشرب الخمر، الحقيقة أن مثل هذه الممارسات للأخلاقية قد وجدت حالات ليست قليلة داخل مجتمع مصر القديمة خلال القرن وهو أمر قد هدد بتفكك المجتمع. فمن هذه الحالات حالة قد ضبطها صوباشى مصر القديمة ويدعى الأمير مصطفى فى يوم الجمعة ٣ محرم ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٧م، حيث قبض على امرأة تدعى سليمة ومعها شخص يدعى حسين العزب كان فى منطقة الخلاء والكيمان بظهر قصر الجمع، فاعترفت

(١) إبراهيم اللقانى: نصيحة الإخوان بإجتنب الدخان. مخطوط بدار الكتب، فقه حنفى طلعت ٣٨، ميكروفيلم ٤١٩٠٤ -

١٤٩٢٣، ص ٦

(٢) عبد الملك العصامى: رسالة فى تحريم الدخان. مخطوط بدار الكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم ٤١٩٠٤، ص ١

(٣) انظر الفصل الثانى

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٢، ص ٢

أمام الصوباشى المذكور " إنها كانت شاربة الخمر وإنها على علاقة معاشرة وزنا بحسين هذا منذ سنتين ... " (١).

كذلك كشف الأمير سليمان صوباشى مصر القديمة عام ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م حالة زنا قد تمت فى روضة مصر القديمة بين رجل يدعى محمد بن حسن الدلال القاطن بالجيزية يأتى كل يوم إلى الروضة ومعه امرأة تدعى فاطمة ابنة محمد البحيرى ويختلى بها فى أرض المرحوم الأمير عابدى بيك (٢). وقد وجدت بعض النسوة قد تخصصن فى جمع الرجال مع النسوة فى أماكن خاصة لممارسة السكر والفاحشة وهو ما أشرنا إليه من قبل عند معالجتنا للرباع فى مصر القديمة والتي كان بعضها بمثابة " وكر " للزنا وشرب الخمر. وتسجل الوثائق أسماء العديد منهن. وفى مواضع أخرى كانت بعض النساء الخاطيات يعلن توبتهن أمام القاضى الشرعى، ففي ٢٧ شعبان ١٠٥٤هـ/١٦٤٣م حضرت المرأة حجازية ابنة منصور البهنساوى إلى قاضى مصر القديمة " وأعلنت أنها من النساء الخاطيات بمواضع الكبائر والخطا فحصل لها فى يوم تاريخه رهبة ووحشة من جانب الله تعالى ومن خوف غضبه وعذابه بسبب ارتكاب ما حرمه فتابت وأقسمت على نفسها بالله العظيم الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم القسامة الشرعية أنها صادقة فى توبتها وإذا عادت وقع عليها الأمر الشرعى والحدود الشرعية " (٣). ولدينا العديد من الحالات سواء رجال أو نساء يرغبون فى التوبة مثل حجازية المذكورة خوفا من عقوبة الزنا التى أقرها الرسول (ص) فى حديث شريف، فعتة أنه قال " إحدروا الزنا فإن فيه ستة خصال ثلاث فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة، فأما الثلاثة التى فى الدنيا فإنه يذهب بهاء الوجه ويورث الفقر وينقص العمر وأما الثلاثة التى فى الآخرة فإنه يوجب سخط الله وسؤال الحساب والخلود فى النار .. وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال أيضا " ومن زنا بإمرأة حرام أقامه الله تعالى فى قبره عطشانا باكيا حزينا مسودا وجهه مظلما فى عنقه سلسلة من نار وعليه سراويل من قطران ". وهناك العديد

(١) محكمة مصر القديمة: م ١٠١، م ٢١١، ص ٧٨

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٣، م ٢، ص ١

(٣) محكمة مصر القديمة: م ١٠٠، م ٣٨٧، ص ١٨٣

من الأحاديث والأقوال المأثورة عن عقوبة الزنا أوردتها الكثير من الفقهاء والعابدين، نخص منهم على سبيل الذكر أبو الليث السمرقندى " ت ٣٧٣هـ " الذى وضع مقدمة فى التصوف يتناول فيها معظم الأحاديث النبوية التى توضح عقوبة الزنا كما أشرنا فى الحديثين السابقين^(١). لذلك أنبرى العديد من سكان مصر القديمة كما رأينا إلى إعلان التوبة والعودة إلى حياة الاستقامة بعيدا عن خطوب الشيطان.

أما ممارسة السحر والشعوذة فلم نسمع عنها إلا على نطاق ضيق داخل المدينة حيث كان يمارسه البعض داخل دير قصر الجمع نخص منهم الذمى عبد القدوس بن ميخائيل من بيت حمصة التمساحية النصرانية اليعقوبية الذى كان يمارسه فى النصف الثانى من القرن السابع عشر^(٢).

كما انتشرت بمصر القديمة عادة شرب القهوة أو البن على المقاهى التى استشرت داخل المدينة خلال القرن. وقد ذهب البعض إلى تحريمه مثل الخمر، ولكن إبراهيم اللقانى يخالف ذلك الرأى ويقر بشرب البن لأنه ليس مثل الخمر المسكر فيقول " والحق إنه فى ذاته لا إسكار فيه وإنما فيه تنشيط للنفس "^(٣).

الأعياد والاحتفالات:

قلنا أن مصر القديمة مدينة مزروجة نتيجة انتشار المسلمين والنصارى بها، لذلك ظهرت بها عملية الاحتفالات بالأعياد الدينية سواء الإسلامية أو المسيحية. فكان مسلمو المدينة يحتفلون بعيد الأضحى وعيد الفطر المبارك والمولد النبوى ورؤية هلال رمضان،

(١) أبو الليث السمرقندى: مقدمة فى التصوف. مخطوط بدار الكتب، تصوف ٢٧٦٨، ميكروفيلم ٤٠٢٥٠

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١١١٢، ص ٩٨٨

(٣) إبراهيم اللقانى: المصدر السابق، "بدون ترقيم"

وكان " المسحراتى " بليالى رمضان يمر على سكان المدينة لينبهم بتناول الطعام فيذكر منهم الحاج محمد بن بركات المسحر بليالى رمضان بخط السبع سقايات^(١).

وقد أقيمت العديد من الموالد للأولياء وقبورهم المنتشرة بمصر القديمة^(٢) وما تبعها من احتفالات وزينات. وعلى الجانب الآخر احتفل مسيحيو المدينة بأعيادهم مثل عيد القيامة المجيد، وعيد الصليب المجيد وعيد الغطاس، ومن الموالد التى أقاموها، مولد القديس مرقوريوس Mercurius (أبو سيفين) فى ١٥ هاتور^(٣). وكانوا ينشدون الأناشيد والمدائح فى هذه الأعياد التى سجلنا بعضا منها قد نظم فى فترة ق ٦ هـ / ١٢م وما زالت تردد^(٤). وفى عيد الصليب المجيد يقال " ابدأ بإسم الله الديان الدائم إلى عقب الأزمان الحاضر فى كل مكان الذى علق فوق بستان ورؤوس بالصليب نور الإيمان وبه نهزم حزب الشيطان^(٥). وفى عيد القيامة العظيم يقال " أنا أفتح فاه وأتكلم وأنطق بخفيا عظام الرب وصلب المسيح وقبر ثم قام بعد أن وصفوه فى المقبرة سكت مدفون ثلاثة أيام فقام وفضح كل الكفرة ...^(٦) ".^(٦)

وقد وجدت عدة احتفالات أخرى بجانب الاحتفالات بالأعياد والموالد الدينية. منها أنه عندما يفى النيل بالماء تعم الاحتفالات بقدم الخير، فيذكر السيوطى " إن العادة قد جرت كل سنة إذا وفى النيل أن يرسل السلطان بشيرا بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد ... وهذه عادة قديمة^(٧). فعندما يحدث الفيضان تبدأ عملية كسر الخليج عند الفتحة المسماة بقم الخليج حتى تجرى فيه المياه، وقد رأينا عند حديثنا عن الزراعة كيف اهتمت إدارة المدينة بتنظيف

(١) محكمة قناطر السباع: م ١٢٦، م ٣٤٣، ص ٧٥

(٢) انظر الفصل الأول: الجزء الخاص بالمقابر.

(٣) ج. و. مكفرسون: الموالد فى مصر، ترجمة عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص ٨٦

(٤) مجهول: مجموعة مدائح دينية للمسيح والسيدة العذراء. مخطوط بدار الكتب، لاهوت ٦٩٠، ميكروفيلم ٤٨١٧٤،

(٥) نفسه: ص ١١٩

(٦) نفسه: ص ٨٧

(٧) السيوطى: المصدر السابق، ص ٣٢٩

ونظهير الخليج من الحشائش والأتربة لتسهيل جريان الماء به. والمرحلة الأولى لكسر الخليج تبدأ أولاً: بالاحتفال بذهاب الوالى إلى المقياس الشريف عند بلوغه ١٦ ذراعاً بأذرع مقياس الروضة^(١). وقد أعجب جومار بإحتفالات كسر الخليج فيقول " رغم ما للاحتفالات والأعياد الدينية من أبهة وعظمة فإنه لا يوجد له من العظمة والأهمية مثل ما لعيد فتح الخليج، فكسر سد الخليج حدث بالنسبة لكل بلد، ويبدأ الاحتفال به عند غروب الشمس حيث تقطع القوارب المضاءة فرع النيل الصغير الواقع إلى جزيرة الروضة، وفي اليوم التالى مع شروق الشمس تزين كل القوارب بالأعلام ويحتل حشد كبير من الناس المرتفعات المجاورة لقم الخليج ويسمع ضجيج المدافع وآلات الموسيقى من كل صوب^(٢).

وقد اعتاد سكان مصر القديمة إقامة الاحتفالات وما يصاحبها من غناء ورقص، فكانوا يستعملون بعض الآلات التى تحدث أصوات موسيقية ويدفون الطبول والكابور للمغنى الذى ينشد لهم على دقات هذه الطبول وسط الراقصين والراقصات^(٣). وكانوا دائماً ما يستعملون ذلك فى ليالى الطرب عندهم أو فى أوقات زفاف العروسين التى تشهد تجمعاً عظيماً من الناس بهدف مشاهدة هذه الزفة، وقد تحدث أحياناً بعض المشاجرات بين المتفرجين نتيجة الزحام الشديد، مثل الفتنة التى حدثت يوم ٢٦ صفر ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٧م وهو يوم وليمة عرس على بن عيسى القاطن بحمام جمدار والتراس بشونة غلال مصر القديمة. وقد جرت العادة أن يجمع الصوباشى عوايد من صاحب وليمة العرس^(٤).

وما لفت أنظارنا بالمدينة وجود بعض الحواة ممن اعتادوا عمل بعض الألعاب بإستخدام الثعابين والحيات، ويتجمع حول الحاوى العديد من المتفرجين ممن لديهم حب

(١) محمد الششتاوى: متزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩، ص ٣٠٦،

٣٠٧

(٢) جومار: المصدر السابق، ص ٣١٧

(٣) محكمة مصر القديمة: س ٩٣، م ٢٠٤٣، ص ٣٨٥

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٢٣١، ص ٨٩

الإستطلاع، وأشهر هؤلاء الشريف محمد بن الشريف عيسى الذى كان يتجول بخط السبع سقايات ويمارس هوايته من أجل الكسب^(١).

ثانيا: الشئون الصحية:

لمصر باع طويل فى أمور الطب والصيدلة منذ زمن بعيد وهذه، القضية قد حسمت من جانب جمهرة من الباحثين، فظهر على أرضها العديد من الأطباء المهرة الذين مارسوا مهنة الطب سواء بالتجول لملاحقة الأمراض أينما وجدت أو داخل البيمارستانات (المستشفيات)، فقبل أن أول بيمارستان فى مصر الإسلامية قد ظهر فى عهد الطولونيين، ثم انتشرت بعد ذلك هذه الفكرة فى مصر بأسرها وتوارثتها الأجيال تباعا فى عصر الإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك، وورث العصر العثمانى عن هذه العهود الكثير من الأفكار وكذا البيمارستانات التى استطاع بها أن يخطو عدة خطوات فى علم الطب لمجابهة الأمراض الشائعة فى مصر لاسيما أمراض العيون التى اشتهر بها المصريون من قديم الزمان، وكذلك الطاعون والجدرى وغيرها من الأمراض. وقد لاحظ الرحالة الذين زاروا مصر فترة القرن ١٧هـ هذه الأمراض وسجلوا ملاحظاتهم عنها. فيقول برمون " إن المرض الشائع فى جميع أنحاء مصر هو الطاعون والحمى التى تصيب السكان وتقتلهم بعد مرور ٢٤ ساعة، وهناك الجدرى الذى يأتى نتيجة سوء التغذية والشرب"^(٢). وهى نفس الأمراض التى لاحظها فولنى بعد ذلك وإن كان قد بالغ بشكل جعل الصورة قاتمة فيما تصور حياة مصر آنذاك^(٣).

أما عن أسباب انتشار هذه الأمراض آنذاك فيعود إلى: ارتفاع درجة الحرارة التى تمنعهم من النوم فى فصل الصيف، فيقال أنه بمصر القديمة قد ارتفعت درجة الحرارة لأكثر من ٤٠°، إضافة إلى وجود الذباب والحشرات. وقد اندهش نثرو من سكان مصر القديمة خاصة عنصرى المغاربة والمصريين الذين يستطيعون تحمل الذباب عندما يلدغهم هم

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٢٧٠، ص ١١٣

(٢) D' Edward Brown: Voyage en 1673-1674, p145

(٣) فولنى: المصدر السابق، ص ١٦١

وأطفالهم فى جميع مواضع أجسامهم حتى أنهم يجدون صعوبة فى فتح أعينهم من هذا الذباب^(١). لذلك جاء ارتفاع درجة الحرارة داخل مصر القديمة مع انتشار الذباب والحشرات بها من الأسباب المباشرة التى أدت إلى ظهور الأمراض، لهذا الأمر كان من الضرورى وجود الأطباء وأماكن للتداوى. فوجد مجموعة من الأساتذة فى الفروع المتخصصة فى الطب، وتساوى الرجال مع النساء فى ممارسة هذه المهنة. ولكن يقرر براون أن الأطباء الحقيقيين الذين درسوا الجسم البشرى وطريقة علاجه لم يوجدوا فى مصر^(٢). ومن هؤلاء أحمد بن سراج الدين الملقب شهاب الدين المعروف بإبن الصايغ الحنفى المصرى، وهو من كبار الأطباء وخاصة فى البيمارستان المنصورى^(٣). كذلك وجدنا الشيخ شمس الدين محمد الحميدى الطبيب والمدرس بالخشابية قرب جامع عمرو.

وكان اهتمام الإدارة العثمانية بشئون المرضى عظيم، فقد حرصت دائما على رعايتهم وضرورة الإهتمام بهم، لذلك أوردت من جانبها العديد من المراسلات إلى القضاة والنواب فى القاهرة ومصر القديمة وبولاى التى تحت هؤلاء لعمل اللازم لهم^(٤). من أجل هذا انتشرت بمصر القديمة العديد من الأماكن التى تستقبل المرضى وتقدم لهم الدواء والشفاء، فتذكر الوثائق وجود عدة بيمارستانات بمصر القديمة عام ١٠٧٤هـ / ١٦٦٣م^(٥) كانت تستقبل جميع عناصر سكان المدينة بما فيهم النصارى الأروام الذين أخذوا تفويض بذلك بموجب البيورلدات الشريفة. وفى كنيسة مارى جرجس كان يقطن بها بعض القساوسة اليونانيين Prestres Grecs وبعض الجنسيات الأخرى مثل الأتراك والمغاربة والعرب، وكل هؤلاء كانوا يعملون كخدم للمرضى، حيث كانت كنيسة مارى جرجس بمثابة مستشفى لعلاج

^(١) Neitzschitz. Op. Cit. P230

^(٢) Neitzschitz. Op. Cit. P187

^(٣) المحبى: خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، ج١، المطبعة الوهية بمصر، ١٢٨٤هـ، ص ٢٠٣،

^(٤) عن هذه المراسلات انظر: دشت ١٤٢، ص ٤١ لسنة ١٠٣١هـ، وكذلك دشت: ١٤٣، ص ٤٧٢ لسنة ١٠٣٤هـ.

^(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ١٨٤٧، ص ٦٩٨

وإسكان الفقراء أكثر منها كمعبد^(١). والعلاج داخل الكنائس والأديرة لم يقتصر فقط على النصارى بل شمل المسلمين أيضا، فدير البنات الكائن بقصر الجمع به عدة أماكن قد خصصت لشفاء المرضى وكانت الرأيسة هيلانة ابنة الذمى منصور هي المسئولة عن أمر الشفاء والتداوى داخل الدير، فتسجل الوثائق وجود زوجة يوسف النجار داخل هذا الدير لأجل الشفاء من التوعك الذى أصاب جسدها يوم ٢٦ محرم ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م، وقد مكثت عدة أيام، وكان من شروط الدير أن يسلم المريض لرأيسة الدير ما معه من متعلقات على سبيل الأمانة، ويحصل عليها عند إتمام شفائه، وهو ما حدث مع زوجة يوسف النجار المذكورة^(٢).

ولأجل إتمام عملية الشفاء لابد من توفير الأدوية والمراهم اللازمة، وأغلب هذه الأدوية كانت تستخلص من النباتات والأعشاب الطبية، هذا ما لاحظته الرحالة ساندى Sandys فى مصر^(٣). كذلك ورد بيورلدى شريف فى آخر صفر ١٠٥٨هـ/١٦٤٧م من الوزير محمد باشا قرر فيه إبقاء فخر الجراحين نور الدين على بن الشيخ شهاب الدين أحمد الزفتاوى الجراح فى وظيفة المشيخة على طائفة الجراحين أولاد العرب بالبيمارستان المنصورى والقاهرة ومصر القديمة وبولاق وضواحيها، وكل من حمل المرهمدان (المراهم)، والمجبرين من أولاد العرب يبقى فى وظيفته، وأن شيخ الجراحين بالبيمارستان المذكور هو الذى يتكلم عن طائفة المجبرين وكل من حمل المرهمدان (المراهم) من أولاد العرب بمصر القديمة والقاهرة وبولاق وضواحيهما^(٤).

وتجنباً لحدوث مثل هذه الأمراض وانتشارها وضع الكثيرون العديد من النصائح أو ما يمكن أن نسميها " بالوصفات " قد أوصوا بتناولها، فعلاء الدين المكي قد أوصى " بشرب

(١) Henry Castela: Voyage De "1600-1601", p159

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٦١٥، ص ٢١٧

(٣) George Sandys: op. Cit. P150

(٤) محكمة الباب العالى: س ١٢٥، م ١٣٩٨، ص ٤٢٦

اللبن لأن به خمس فوائد هي نشاط وتهضيم وتحليل بلغم وتطيب أنفاس وعون لعائده "، وفي موضع آخر قد أوصى " بالكمون لفوائده العديدة للأذن " (١).

ومن المفارقات التي وجدناها هنا أن علاء الدين المكي يقر بأهمية البن عام ١٠١٩هـ/١٦٠٨م ومدى فوائده لجسم الإنسان، رأينا في موضع آخر إبراهيم اللقاني يقرر عام ١٠٢٥هـ/١٦١٤م بأن البعض تعتبر البن أو القهوة شئ منكر كالخمر (٢).

أما أبو الخير عصام الدين وهو من أهل القرن العاشر الهجري (ت ٩٦٨هـ) قد وضع بعض " الوصفات " التي يتوافر بعضها بمصر القديمة. فقال أن " من الفواكة التفاح والسفرجل والرماني والتوت والحامض والليمون، وشراب النارج والليمون والتفاح والرماني والحامض مع ماء الورد وماء البهراجم مع شم الورد والكافور والصندل من استعمل ذلك سلم من الوباء " (٣). لا شك أن الكثير مما أوصى به عصام الدين قد وجد بالمدينة خلال القرن السابع عشر الميلادي.

وهكذا أصبحت الصحة واضحة المعالم إلى حد ما داخل مصر القديمة خلال القرن، فأمر الكشف على المريض أو الشخص المقتول كانت محط اهتمام من جانب المسؤولين، فدائما ما نذكر الأوامر التي تصدر من الحاكم الشرعي أو الصوباشي بالمدينة بالكشف على هؤلاء حتى تتضح لهم البيئة ليأتي الحكم أكثر مصداقية. ورأينا عندما تعرضنا للرقيق كيف أنهم حرصوا على الكشف على هؤلاء الرقيق والتأكد من بكاره الإمامة منهم، وكذلك الكشف على اللحوم واستبعاد " الفاسد أو البايث منها " على حد تعبير الوثائق، هذه الأمور التي كانت تراعى داخل " مذابح مصر القديمة " خاصة المخصصة للحوم البقرى أو الجاموسى منها.

(١) علاء الدين المكي: عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد. مخطوط بدار الكتب، جغرافيا ٣٤٧٢، ميكروفيلم ٢٤٥٧٣،

ص ٨٧، وكذلك ص ٩٠

(٢) إبراهيم اللقاني: المصدر السابق، ص ٥

(٣) أبو الخير عصام الدين: الشفا لاندواء الوباء. مخطوط بدار الكتب، طب ٩٠٠، ميكروفيلم ٣١٢١٢، ص ٣١

الفصل السادس

الحياة الدينية والثقافية

الحياة الدينية والثقافية

هناك ارتباط كبير بين النواحي الدينية والثقافية في مصر القديمة خلال القرن السابع عشر، فقد ظهر ذلك لنا بوضوح من خلال استقراء سجلات المحاكم الشرعية، وهو أمر لم يكن جديد على العصر العثماني، فهذا التلازم موجود منذ العصور الوسطى حتى بعد ظهور المدارس لدى السلاجقة والأيوبيين وانتشارها في بقاع متفرقة من العالم الإسلامي بما في ذلك مصر. لذلك أثرت معالجتها معاً حتى يتحقق الربط وتعم الفائدة.

أولاً: الحياة الدينية:

لقد شهدت أرض مصر منذ عهد الفراعنة الدعوة إلى عبادة الآلهة والرغبة في نعيم الآخرة، وعلى أرضها ظهرت أول دعوة لوحداية على يد فرعون مصر " إخناتون ". وعندما ظهر الإسلام وفتحت مصر عام ٦٢١هـ / ٦٤١م وصارت ولاية إسلامية أصبح الدين الإسلامي جنباً إلى جنب مع المسيحية يمثلان عنصرين أساسيين في فكر ووجدان المصريين وخلال العصر العثماني كانت الصبغة الدينية هي السمة الواضحة في العادات والتقاليد وكذا المنشآت ففي مصر القديمة نجد هذه الصبغة واضحة كل الوضوح نلمسها في صور الحياة والمعاملات ورجال الدين من وعاظ وفقهاء قد أثروا الحياة الدينية بها فترة القرن السابع عشر. ولا ننسى أن بالمدينة قطبين أساسيين قد عاشا وتعايشا معاً ربحاً من الزمن، القطب الأول: الذي ظهر بها منذ القدم نعى الأقباط المسيحيون معهم قلة من اليهود، والقطب الثاني: وهم مسلمي المدينة الذين استوطنوا مع قدوم الفتح العربي وبنوا مساجدهم بجوار كنائس النصارى. بذلك تميزت الحياة الدينية داخل المدينة بالخصوصية الشديدة والحساسية المفرطة

فى بعض الأوقات. لذلك كان علينا عند معالجة مظاهر الحياة الدينية للمدينة أن نركز على هذه الخصوصية.

مظاهر الحياة الدينية:

١. الشعائر الإسلامية ورجال الدين:

لقد كانت مصر القديمة أول قبلة استقبلها عمرو بن العاص عندما جاء لمصر فاتحاً، حيث بنى بها أولى جوامع مصر الإسلامية فى منطقة مارى جرجس وقصر الشمع التى انتشرت بها العديد من كنائس النصارى فأراد بذلك تأكيد الصبغة الإسلامية ليس على المدينة فحسب بل على مصر قاطبة. وقد تبع ذلك تشييد العديد من الجوامع بالمدينة على فترات من الزمن^(١) وتعلق بهذه المساجد العديد من رجال الدين الذين أشرفوا على الشعائر بها من خطباء ومؤذنين ووعاظ. فمن الخطباء الشيخ الفاضل عثمان بن أبى السعود اشتهر بابن مسطوله بجامع عمرو بن العاص والذى استمر يمارس الخطابة به أكثر من ١٤ عام نعتقد أنها تبدأ منذ ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م وما بعد عام ١٠٦٩هـ/١٦٦٠م^(٢). وجامع عمرو أيضاً استمر الشيخ عبد القادر بن شمس الدين ممارسة الوعظ به منذ عام ١٠١٨هـ^(٣) وعمل كل من الأخوين زين الدين أبو السرور وزين الدين أبو السعود ولدا الشيخ شمس الدين محمد البحرى بالخطابة فى جامع الآبار الشريفة ابتداء من شهر محرم ١٠١٤هـ/١٠٥٠م إضافة إلى ممارستهما كتابة الغيبة بجامع عمرو^(٤). وهناك أخوين آخرين عملا فى الخطابة أيضاً بجامع المقياس بروضة مصر القديمة وهما أحمد وعبد المنعم ولدا الشيخ عثمان الجروانى.

(١) راجع الفصل الأول.

(٢) محكمة مصر القديمة : س ١٠٠، م ٦٧١، ص ٣١٨، وكذلك س ١٠٣، م ٥٢٩، ص ٢٠٨.

(٣) محكمة مصر القديمة : س ٩٨، م ١٧٥، ص ١٧٥.

(٤) الباب العالى : س ٨٥، م ٤١٠، ص ٧٤.

وكان هؤلاء الخطباء يحضرون كل جمعة لإقامة الصلاة وسط أعداد كبيرة من المصلين بعد إقامة الأذان بواسطة العديد من المؤذنين بالمدينة. فكان الشيخ إبراهيم بن نوح من أشهر مؤذني جامع عمرو، والشيخ عبد الغفار بن الشيخ يوسف الريدي الأزهرى الذى أقر كمؤذن بمسجد إبراهيم النعمانى قرب شونه غلال مصر القديمة فى ٢٤ رجب ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م^(١). وغيرهم كثيرون. وقد علق الرحالة نتزو على هؤلاء المؤذنين، فيرى أنهم يشبهون صاحب الجرس فى الكنسية، فكانوا يصعدون لأعلى المئذنة ويصيحون بأعلى أصواتهم بعدما يضعون أصابعهم فى أذنيهما، وفى كل مئذنة نحو ١٩ أو ٢٠ مؤذن يصيحون فى اليوم نحو ٥ مرات ويوم الجمعة ٦ مرات، ويقرر أن هذا يسبب ضوضاء كبيرة^(٢).

وقدم لنا نتزو شيتز أيضاً وصفاً دقيقاً لأداء الصلاة داخل المسجد، فيدخل الرجال لتأدية صلاتهم أما النساء فلا يذهبن إلى المساجد، وكانوا يتركون أحذيتهم الحمراء والصفراء فى الخارج أمام الباب، وبعد أن يفرغوا من الصلاة يأخذوا أحذيتهم ويذهبون لمنازلهم. وقد تعجب من كيفية تعرف كل واحداً منهم على حذائه رغم تشابه الألوان^(٣).

وقد وجد العديد من الفقهاء بالمدينة وهؤلاء ممن عرف عنهم الديانة والخير والإصلاح وحب الفقراء والمساكين، كل هذه الصفات تنطبق على كلاً من الشيخ محيى الدين عبد القاسم ونجله الشيخ شهاب الدين أحمد وعمه الشيخ العلامة زين الدين ناصر ولدا المرحوم الشيخ نور الدين على بن المرحوم شرف الدين موسى سبط الشيخ العارف بالله

(١) محكمة الباب العالى: س ١٢٥، م ٤١٢، ص ١٣٥.

(٢) Neitzschitz. Op. Cit. P221

(٣) Neitzschitz. Op. Cit. P202

تعالى ابن السعود الجارحى، وكل هؤلاء جميعاً من جملة فقهاء مصر القديمة الذين ابتداء ذكرهم منذ عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م^(١).

ولاشك أن الفقه آنذاك كان له نصيب لا بأس به فى مصر العثمانية فالشيخ على الأجهورى (٩٦٧ - ١٠٦٩ هـ/١٥٥٨ - ١٦٥٨ م) من أشهر هؤلاء الفقهاء ورسائله التى أشرنا إليها من قبل (رسالة فى المغارسة) وكذلك كتابه فى الفقه عن " الإجابة عن أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها " وكلها أمور تدور حول البيع والشراء، وكيفية الطهارة والوضوء وأمور العبيد والجوارى^(٢). وكذلك رأينا الفقيه محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن علوان الزرقانى المصرى الملكى الأزهرى (١٠٥٥/١١٢٢هـ) الذى كتب كتابه حول الإجابة على بعض العقائد والتصوف^(٣). وآخرون كتبوا حول تحريم الدخان وشرب الخمر والبطوطة وما يترتب عنهم من أضرار بالمجتمع وهو ما رأيناه فى الفصل السابق.

ومن الأمور التى اعتاد عليها أهل المدينة الذهاب إلى القرافة فى يوم الجمعة، حيث توجد بها بعض المدافن التى كان يقدها المسلمون ويقرعون القرآن مع رمى سيقان الورود والريحان، وكلها أمور قد لفتت أنظار الرحالة الذين زاروا المدينة خلال القرن، وقد اعتبروها ضرباً من الجدل والشعوذة.

٢. الأحوال الدينية لنصارى مصر القديمة:

مصر القديمة ولاسيما منطقة قصر الشمع مستودع كنائس كما قلنا فى فصول سابقة. وهذا بالطبع نابع من كثرة الكنائس، التى بنيت بها خاصة منذ القرن الرابع أو الخامس

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٥٩، ص ١٩.

(٢) على الأجهورى: أسئلة وردت من المغرب، ص ١ وما بعدها.

(٣) محمد بن عبد الباقي الزرقانى المصرى: أسئلة وأجوبة - وهى أسئلة مختلفة فى العقائد والتصوف والأحكام الشوعية، مخطوط بدار الكتب، ٣٠ معارف عامة، ميكروفيلم ٤٦٠١٩.

الميلادى وليس بعد ذلك لأن الفقه الإسلامى أقر المبدأ الرئيسى وهو " لا كنيسة فى الإسلام "(١) . وكانت القاعدة الفقهية السائدة فى مصر العثمانية إبقاء الكنائس والأديرة القديمة قبل الفتح الإسلامى والموجودة قبل الفتح العثمانى وإجازة تجديد وترميم الكنائس القديمة(٢).

فقد استقر النصارى بحارة قصر الشمع فى وئام بعض الشئ تطبيقاً للمبدأ الذى أعلنه الروح القدس بقوله " أعلم أن معاشرتنا مع أبناء الجنس ومعاملتنا إياهم أمراً ضرورياً جداً لمعاشنا ... "(٣) . وبناء على ذلك مارس النصارى اليعاقبة والأروام بالمدينة شعائر ديانتهم داخل الكنائس دون تضيق أو تجنى من إدارة المدينة الإسلامية إلا فى الأمور التى تستدعى ذلك وهو ما سوف نلاحظه بعد قليل.

وقد مارس النصارى الرهبنة داخل دير مارى جرجس الذى خصص للبنات الراهبات اليونانيات Des Religieuses Greques المنقطعات للعبادة وممارسة الرهبنة فقط، وكان يدخله الفرنسيين للتبرك والزيارة(٤). وكذلك دير مارى مينا بقم الخليج كان يقطن به العديد من الرهبان.

والحقيقة أن الصبغة المسيحية التى ميزت الأحياء القبطية بمصر القديمة هى التى دفعت المسلمين إلى إثبات الوجود الإسلامى داخل تلك الأحياء من خلال إنشاء العديد من المساجد والزوايا، ونتيجة تجاور المساجد والزوايا للكنائس والأديرة جعل الأحياء القبطية هذه منطقة غليان وصراع دائم بين المسلمين والنصارى الأمر الذى اقتضى من السلطة الضرب بيد من حديد لاستتاب الأمن وإعادة السكينة.

(١) محمد عفيفى: الأقباط قى العصر العثمانى، ص ٧٩.

(٢) نفسه : ص ٨٠.

(٣) مجهول: قوت النفوس فى مخاطبة العريس والعروس، ١٣٦، لاهوت طلعت، ميكرو فيلم ٢٢٩٥٦، ص ٤.

(٤) M. T. E. Thevenot. Op. Cit. P253.

الدولة وتنظيم الأمور الدينية:

لا مرأى أن للأمن دور هام لضمان سير الحياة وانضباط الأمور داخلها أى مجتمع، فغياب دور الدولة يؤدي إلى شيوع الفوضى وعدم الاستقرار وتصبح الجريمة شئ عادى تحت مظلة القانون الواهى. إذن نتفق جميعاً أن وجود الرادع شئ ضرورى من أجل إفراز مجتمع آمن ومستقر ومتماسك. وإذا نظرنا إلى المؤسسات الدينية التى أشرنا إليها، نجدها تخص طرفى المجتمع المصرى مسلمين ومسيحيون، أما اليهود فلا نرى لمقدساتهم ذكرى بمصر القديمة سوى شذرات قليلة.

ولما كانت مقدسات المسلمين والمسيحيين متجاورة وقعت العديد من الحوادث والنزاعات على طول القرن السابع عشر^(١) ففى عام ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م برز أمرين من قبل الدولة للكشف على المساجد والكنائس بمصر القديمة أولهما: فى مستهل رجب حيث تم الكشف على زاوية الشيخ إبراهيم النعمانى داخل قصر الجمع والكنيسة التى تجاورها وهى كنيسة بربرارة. فوجدت الزاوية ممثلة بالأتربة والأحجار، أما الكنيسة تحوى أبنية جديدة، وأن النصارى قد أضافوا للكنيسة ما اختلسوه من أرض الزاوية، فأصبحت هذه الزاوية صغيرة الحجم معدمة وظهرت الكنيسة فى أزهى صورة لها^(٢). ولكن رغم ذلك أراد الحاكم الحنفى التحقق بنفسه دون الاستماع فقط من الكشافة أو المسلمين القاطنين بالمنطقة. فرغب فى الصعود إلى أعلى الكنيسة ليرى بنفسه، ولكن كان بابها مغلق، فأراد الصعود إلى كنيسة مجاورة لها هى كنيسة المعلقة فمنعه ناظرها مينا بن أبى الفرج

(١) ويشير الدكتور محمد عفيفى إلى أن عملية إنشاء الزوايا والمساجد فى الأحياء القبطية فى مصر القديمة ربما يعود ذلك إلى سكنى بعض المسلمين فى هذه الأحياء وبالتالي أصبحت الحاجة ضرورية لإتمام شعائرهم الدينية وإثبات وجودهم. وهو الأمر الذى تأكدنا منه بالفعل من خلال استقراء سجلات محكمة مصر القديمة ذاتها. أنظر : أ.د/ محمد عفيفى : المرجع السابق ، ص ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠ ، م ٣٣٨ ، ص ١٥٤ .

- سبق التعرف به - من الصعود. ورفض النصارى هذا دليل على وجود الزيادة فى الكنائس ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يحضرون دوابهم داخل زاوية النعمانية دون مراعاة قدسيتهما^(١). وثانيهما فى ١٣ رجب من نفس العام أمر الخوالى أيوب باشا بالكشف على الكنائس ونفس الزاوية، فقام كلا من الأمير صفر أغا - المعين من قبل الوالى بذلك - ومعه الأمير سليمان - صوباشى مصر القديمة آنذاك - بالكشف وتقصى الأمر، فإذا بهما يجدوا اختلاسا واضحا من أرض الزاوية لصالح كنيسة بربارة والمعلقة رغم محاولة المعلم ابشاي القسيس بحارة شنودة تبرير تعدى النصارى الصارخ بقوله " إن جميع مباني الكنائس الموجودة المستجدة العمارة فعلوه وجددوه بأمر من السلطنة الشريفة وبموجب أمر من قضاة العساكر السابقة " (٢).

وفى عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م أمر الوالى إبراهيم باشا بالكشف على الكنائس بمصر القديمة. فقام كلا من محمد أغا - المكلف بخصوص ذلك - ومعه الحاكم الشرعى الحنفى، والأمير محمد صوباشى مصر القديمة فكشفوا على دير مارى جرجس ودير النصارى الأروام الملكية ودير بابليون فوجدوهم على حالة جيدة بهم أبنية جديدة ونفس الحال بالنسبة لكنيسة سيدة النصارى وأبى سرجه بينهما جامع المرحوم إبراهيم النعمانى خراب متهدم ليس به أعمدة ولا أخشاب. وكشف على كنيسة بربارة ودير اليهود فوجدا مرتفعين البناء بينهما جامع خراب مغلق الأبواب. وأيضا كشف على كنيسة منقريوس ودير شنودة بحارة البسترك عامرتين بينهما مسجد مغلق^(٣).

(١) نفس: هـ: م ٣٣٨، ص ١٥٤.

(٢) نفس: هـ: م ٣٥٣، ص ١٦٣.

(٣) محكمة مصر القديمة: م ١٠٣، م ٦٨٨، ص ٢٦٦.

ولما كان للنصارى اليد العليا فى الخراب الذى حل بتلك الجوامع والزوايا، أمر محمد أغا مندوب الوالى بتسمير أبواب الكنائس المذكورة كإجراء تأديبى للنصارى، ما عدا دير البنات القبط فلم يتم تسميره نظراً لوجود البنات المنقطعات للعبادة به^(١).

إذن يتضح لنا أن تدخل الدولة فى الوقت المناسب لحسم النزاع وإقرار العدالة قد حد من النزاعات التى نشبت بين المسلمين والنصارى بدافع الدين. وساهمت بذلك فى الحفاظ على المؤسسات الدينية فى المنطقة، وبفضل هذا ما يزال الكثير منها باقياً حتى الآن وبفضل هذا أيضاً أعطت الفرصة لتلك المؤسسات لتتعم بالاستقرار وممارسة نشاطها فى جو من الأمن والاستقرار.

الأوقاف ودورها فى مصر القديمة:

الوقف هو صدقة جارية، وحبس العين والتصدق بالمنفعة، حيث يقوم الشخص بالتصدق برىح ما يملك سواء كان عقارات أو أطيان أو حوانيت أو خلافه لتصرف فى مصاريفها الشرعية ابتغاء وجه الله. ولسنا هنا فى معرض حديثنا عن أوقاف مصر القديمة بحاجة إلى التعرض لظروف الأوقاف وإدارتها إلا بالشئ اليسير الذى يخدم هدفنا وذلك لتعرض بعض المؤرخين لدراسة مثل هذا الموضوع الهام من تاريخ مصر فى الحقبة العثمانية^(٢).

وقد تعددت الأوقاف داخل مصر القديمة، حيث شملت أراضى زراعية وعقارات ووكانل وحوانيت وأحياناً معاصر ومصابغ وغيرها. وينفق ريع ذلك إما لبعض المؤسسات

(١) نفس: م ٦٨٨، ص ٢٦٦.

(٢) أنظر: دراسة الدكتور/ محمد عفيفى - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى العصر العثمانى.

كالمساجد والزوايا والكنائس وأحياناً الأضرحة والمدارس والأسبله أو للحرمين الشريفين ففى صورة مخصصات عينية أو نقدية^(١).

ويمكننا القول بأن تاريخ مصر القديمة ينخر بالعديد من الأوقاف خلال الحقبة العثمانية بوجه عام والقرن السابع عشر بوجه خاص وذلك نتيجة تبارى العديد من الأمراء والسلطين ورجال الدين بل والأفراد العاديين فى حبس بعض أملاكهم لفعل الخير.

أ. أوقاف الأمراء والسلطين:

قام السلطين المماليك بحبس بعض أملاكهم، والتى ما يزال بعضها باقياً على حاله خلال القرن السابع عشر. فقد كان لعز الدين أيبك التركمانى أوقاف على مدرسة وتربيه وخانقاه فى ساحل مصر القديمة المطل على النيل. ولكن للأسف عندما تم الكشف على هذا الوقف عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م بأمر من قاضى القضاة الزينى صيام الرومى، لم يعثر على أى معالم للتربة أو الخانقاه سوى منارة للمدرسة المذكورة^(٢).

كما كان لكلا من السلطان حقمق أوقافاً بمصر القديمة تولى نظارتها الشيخ شمس الدين محمد أبو الفضل بن وفا^(٣). وللناصر محمد ابن قلاوون عقارات أوقفها على جامعته الجديد بخط فم الخليج^(٤). وقد تم تأجير هذه العقارات لمدة سنة نظير مبلغ ستة أنصاف وتلثى نصف من الفضة لصالح الوقف. ويعود السبب فى ذلك - كما يرى بعض المؤرخين -

(١) حيث أبقى سليم الأول على الصدقات الموجه للحرمين من جهة أوقاف مصر والتى يقال لها الصر المكى أو الصرة السلطانية وهى المبلغ النقدى الذى اعتاد سلطين آل عثمان إرساله للحجاز. أو عيناً فى صورة دشائش سلطانية. وقدر المبلغ النقدى الذى يرسل للحجاز سنوياً نحو ١٤,٠٠٠ دوقية ذهب، وقد عمل السلطان سليم يعد ذلك على مضاعفة المبلغ. للمزيد أ،ظر: محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المائوسة فى أخبار مصر المحروسة، مكتب الثقافة الدينية، ط ١، ١٩٩٢، القاهرة، ص ٧٨.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ٥٣٢، ص ١٩٨.

(٣) نفسه: م ١٧٠١، ص ٦٦٨.

(٤) الباب العالى : س ١٦٠، م ١٠٣، ص ٢٩.

أن الأصل في الوقف هو حبس العين الموقوفة ولانتفاع بريعتها. ومن هنا كان الإيجار انتفاعاً بريع الأعيان الموقوفة، والإيجار كان منتشراً في عقارات الأوقاف وعقارات الأملاك سواء بسواء^(١).

وكان للأمراء نصيب وافر في الأوقاف. فمن أشهر هؤلاء نجد الأمير يوسف جوربجي من طائفة عزبان والمتحدث على المطبخ السلطاني، وملتزم ناحية زهرة بالوجه القبلي بحق النصف والقاطن هو بمصر القديمة. يوقف في عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٣م حوائيت وعقارات وأراضي زراعية وحوشاً في منطقتي فم الخليج ودار النحاس ويصرف ريع ذلك على مصالح وقف الصحابي محمد بن المقداد ومقام الإمام الشافعي والحرمين الشريفين^(٢). أيضاً نجد الأمير بهرام جوربجي من طائفة مستحفظان وملتزم ناحية المفهمين بإقليم الأطفيحية بالوجه القبلي والمقيم بمصر القديمة بوقف طاحون وفرن ووكانل وحوائيت وشونه معدة لخزن الحطب بدار النحاس وفم الخليج، ليصرف ريع ذلك له ولأولاده من بعده ثم لصالح ضريح الإمام الليث بن سعد السمرقندي بالقرافة وللحرمين الشريفين^(٣).

ولصالح زاوية السادات الوفائية أوقف الأمير مصطفى أوده باشي من طائفة عزبان وكتخدا عامل البحرين بمصر القديمة. جنية كاملة بروضة مصر القديمة^(٤). وتؤكد المصادر أن للأمير جانم الحمزاوي - أمير الحاج في بداية الفتح العثماني - أوقافاً بمصر القديمة^(٥).

(١) أ.د./ محمد عفيفي : المرجع السابق ، ص ١٤٥.

(٢) محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ٤١٨، ص ١٣٨ - ١٤٢.

(٣) محكمة مصر القديمة : س ١٠٣، م ١٠١، ص ٤٢ - ٤٥.

(٤) محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ١٢٧٤، ص ٤١٥.

(٥) دشت ١٥٥، ص ٥٦٥، بتاريخ ١٠٤٧هـ، هو جانم بن يوسف بن اركماس السيفي قاني بأي الحمزاوي نائب الشام كان، وقيل أن الأمير جانم الحمزاوي ولد بمدينة حلب فهو من أعيان أبناء الناس وقد رقى في دولة ملك الأمراء خيربك وصار صاحب الحل والعقد بمصر - للمزيد أنظر: ابن إياس بدائع الزهور، ص ٣٥٢.

ب. أوقاف الأفراد ورجال الدين:

وتنخر سجلات المحاكم الشرعية بالعديد من الوقفيات للأفراد ورجال الدين من أهل مصر القديمة. ففي عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م أوقف الشيخ أبو السعود الجارحى معصرة كاملة لعصر الزيت الحار والحلو بخط حمام جمدار قرب مدرسة الكويكية وطاحونين بنفس المنطقة لطحن البزر والقرطم، كل ذلك له ولأولاده ومن بعدهم يصرف ربع ذلك على جامعة بخط كوم الجارح والفقراء القاطنين بمنطقة الجامع المذكور^(١).

وبخط حمام جمدار أيضاً قرب مقام سيدى على الجعجعى أوقف الشيخ شهاب الدين أحمد بن ابن الرداد - الأمين على قيامه نهر النيل فى فترة (١٠٦٧هـ / حتى وفاته عام ١٠٧٦هـ) قطعة أرض وما عليها من أصول الاتل لصالح زاوية بنى الوفا^(٢).

وهناك العديد من الأفراد البارزين يرد ذكرهم بصورة واضحة وأدرجت أسمائهم بتاريخ المنطقة، ومن هؤلاء الحاج على البنيوى القللى الذى كانت له صولات وجولات^(٣). ففي عام ١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م أوقف عقارات وفواخير بخط فم الخليج لصالح تربته ولضريح الشيخ نور الدين على بحارة الجمالة بالخط المذكور^(٤).

يتضح لنا أن الأوقاف قد تعددت سواء من جانب الأمراء والأفراد العاديين داخل مجتمع مصر القديمة الأمر الذى أدى إلى سير الحياة بشكل طبيعى داخل هذا المجتمع، فلا يعيب عن أذهاننا أن الأوقاف من أهم المصادر الشرعية للإنفاق على قطاعات كبيرة داخل المدينة. والشئ الذى لاحظناه عند التعرض لمسألة الأوقاف فى مصر القديمة موجهاً نحو

(١) حجة وقف الشيخ أبو السعود الجارحى - رقم ٢٨٧.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٥٨٤، ص ص ٢١٨، ٢١٩.

(٣) راجع الفصل الثانى.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠١، م ١٨٠، ص ٦٧.

الحرمين الشريفين فلا نكاد نعثر على أى حجة وقف داخل بطون السجلات حتى تطالعنا بأنها موجهة للحرمين الشريفين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

فقد اهتمت مصر القديمة اهتماماً كبيراً بأوقاف الحرمين الشريفين وخصصت لها ناظراً يرعى شئونها مثلما قام الأمير نذير أغا بتأجير أراضى بقم الخليج لصالح الحرمين^(١). والأمير يوسف أغا الذى جمع بين وظيفتى أغا الرسالة السلطانية ببولاق ونظارة أوقاف الحرمين الشريفين بمصر القديمة عام ١٠٩٦هـ / ١٦٨٦م^(٢).

التصوف وبيوت الصوفية:

فكما ذكرنا أن المصريين من أقدم شعوب الأرض تفكيراً فى الدعوى إلى عبادة الآلهة، والانقطاع للعبادة - فلما ظهر الإسلام أصبح الانقطاع إلى الله والزهد والتتسك أهم ما ميز حياة المصريين وهذا اللون من العبادة أطلق عليه " التصوف " ، ونعت من يمارسونه باسم " المتصوفة " ^(٣).

وكان التصوف من أهم السمات التى تميز الحياة فى مصر العثمانية حيث كان المتصوفة يقيمون فى جماعات تحت إدارة شيوخهم فى معابد خاصة بهم أطلقوا عليها أسم " الزوايا " ^(٤). وقد كان التصوف فى بداية الأمر فردياً ثم أصبح بعد ذلك ظاهرة اجتماعية انفصل معه المجتمع بآثره.

(١) محكمة مصر القديمة : ص ١٠٢، م ٥٥١، ص ٢٠٠٠.

(٢) محكمة بولاق : ص ٥٨، م ٧٧٣، ص ٢٨٧.

(٣) وقد قيل فى التصوف:

تورع وتب وازهد وصل وصم ولا .. تتم واعتزل واصمت وراقب وأيقن
وكن دائماً فى الذكر والشكر قائماً .. على الصدق والإخلاص فى كل موطن

ولمزيد من هذه الأشعار أنظر : علاء الدين المكي: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٤) أنظر الدراسة المفردة لذلك للدكتور توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان العصر العثماني - سلسلة تاريخ

المصريين رقم (٢) ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٨ ، ص ٣٦.

وبجانب الزوايا وجدت الخوانق التي يرى على مبارك أنها فى الأصل لفظ فارسى يعنى بيت العبادة، ثم عرفت بعد ذلك باسم التكايا وهى أماكن لإقامة الدراويش من الأعاجم. وللتصوف نصيب وافر داخل مصر القديمة، فعلى أرضها قامت العديد من الزوايا وبعض الخوانق " التكايات " واللذان ارتبطا بهما الكثير من الفرق الصوفية التى يطلق عليها فى المصادر لفظ " السادات ".

كما ذكرنا من قبل أن الدرس كان يقام داخل هذه الزوايا مثلما كان يحدث داخل زاوية السادات الوفاية وزاوية ساعى البحر التى عثرنا على مكتب " كتاب " ملحقا بها يتردد عليه الطلاب عام ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م^(١).

ومن أشهر المتصوفة الشيخ زين الدين عبد الجواد بن الشيخ حجازى القمنى والشيخ زين الدين أبى السرور بن شمس الدين الحواشى اللذان مارسا التصوف داخل زاوية الشيخ شهاب المجذوب فى النصف الأول من القرن السابع عشر^(٢).

والشئ الملفت للنظر أن نجد زاوية تنتسب لامرأة ، كزاوية الشیخة هنیدة بحارة الخامسة بقم الخليج، صحيح أنها لم يرد الكثير عنها، ولكن ثبت لنا أنها كانت عامرة بدلیل وجود امرأة تدعى مباركة بنت عامر الدخيمسى توقف عقارا عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م بصرف ريعه على مصالح الزاوية^(٣). واستقرائنا لهذه الملاحظة يؤكد لنا حقيقة تاريخية هامة لا يجب أن تغيب عن أذهاننا وهى أن المرأة بوجه عام خلال العصر العثمانى لم تكن مكتوفة الأيدى، بل كان لها دورا بارزا فى شتى مناحى الحياة مثلما كان لأقرانها فى سابق العصور^(٤).

(١) محكمة مصر القديمة: السجل السابق: م ٢٧٤، ص ١١٩.

(٢) دشت ٥٥، ص ٥٦٥ لسنة ١٠٤٧هـ .

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٩٦٥، ص ٣٣٤.

(٤) للمزيد أنظر: غادة أسامة: المرأة فى العصر العثمانى - رسالة ماجستير تحت الإعداد بآداب القاهرة، تحت إشراف أ.د/ محمد عفيفى أيضا.

أما الخوانق أو النكايات، فقد وردت في العصر العثماني بلفظ تكايا، ولكن لم تكثر في مصر القديمة، فعلى أرضها شيد من قبل السلطان عز الدين أيبك التركماني خانقاه على ساحل مصر القديمة والتي آل أمرها إلى خراب في العصر العثماني، وقد وردت في المصادر بلفظ خانقاه مما يؤكد قولنا. ومن أشهر النكايات، تكية الأمير عبد الباقي والتي ارتبط بها مجموعة من الوظائف مثل البوابة والفراشة والخدمة، وتولى شئونها ناظرًا يتم تعيينه من قبل قاضي القضاة الذي قام بإقرار الأمير ذو الفقار جاويش بنظارتها عام ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م^(١). ثم من بعده تولى ابنه الأمير محمود جاويش^(٢). وهناك تكية الأعجام بالقصر العيني التابع لمصر القديمة، وقد تولى نظارتها الشيخ الورع شمس الدين محمد بن الشيخ فضلى شيخ طائفة الأعجام الذى اجتمع له الكثير من المريدين^(٣). وتكية القصر العيني هذه معدة لعمل الذكر كل ليلة بعد العشاء أو حضرة كل يوم جمعة. بها ضريح الشيخ العيني وبها أيضاً مساكن لسكنى الصوفية ولها مرتب الروزنامة أربعون ألفاً وتلثمائة وثمانية وستون قرشاً^(٤). وتكية الينكجيرية بخط فم الخليج^(٥).

وقد انتظم المتصوفة في فرق متعددة يعود إنشائها إلى ما قبل العصر العثماني، وكانت الفرقة الواحدة تتشعب أحياناً إلى عدة فروع، وأحياناً أخرى إلى أكثر من جهة داخل القطر المصري، وكان أقدمها فرقة القادرية التي أسسها عبد القادر الجيلاني عام ٥٦١م والرفاعية التي أنشأها أحمد الرفاعي في ٥٧٦م والأحمدية نسبة لأحمد البدوي في ٦٧٥م،

(١) نشت ١٦١، ص ٩٠٤ لسنة ١٠٥٢هـ.

(٢) الباب العالي: س ١٦٠، م ٧٦٨، ص ١٩٦.

(٣) محكمة مصر القديمة: س ١٠٣، م ٧٣٢، ص ٢٨١.

(٤) على مبارك، الخطط، ج ٦، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٦٢.

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٨٠٧، ص ٣١٨.

والسعدية التى يذكر البعض أنها فرع من فروع الرفاعية وهناك الوفاية نسبة للسادات الوفاية^(١). وأيضاً الحويوية التى كانت لها زاوية خاصة بها بقم الخليج^(٢).

وقد وجدت لهذه الفرق جماعات داخل مصر القديمة، وارتبط بها مجموعة من المتصوفة. فانتظمت هذه الفرق تحت مظلة شيخ الطائفة ونقيبها اللذان يرعيان شئون طائفتها ويحافظان على إقامة شعائرها وصفاتها المميزة لها دون غيرها من الفرق، فالقادرية وجدت بخط حمام جمدار ولبس أهلها الزى الأخضر وخضعوا لإشراف شيخهم، ومارسوا التصوف وقراءة القرآن داخل زاوية العارف بالله تعالى الشيخ محمد ساعى البحر^(٣) واستمعوا لدروس شيخهم شمس الدين محمد بن عبد المغيث الأمام بالزاوية المذكورة^(٤). أما الحويوية فينسبون إلى العارف بالله تعالى محمد الحويوى وزاويته الكائنة بقم الخليج، حيث كانوا يمارسون الذكر بهذه الزاوية. وتذكر الوثائق أسم السادة الحويوية مدرجاً مع الرفاعية فنقول " السادة الحويوية الرفاعية بمصر القديمة " ومعهم السادة السعدية أحد أفرع الرفاعية واللذان انتشر فقرائها داخل مصر القديمة. ويذكر أن أشهر شيوخ السادة الحويوية الشيخ زين الدين صالح بن الشيخ سراج الدين عمر، الذى تزوج بامرأة من الوجه القبلى عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م على صداق قدره اثنان وثلاثين قرشاً^(٥).

والسادة الأحمدية انتشروا بمنطقتى حمام جمدار وقم الخليج، وكانوا بجانب ممارستهم الدينية قد اندمجوا نوعاً ما فى الحياة الاقتصادية، فكان نقيبهم مثلاً فى عام ١٠٨١هـ/١٦٧١م يعمل زياتاً فى قم الخليج^(٥). وأيضاً على بن حسن البباوى خليفة السادة

(١) د./ توفيق الطويل: المرجع السابق ، ص ٦١.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٨٧، ص ٣٦.

(٣) راجع الجدول السابق الخاص بحصر الزوايا.

(٤) محكمة مصر القديمة : س ١٠٥، م ١٩٨، ص ٦٩.

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٢، م ٨٢٠، ص ٣٢٢.

(٥) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ٢٣١، ص ٩٨.

الأحمدية بحمام جمدار كان له بزمة المعلم عامر بن سلطان - من أهالى كوم أزيح بالوجه القبلى والرايس ببحر النيل - ثمن بن ودخان وقرض شرعى^(١).

مما سبق يمكننا القول أن التصوف قد أنتشر بشكل واضح فى مصر القديمة ولاسيما منطقتى حمام جمدار وفم الخليج، ولم يكن دور هؤلاء المتصوفة باهتاً، بل شاركوا بفاعلية داخل مجتمع مصر القديمة فى النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بجانب الحياة الروحية.

ثانياً: الحياة الثقافية:

لقد أثرت معالجة الجوانب الفكرية متلازمة مع النواحي الدينية نظراً لارتباط المؤسسات الدينية والثقافية معاً، فقد كان العلم يتم داخل المساجد والمدارس على حد سواء. وقد ورث العصر العثمانى هذه الفكرة من عصور سابقة عليه.

وقد درج الكثير من المؤرخين على وصف العصر العثمانى فى تاريخ مصر بأنه عصر تخلف فكرى، بسطت الركاقة وضعف الأسلوب ردائها على مؤلفات العصر. وأكثر من ذلك، فقد قيل أن الرعاية التى لقيتها الثقافة فى العصر المملوكى من جانب الهيئة الحاكمة، قلت وانعدمت فى العصر العثمانى، ولم يعد أصحاب القلم يجدون التشجيع الذى يحفظ لهم قوتهم. ويحدثنا أحد كتاب العصر قائلاً " وزماننا هذا لا يعيش فيه إلا من عنده طرف من التمسخر والخلاعة والدبابة والصقاعة، ولهذا قال الشاعر:

مات من عاش بالفصاحة جوعاً وحظى من يقود أو يتمسخر^(٢)

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٩٥، م ١٤١، ص ٥١ - وقد وضع أ.د/ سعيد عاشور مؤلف خاص عن السيد أحمد البدوى به شرح وافى عن سيرته وخلفائه من الأحمدية.

(٢) أحمد شلبى بن عبد الغنى الحنفى المصرى: أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات. تحقيق أ.د/ عبد الرحيم عبد الرحمن - القاهرة - ١٩٧٨، ص ١٨.

ويستطرد قائلاً " وقد تساق الأرزاق لمن لا يدرك الخط في الأوراق ويحرم صاحب البلاغة ولا يجد من القوت بلاغه " (١).

ولكن في الحقيقة رغم كل ما قيل، لم تكن الصورة قائمة على طول الخط فالحياة الثقافية لم تكن مهمة خلال العصر العثماني. ولم يكن العلماء مهملين من قبل الهيئة الحاكمة، فإن كان بعض الولاة لم يلتفت إلى رجال العلم لا يعني ذلك أن كل الولاة كذلك. فنذكر المصادر العديد من الولاة في مصر العثمانية، كانوا يحبون العلماء ويقربونهم ويجزلون لهم العطاء. فالوزير مصطفى باشا " ١٠ جمادى الأول ١٠٢٧/٢٢ ذى الحجة ١٠٢٧هـ — ٦ مايو ١٦١٨/١١ ديسمبر ١٦١٨م " . " كان ليناً جداً محباً للعلماء والفقهاء " (٢) . والوزير بييرم باشا " ١٩ شعبان ١٠٣٥/٩ محرم ١٠٣٨هـ — ١٦ مايو ١٦٢٦/٨ سبتمبر ١٦٢٨م " كان أيضاً محباً للعلماء والفقهاء (٣). وغيرهما، بل أن بعض هؤلاء الولاة كانوا من العلماء، فكان الوزير جعفر باشا (٩ ربيع الأول ١٠٢٨/٢٤ شعبان ١٠٢٨هـ — ٢٤ فبراير ١٦١٩/٦ أغسطس ١٦١٩م) عادلاً وعالماً (٤). وربما لم يهتم بعض الولاة بالعلماء لعدم استقرارهم بسبب وجود بعض الفتن والثورات أو انتشار المجاعات التي كانت تخيم على ربوع البلاد في بعض السنوات.

فكان التدريس يتم داخل الكتاتيب والمساجد والزوايا والمدارس بصورة ملحوظة، وقد انتشرت هذه الكتاتيب في أنحاء متفرقة من مصر القديمة والتحق بها العديد من الأطفال الأيتام، حيث يتم تأديب هؤلاء الأطفال وتلقينهم أصول الدين من قراءة القرآن والأحاديث وأصول الفقه والتفسير وكان المعلم في تلك الكتاتيب يطلق عليه لقب " مؤدب الأطفال " ومن

(١) نفس المصدر، ص ١٨.

(٢) محمد بن ابن السرور البكري: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٣) يوسف الملواني: المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٤) نفس المصدر، ص ١٧١.

هؤلاء الذين تردد ذكرهم الشيخ جمال الدين يوسف بن خليل عام ٩٧٠هـ^(١) والشيخ حسام الدين عام ١٠١٨هـ/١٦٠٨م^(٢). وكانت الكتاتيب تلحق بالمساجد والزوايا والأسبلة، فقد وجد كتاباً أعلى سبيل جامع السويدية^(٣). وكتاب بزاوية ساعى البحر كان الأطفال يتعلمون فيه القراءة عن طريق ألواح معدة لذلك^(٤). وكان العلم يدرس داخل زاوية السادات الوفائية أيضاً. وفي المساجد كانت تقام حلقات العلم منذ العصر المملوكي، فيقول المقرئ "إن جامع عمرو بن العاص كان له سنة ٧٤٩هـ بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه"^(٥). وقد استمرت هذه الحلقات في العصر العثماني ففي عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٨م قام أحمد جاويش بن محمد بقراءة العلم داخل جامع عمرو بعد وفاة الشيخ محمد بن أحمد الوراق^(٦). وكذلك الحال في مسجد الآبار النبوية، فقد وجد به العديد من القراء وكان يتولاهم شيخ أطلق عليه "شيخ القراء بالآبار النبوية" مثلما تولى الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ على الشرنوبى هذه الشياخة عام ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م^(٧). وقرر الشيخ أحمد الشافعي الأزهرى عام ١٠٨٦هـ — ١٦٧٦م في وظيفة تدريس بجامع يونس.

وتعددت المدارس داخل مصر القديمة أيضاً. فمن هذه المدارس ، مدرسة السويدية التي أقيمت فيها الخطبة بجانب دروس العلم^(٨). ولفترة من الزمن كانت السويدية مقراً لمحكمة

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٠، م ٢١٨١، ص ٤٣٣.

(٢) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ٥٤، ص ١٧.

(٣) محكمة منصر القديمة: س ١٠١، م ٨٠٤، ص ٣٠٣.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٠، م ٢٧٤، ص ١١٩.

(٥) الدارس في مصر الإسلامية: المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(٦) الباب العالي: س ١٣٧، م ٢٧٣، ص ٩٨.

(٧) نشت ١٤١، ص ٣١٥.

(٨) نشت: ١٤٤، ص ١٣٠ — وذكر أنه من الضروري ترتيب العلوم إذا أردت الإصلاح فنبداً بالعلوم العربية واللغة والصرف ثم مروراً بالرياضيات والصاب وعلوم السنة والقرآن. للمزيد أنظر: محمد المرعشى: ترتيب العلوم، مخطوط بدار الكتب، ٩٧ معارف عامة، ميكرو فيلم ٤٥٩٢١، ص ٣.

مصر القديمة، ويعنى ذلك أن المدرسة بجانب دورها الثقافى كانت مكاناً للتقاضى، أيضاً مدرسة عبد العزيز الخرنوبى بخط دار النحاس اتخذت مقراً للمحكمة، حتى أطلق عليها مسمى " المحكمة القديمة " فمنذ القرن السادس عشر والقضاء يمارس بشكل طبيعى بها حتى بداية القرن السابع عشر الذى شهدت خلاله فترات من الإهمال وتعرضت للسراقات، حيث سرق أغلب رخامها وأخشابها وبلاطها، وظلت معطلة لأكثر من أثنى عشر سنة. أى فى الفترة من ١٠٨٠هـ وحتى ١٠٩٢هـ ، ولكن قبل عام ١٠٨٠هـ كانت عامرة تمارس فيها الشعائر بكل دقة وانتظام. ولكن فى الربع الأخير من القرن السابع عشر وبالتحديد عام ١٠٩٨هـ/ ١٦٨٨م أصبحت الخرنوبية مرة أخرى مقراً للمحكمة بدلاً من السويدية^(١).

على أن أعظم المدارس فى مصر القديمة مدرستا الخشابية^(٢) والشريفية بخط جامع عمرو بن العاص، فمدرسة الخشابية توجد داخل جامع عمرو نفسه بينما توجد الشريفة خارج الجامع، وكان يتم تدريس الفقه بهما خاصة الفقه الشافعى^(٣). والمدرسة الشريفة يعود إنشائها إلى عهد صلاح الدين الأيوبي. فيقول على مبارك " إنها أول مدرسة حدثت بديار مصر كانت بجوار الجامع العتيق بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ وعرفت بالمدرسة الناصرية وكانت للشافعية^(٤). وقد زارها ابن جبير وقال عنها فى رحلته " أنها مدرسة قرب الشافعى لم يعمر بهذه البلاد مثلها ولا أوسع مساحة ولا حفل بناء بخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته..... " (٤) .

(١) محكمة مصر القديمة: س ١٠٥، م ٢٨٤، ص ٩٩، ونفس السجل م ١٠٢٣، ص ١٢٦.

(٢) ترجع تسميتها بالخشابية لوجود درابزين من الخشب دائراً عليها. أنظر محكمة مصر القديمة، س ١٠٤، م ٨١٩، ص ١٤٧٢.

(٣) دشت ١١٩، ص ٥٤٣ لسنة ١٠١٢هـ.

(٤) على مبارك: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤) المدارس فى مصر الإسلامية: المرجع السابق، ص ١٥٢.

وكان التدريس خلال القرن السابع عشر يتم على يد أحمد المشايخ مقابل أجر معلوم من خلال "الايستمار" الذي يحدد فيه نوع الوظيفة والأجر المتقاضى. ففي الايستمار الصادر من محكمة الباب العالي في ١٦ جمادى الثانية عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م تم تعيين الشيخ شمس الدين محمد الفيومي لتدريس الفقه الشافعى بمدرستى الخشابية والشريفية بدلاً من الشيخ برهان الدين المأمونى الشافعى نظير أجر سنوى معلوم قدره ثلثمائة وخمسة عشر نصفا من النحاس من مدرسة الخشابية، أما أجره من الشرفية فقد بلغ نحو مائة نصف فقط^(١). وتردد ذكر الكثيرين من مدرسى هاتين المدرستين مثل الشيخ زين الدين سعود الطبلأوى الذى قام بتدريس الفقه فى الخشابية عام ١٠١٢هـ/١٦٠٢م والشيخ شمس الدين محمد الشعراوى والشيخ إبراهيم بن على الغزولى والشيخ زين الدين عبد الواحد الشنوانى. ولم يكتف بعضهم بالتدريس، فقد وجدنا شمس الدين محمد الحميدى يجمع بين وظيفتى التدريس فى الخشابية ووظيفة الطب بالبيمارستان المنصورى^(٢) فى عام ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م، أى أن الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرؤوف الحميدى كان طبيباً ومعلماً فى آن واحد^(٣). ولكن للأسف تعرضنا الخشابية والتشريفية لبعض الإهمال، فقد امتدت إليهما يد التخريب والسرقة فى عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٨م وأصبحتا عرضة لإلقاء القمامة والأتربة بهما، لذلك أصدر الوالى عبد الرحمن باشا ببورلدى على يد تابعه محمد أغا بلوك باشى القبجية وتابعه إبراهيم أغا موجهاً إلى القاضى الحنفى بمصر القديمة يقول فيه "أنت يا نايب مصر القديمة تكشف على المدرستين المذكورتين وتعرض لنا"^(٤).

(١) الباب العالي: س ١٢٧، م ٩٨، ص ٢٣.

(٢) البيمارستان المنصورى: أنشأه الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م بخط بين القصرين، وقد تعلق به الكثير من الأطباء والجراحين والخدم، وكانت له أوقاف عديدة. أنظر: أ.د/ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ١٢٥٠-١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية. دار النهضة العربية بالقاهرة، ط ١، ١٩٨٠.

(٣) الباب العالي: س ١٢٦، م ٩٦٧، ص ٢٨٤.

(٤) محكمة مصر القديمة: س ١٠٤/م ١٨١٩، ص ١٤٧٢.

وبالفعل توجه القاضى الحنفى ومعه شهود مجلسه وكشفوا على مدرسة الخشابية فلم يجدوا بها حصر ولا قناديل وممثلة بالأتربة مغلقة الأبواب. أما الشريفة فلم تكن هى الأخرى أحسن حظاً من سابقتها، فقد أخبر أهل مصر القديمة القاطنين بخط جامع عمرو " أن المدرسة المذكورة خراب معطلة الشعائر الإسلامية وأن بقائها على هذا الحكم ضرر بليغ على الجار والمار، وعلى جامع عمرو، وفى تكملة عمارتها خير وأصواب واستيناس وثواب" (١).

وبخط جامع عمرو وجدت مدرسة القمحية التى بناها صلاح الدين الأيوبي أيضاً علم ٥٦٦هـ قبيل وفاة العاضد الفاطمى، وكان صلاح الدين قد خصها بتدريس المذهب المالكي لإزالة أثر المذهب الشيعى الذى أدخله الفاطميين فى مصر (٢). ويقول المقرئى " إنها أجل مدرسة للمالكية حيث رتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدد من الطلبة..... (٣). واستمرت المدرسة تؤدى رسالتها خلال العصر العثمانى حتى تعرضت للإهمال والتخريب من قبل رجل يدعى على بن منصور الفخرانى، الذى قام بتخريبها وبيع عمداتها عام ١٠٧١هـ / ١٦٦١م (٤).

ووجدنا مدرسة تدعى الطيرسية كانت عامرة فى بداية القرن السابع عشر (٥). تغير حالها فى النصف الثانى من القرن، فلم تعد كاملة النظام لم يبق فيها الدرس أو حتى الصلاة. لذلك حرص البعض على إعادة هذه المدرسة إلى سابق عهدها، فقد قام الأمير بهرام بلوك باشى بن الأمير يوسف القاطن بمصر القديمة ببعض التجديدات بها، وتعميرها من ماله

(١) محكمة مصر القديمة: نفس السجل، م ١٨١٩، ص ١٤٧٢.

(٢) وقد عرفت هذه المدرسة بالقمحية لأن صلاح الدين أوقف لها ضيعة بالقيوم تعرف بالجنوشية كان القمح يتحصل منها ثم يوزع على طلبة العلم بها: أنظر: تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية، ص ١٥٣.

(٣) المقرئى: المصدر السابق، ص ٣١٦.

(٤) محكمة مصر القديمة: ص ١٠٢، م ٨٥٢، ص ٣٣٣.

(٥) نشأت ١١٧، ص ٥٥٤ لسنة ١٠١٠هـ.

الخاص، فنقول السجلات " بمصر القديمة مدرسة تعرف بالطيرسية قريبة من منزل الفقير - تعنى الأمير بهرام - خرب غالبها ومنعه الناس من الصلاة فيها لخرابها، وعدم كمال نظامها فراح الفقير وعمر ما خرب منها وأصرف عليها من ماله وصلب حاله لوجه الله تعالى ^(١). وتقدر قيمة الإصلاحات التى أقامها الأمير بهرام بهذه المدرسة بنحو ثلاثة آلاف وسبعة وستون نصفاً.

وما قام به الأمير بهرام ليهو أبلغ دليل على مدى حرص الجميع من أهل مصر القديمة على ضرورة استمرار منافذ العلم وتلقين دروسه، وأكثر من ذلك، فعند دراستنا الحضارية - من خلال السجلات - للكثير من منازل مصر القديمة عثرنا على العديد من خزائن الكتب داخل هذه المنازل، يحرص صاحب المنزل بوضع كتبه فى هذه الخزانة التى وجدت فى مكان عال من المنزل لتكون بعيدة عن متناول الأيدي العابثة. وأحياناً نجد أكثر من خزانة كتب فى نفس المنزل دليل على حرص أصحابها على اقتناء أكبر قدر ممكن من الكتب مثل الخزينتين المعدتين لخزن الكتب فى منزل الأمير عبدى بيك بحارة الجينة قرب خوخة أبى سعيدة المغربى بخط حمام جمدار ^(٢). وكذلك منازل بصر حارة كشكك بخط حمام جمدار أيضاً تحوى الكثير من خزائن الكتب ^(٣).

(١) محكمة مص القديمة: م ١٠٢، م ٦٥٩، ص ٢٥٦.

(٢) محكمة مصر القديمة: م ١٠٥، م ٢٧٠، ص ٩٢.

(٣) محكمة مصر القديمة: نفس السجل، م ١١٧٠، ص ٣٧٧.

إذن تعددت داخل مصر القديمة أماكن الدرس من كتاتيب ومساجد وزوايا ومدارس، وكان خليف بهذا الغرس أن ينبت ، فقد ظهرت فئة من رجال الدين والمتقنين والكتبة خاصة من السادات الوفائية والبكرية أمثال الشيخ أبى العطاء عبد الرزاق بن وفا وأصيل الدين الوفائى وأبو الحسن بن عبد القادر البكرى الصديقى والعلامة نور الدين مؤدب الأطفال، والعلامة عمر الطالبي والطبيب شمس الدين محمد الحميدى والشيخ يوسف أصالة والشيخ أبو السعود الكاتب^(١). وغيرهم من علماء مصر القديمة.

(١) محكمة مصر القديمة: س ٩٨، م ١١٠٧، ص ٣١٢، وقد ذكر المحبى العديد من العلماء الذين تردوا على مصر خلال ق ١٧ وأفادوا الحياة العلمية بها. أنظر: المحبى: المصدر السابق، ج٤، ص ٣٩ وما بعدها.

الخاتمة

جاءت دراسة تاريخ مدينة مصر القديمة خلال القرن السابع عشر على قدر كبير من الأهمية فقد تكشف لنا ذلك من خلال التعمق فى تاريخها حيث تثبت هذه الدراسة إنه من الصعب الآن أن نسقط هذه المدينة من ذاكرة التاريخ بعدما كشف النقاب عنها وفرضت نفسها على خريطة العصر العثمانى.

فتبين لنا هذه الأطروحة أن نغمة الخراب والدمار الذى سيطر على المدينة قد استمر بها على فترات تاريخها المديد الأمر الذى جعلنا نسقطها من الذاكرة نغمة أصبحت غير ذات معنى وتحتاج إلى مراجعة وافية فقد أثبتت الدراسة بما لا يدع مجالاً للشك إن مصر القديمة قد شهدت العديد من محاولات العمران بها طوال القرن. كذلك حسمت الدراسة عدة أمور تضاربت حولها الأقوال منها وضع اسم معين لمصر القديمة، هل هى مصر القديمة ؟ أم مصر العتيقة ؟ أم بابليون ؟ ومتى ظهر هذا المسمى ؟ وكذلك تحديد ما إذا كنا نطلق عليها " حى " أم " مدينة ". فأثبتت البراهين التى توصلت إليها الدراسة أنها مدينة وليست حياً كما يردد بما تمتلكه من ميناء خاص وجمرك ضخم يستقبل السفن والبضائع الواردة إليها سواء من داخل مصر أو من بلدان خارجية. إضافة إلى ظهور العديد من الصناعات بها وهو أمر من الأمور الفريدة كشيء يذكر فى مدينة ظلت لسنوات فى طى النسيان نتمنى أن تكون الدراسة قد وضعتها فى دائرة الضوء وعلى مائدة التاريخ.

كذلك تتفرد الرسالة بوضع خريطة هى الأولى من نوعها لمنطقة مصر القديمة مستخرجة من ثنايا بطون السجلات والوثائق المتفرقة توضح خطط المدينة وأسماء الحارات وبعض الدروب داخل كل خط منها. فى محاولة متواضعة من جانبنا لوضع تصور للمنطقة يوضح أماكن العمران الذى حدث مقارنة مع أماكن الحفر التى جرت بها سواء من على بهجت وألبير جبريل أو غيرهما. وترجع قيمة الخرائط التى وضعناها إلى أنه قد ثبت أن أول خريطة وضعت للقاهرة زمن قايتباى أواخر ق ١٥/٩م ولم تصل إلينا. ثم وضع الأب سيكار خريطة عام ١٧١٥م للقاهرة العثمانية ولم تنشر هذه الخريطة للأسف، وما زالت

محفوظة في المكتبة الأهلية في باريس. إذن أولى الخرائط الكاملة والجيدة التي تصور القاهرة هي خريطة " وصف مصر " لعلماء الحملة الفرنسية، من هنا جاءت الخريطة التي وضعناها في ق ١٧.

ولإيماننا بمدى أهمية الجداول والإحصائيات بما تقدمه من معلومات وأرقام تبرز صوراً عديدة عن أوجه الحياة داخل المدينة وبما يتواكب ذلك مع الاتجاه المعاصر المتبع في أسلوب البحث العلمي. رأينا أن نستند إلى بعض الجداول وعمل الإحصائيات بشكل يخدم أفكارنا ويبرز أهدافنا بعيداً عن الحشو أو الاستطراد الممل الذي لا طائل منه. وقد واجهتنا العديد من الصعوبات عند وضع هذه الأرقام خاصة لوجود حلقات مفقودة في سجلات محكمة مصر القديمة وبالتالي وجدت العديد من السنوات التي تتناولها هذه السجلات ولا نعرف عنها أى معلومات، لذلك حاولنا سد هذه الفجوة عن طريق سجلات الدشت أو الباب العالى وغيرها خاصة في السنوات المفقودة لدينا. ورغم ذلك لم تقدم لنا هذه السجلات ما كنا نرجوه، فجاءت معلوماتها نادرة بما يخص المدينة أو حتى بما يمسه من بعيد كي نبني عليها تصوراتنا.

ولم يكن ذلك مدعاة كي نهمل هذا الجانب الهام رغم ما يشوب ذلك من صعوبات عديدة، فقمنا بوضع الإحصائيات والجداول اللازمة التي وضعناها داخل متن الرسالة.

ورغم العرض الذى قدمناه ونتصور أنه ربما قد يمثل إضافة جديدة للعلم هناك بعض الأمور التى تعرضنا لها وللأسف وقفنا أمامها عاجزين ومكتوفى الأيدى كالتبيب الذى وقف عاجزاً أمام سلطان الموت الذى يهاجم مريضه فمن ضمن هذه الأمور: لم نستطع تقديم سبب قاطع لبعض السنوات التى لم تسجل فيها أى نسبة زواج أو طلاق داخل المدينة ووضعنا بعض الافتراضات التى لا تعدو عن كونها مهارات لا ترقى لمستوى التفسيرات القاطعة التى تشبع نهم الباحث. والأمثلة على ذلك كثيرة منها وجود قصور شديد عند معالجة الجوانب الثقافية فى مصر القديمة رغم رصد العديد من الكنائس والمدارس بها ولكن

ماذا سنفعل، فهذه هي المادة المتاحة بين أيدينا الآن ؟ فربما يظهر ما هو أدق لتصحيح هذا الجانب أو جوانب أخرى قد لحق بها القصور. ودائماً ما نردد " كلمة قصور " لإيماننا أنه لا يخلو أى عمل من قصور فالكمال لله وحده

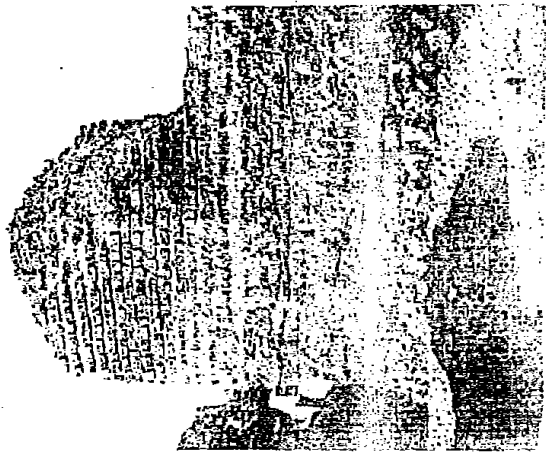
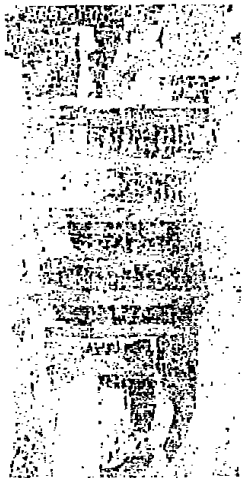
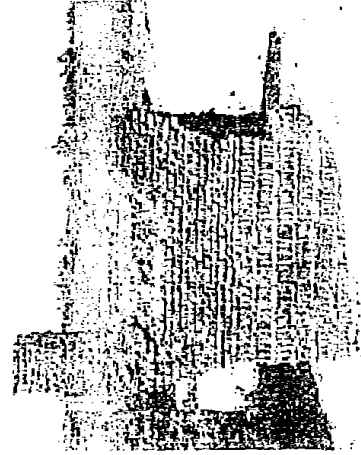
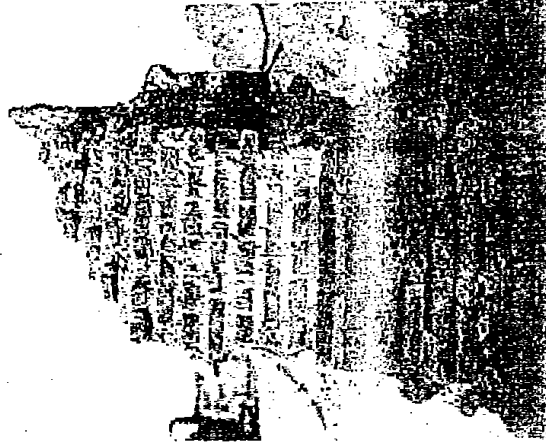
وعلى الله قصد السبيل

الملاحق



الجان المشرفة على عين العيرة — Am-as-Sira — Collines qui dominent

نقلا عن - حفريات القسطنطين

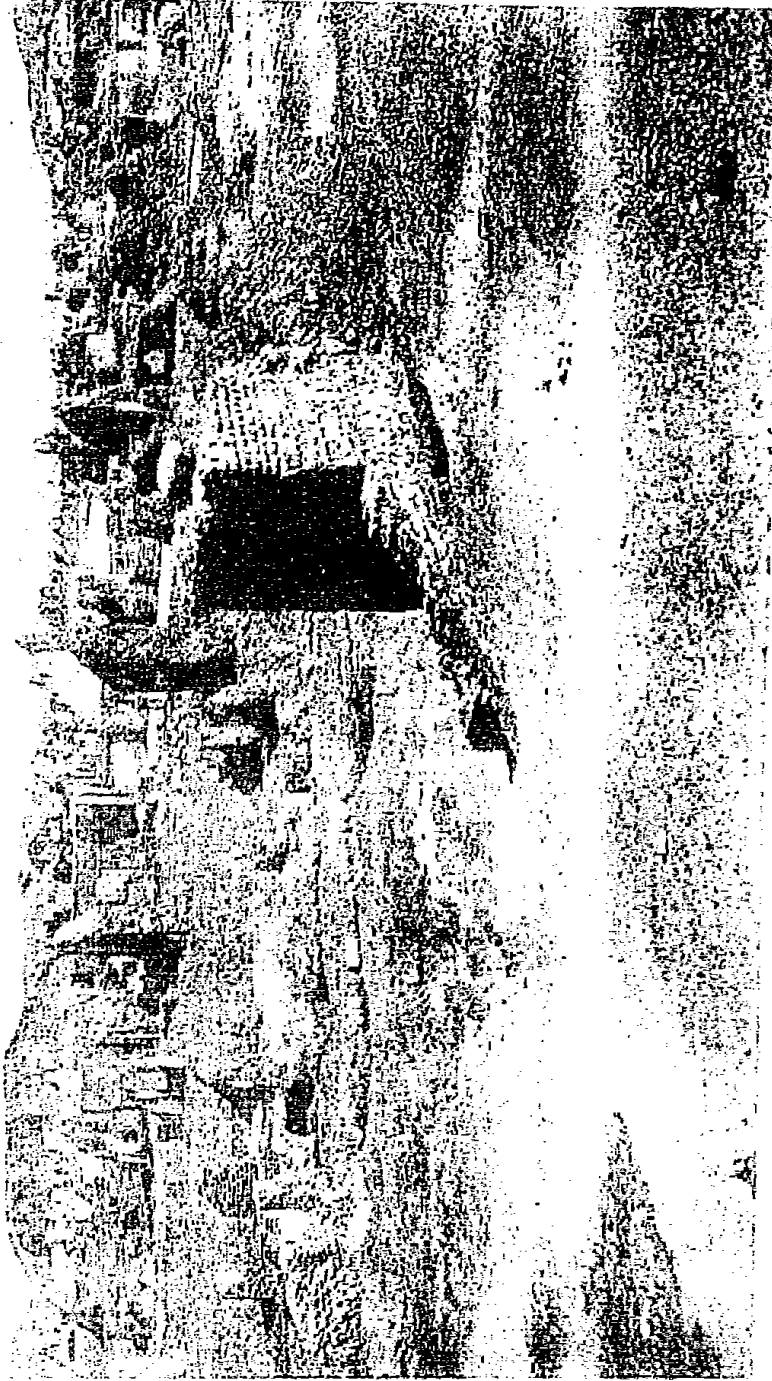


تحت الأرض

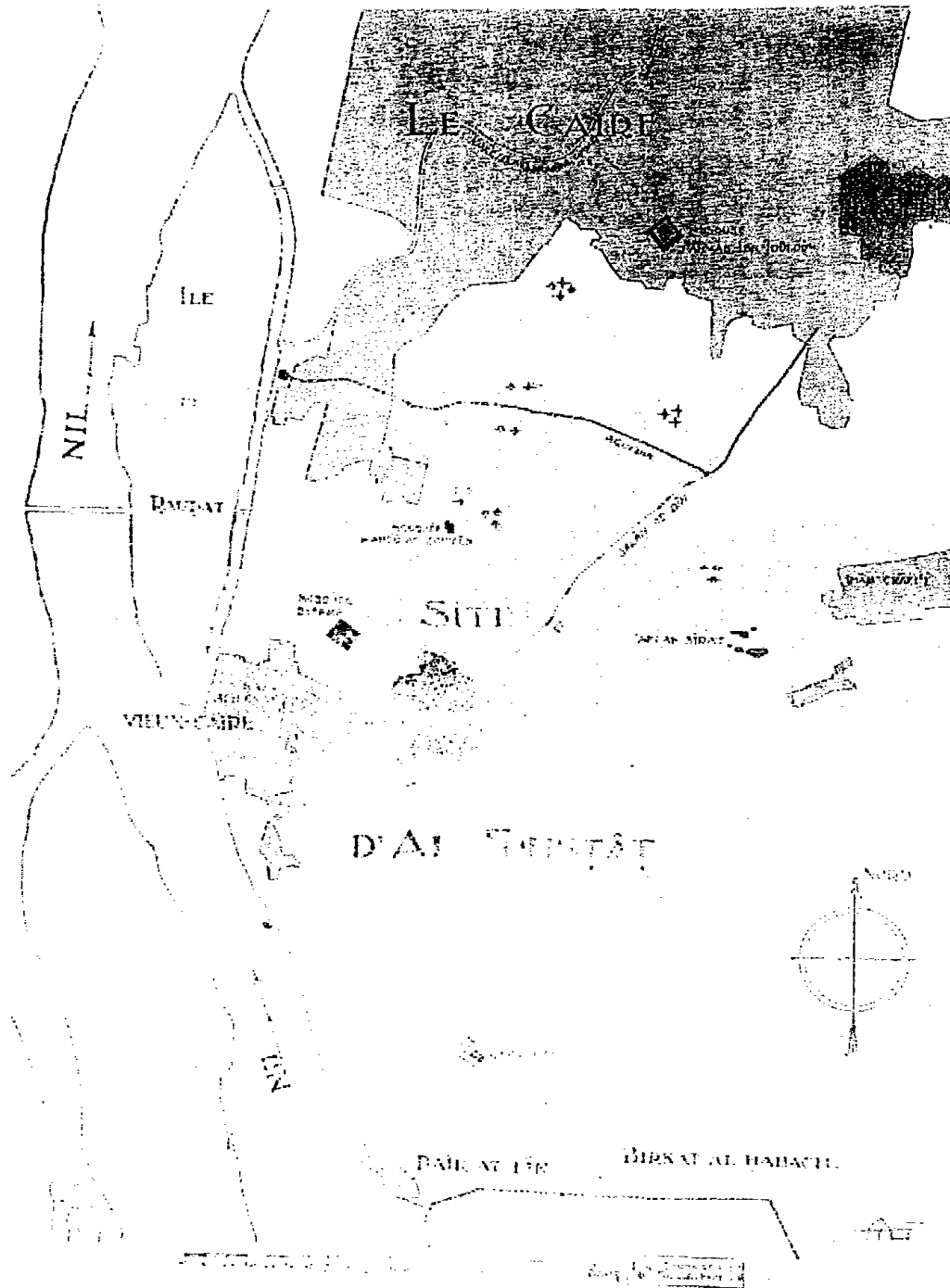
تقلا عن - حواريات القسطاط



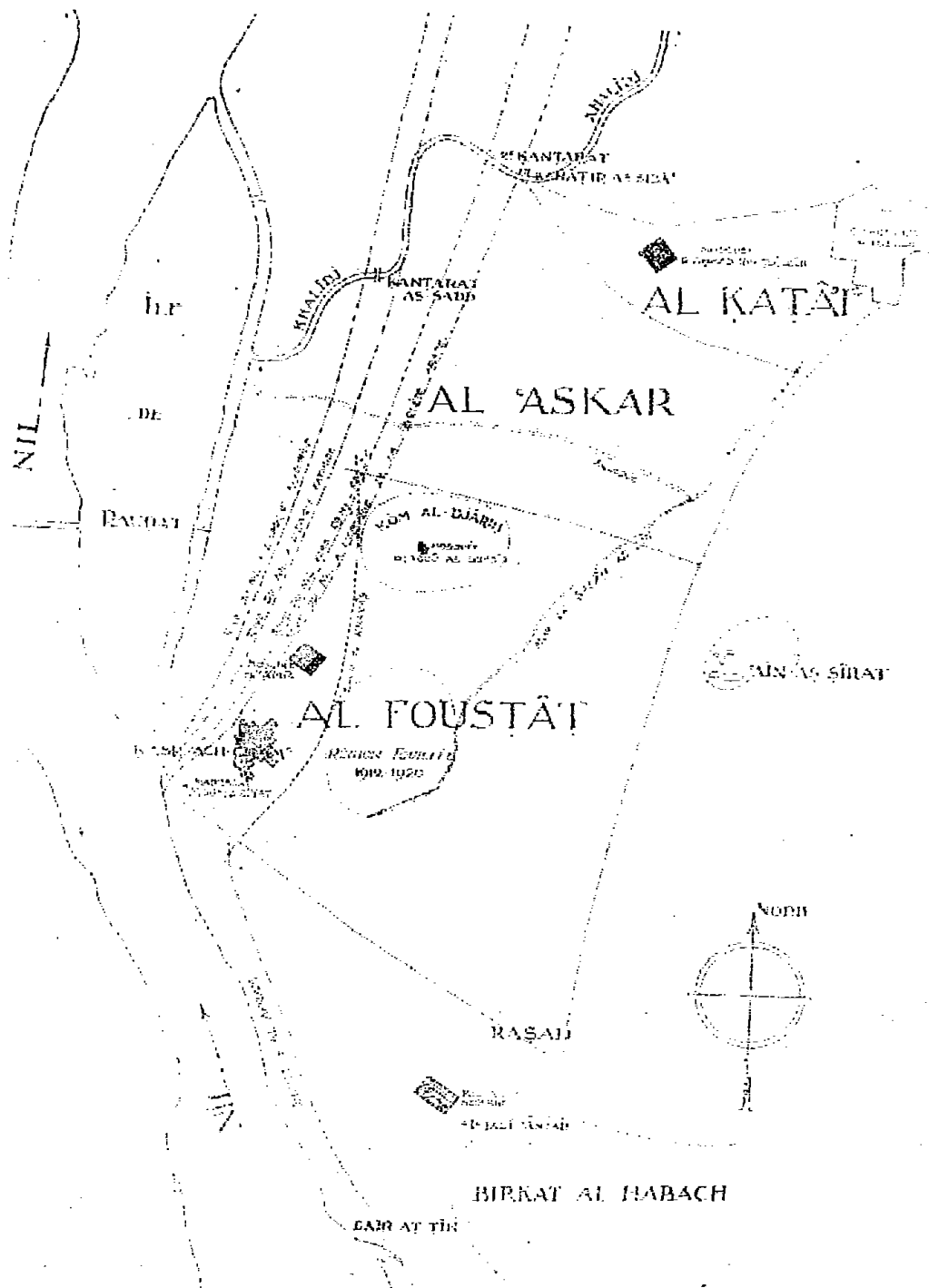
نمذج لحوش قديم
نقلا عن - حفريات القسطاط



منظر لجزء الأوسط من موقع الحفر - Loullia
تقلا عن - حفريات القسطنطين

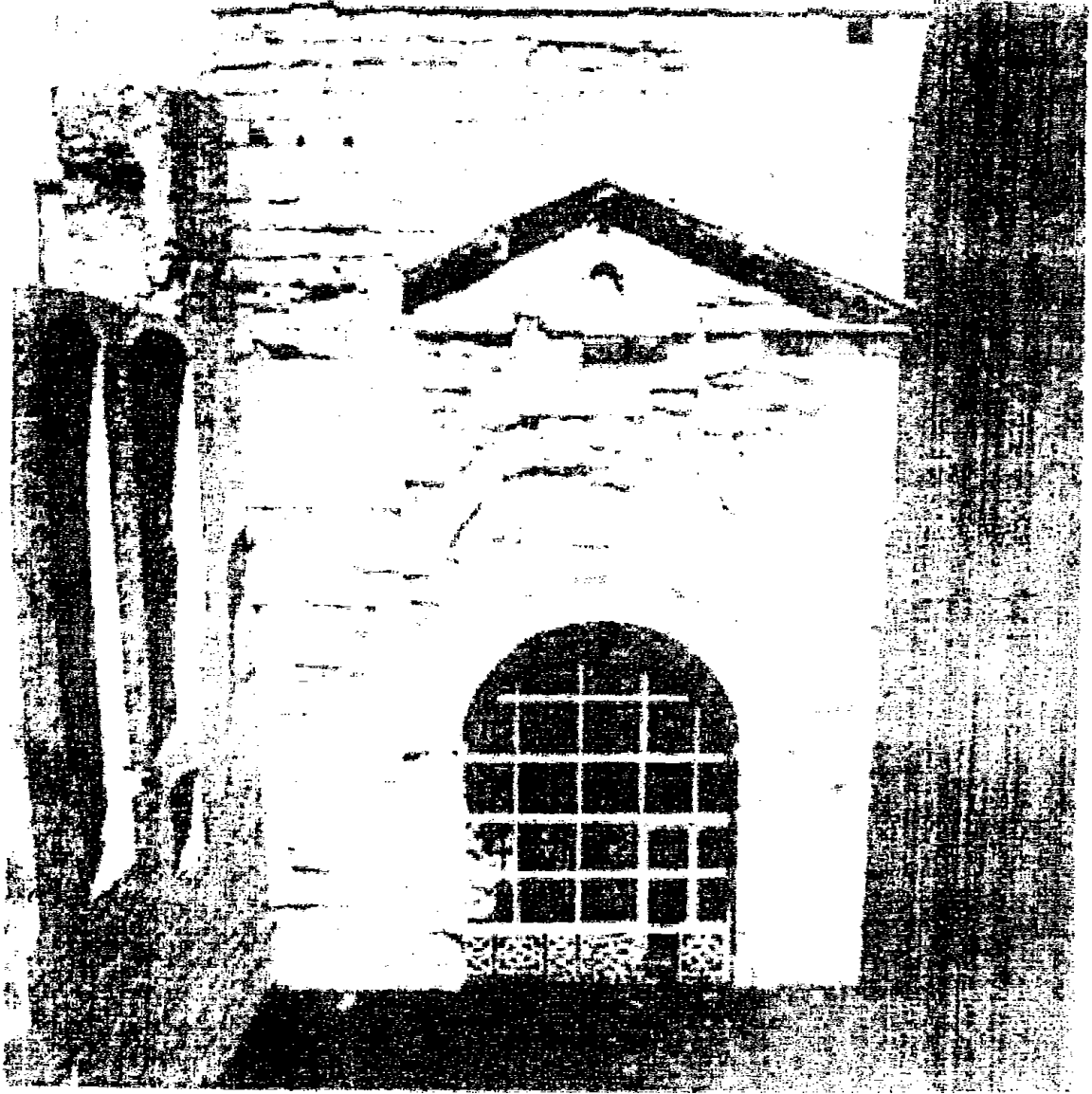


موقع الحفر في القنطرة كما يراه الغربيون

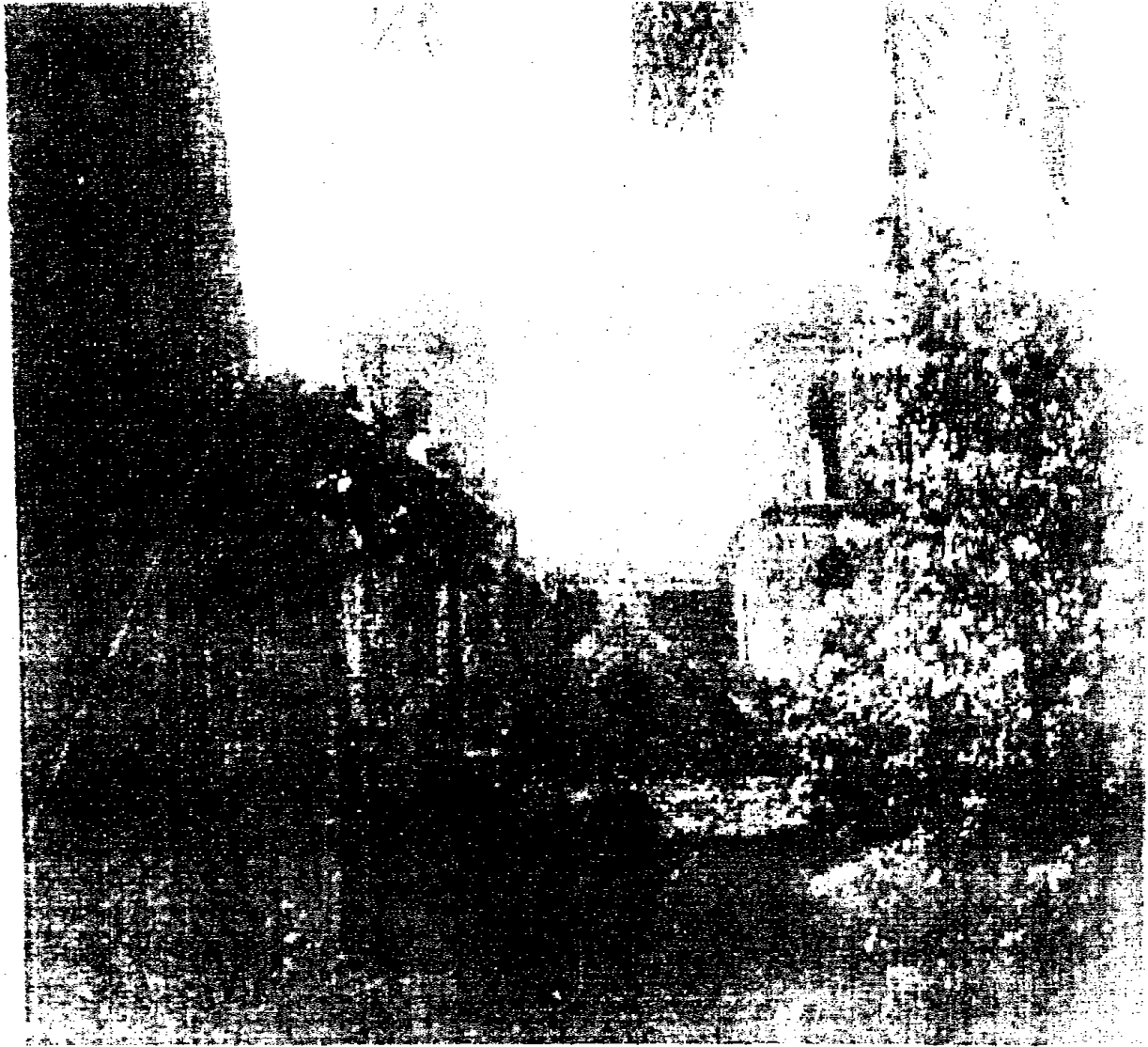




منظر عام عن موقع القسطاط --
 فنسلا عن - حفريات القسطاط

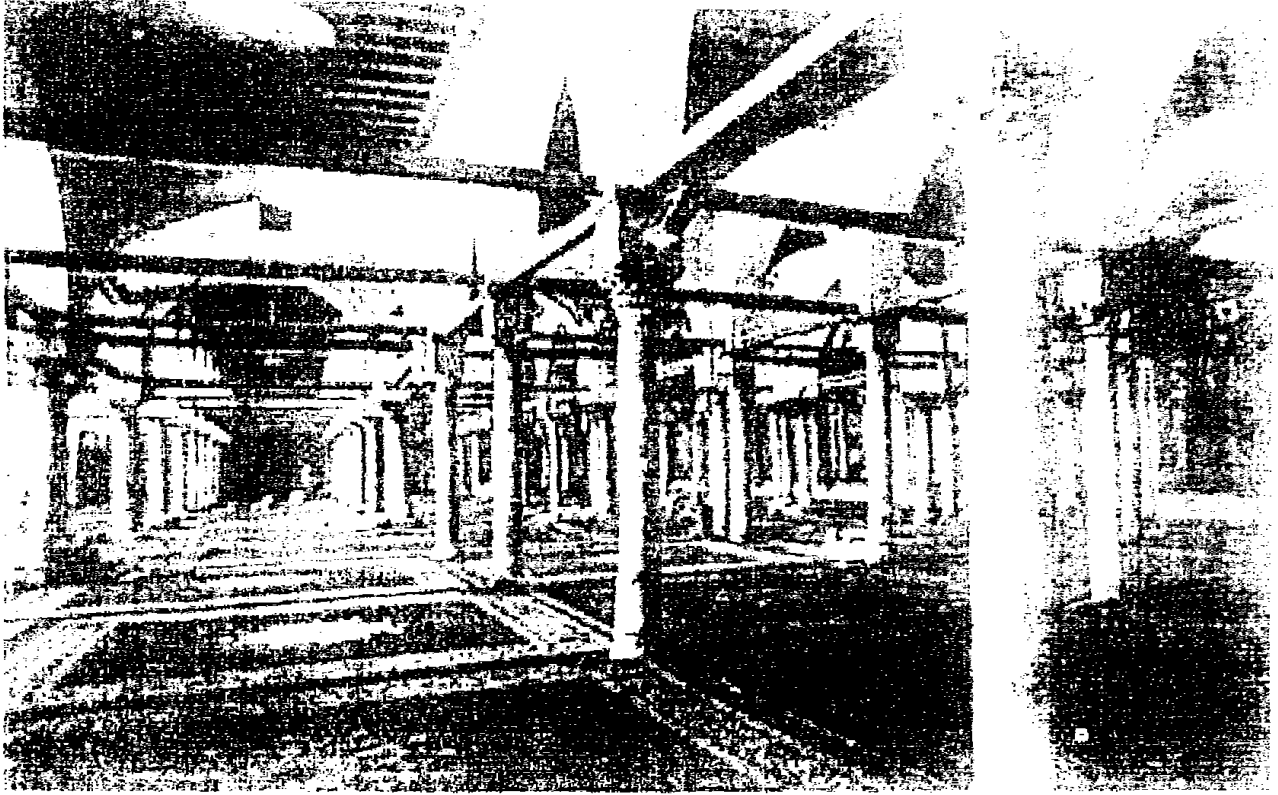


الباب الرئيسى لحصن بابلين الرومانى - القرن الأول الميلادى
 قلا عن - أبو الحمد فرغلى : الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة

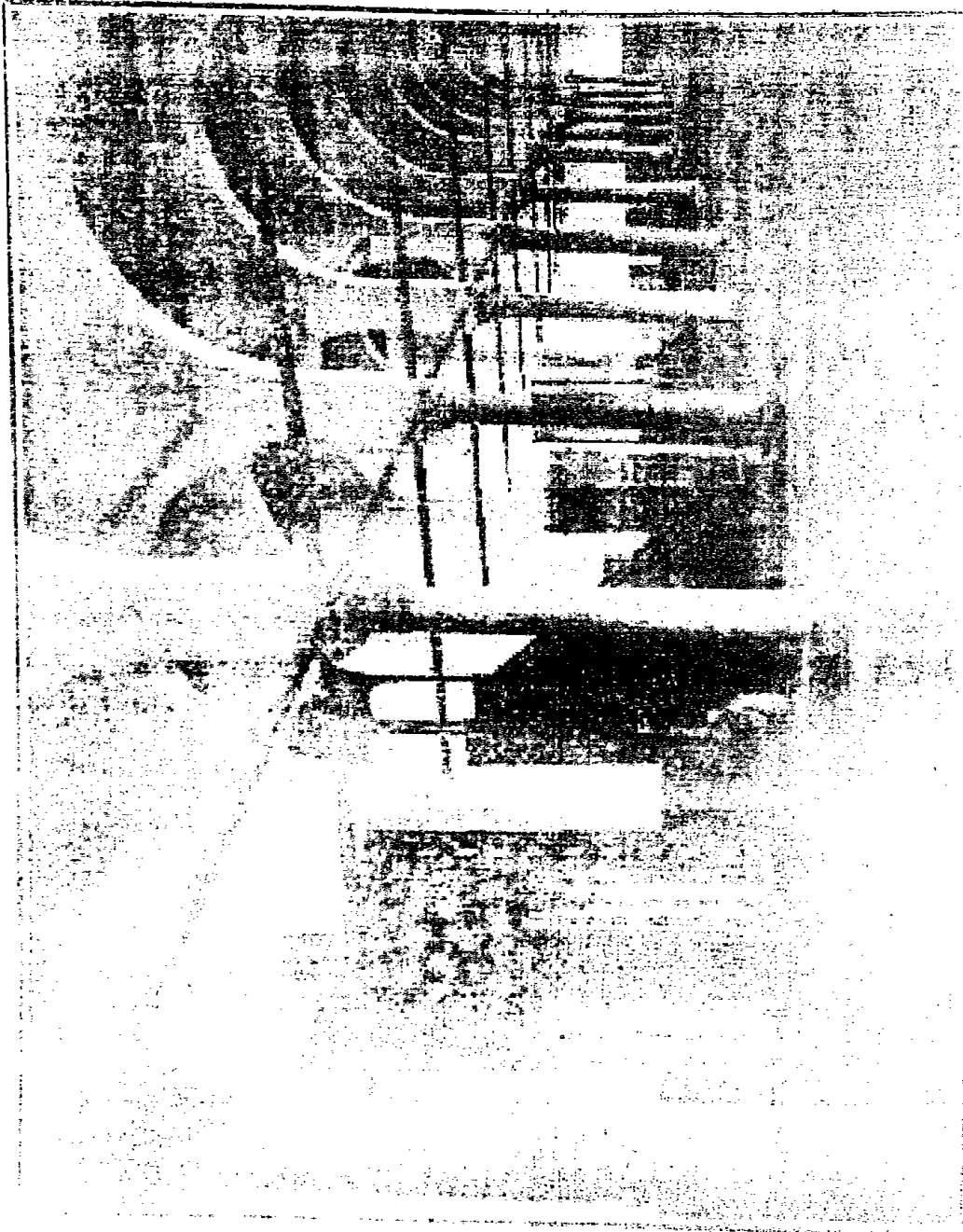


منظر عام للكنيسة المعلقة

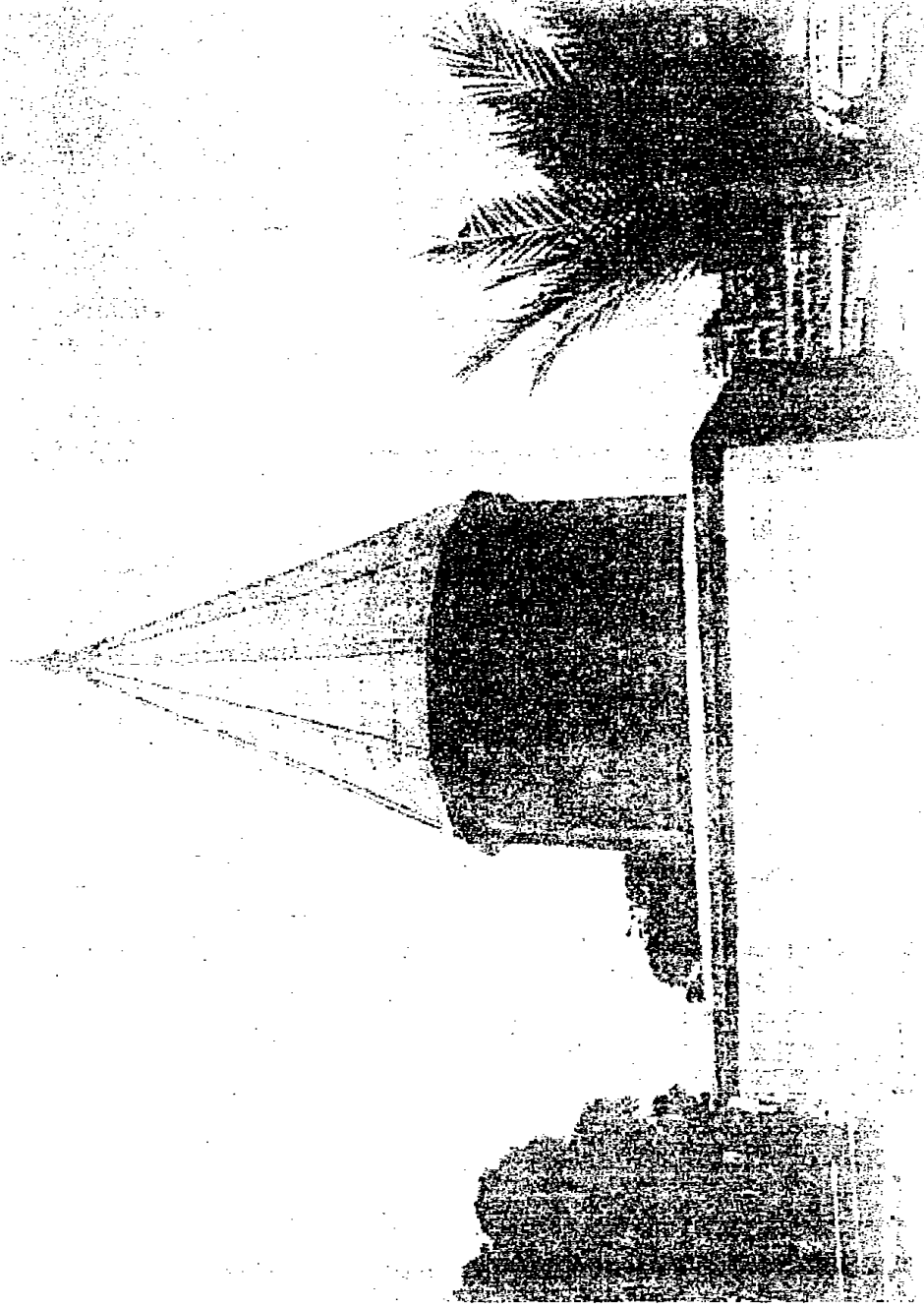
نقلًا عن - أبو الحمد فرغلي : أيضا



تفاصيل من جامع عمرو بن العاص من الداخل والخارج .
 نقل عن: محمد محمد الكحلوى - آثار مصر الإسلامية
 في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين

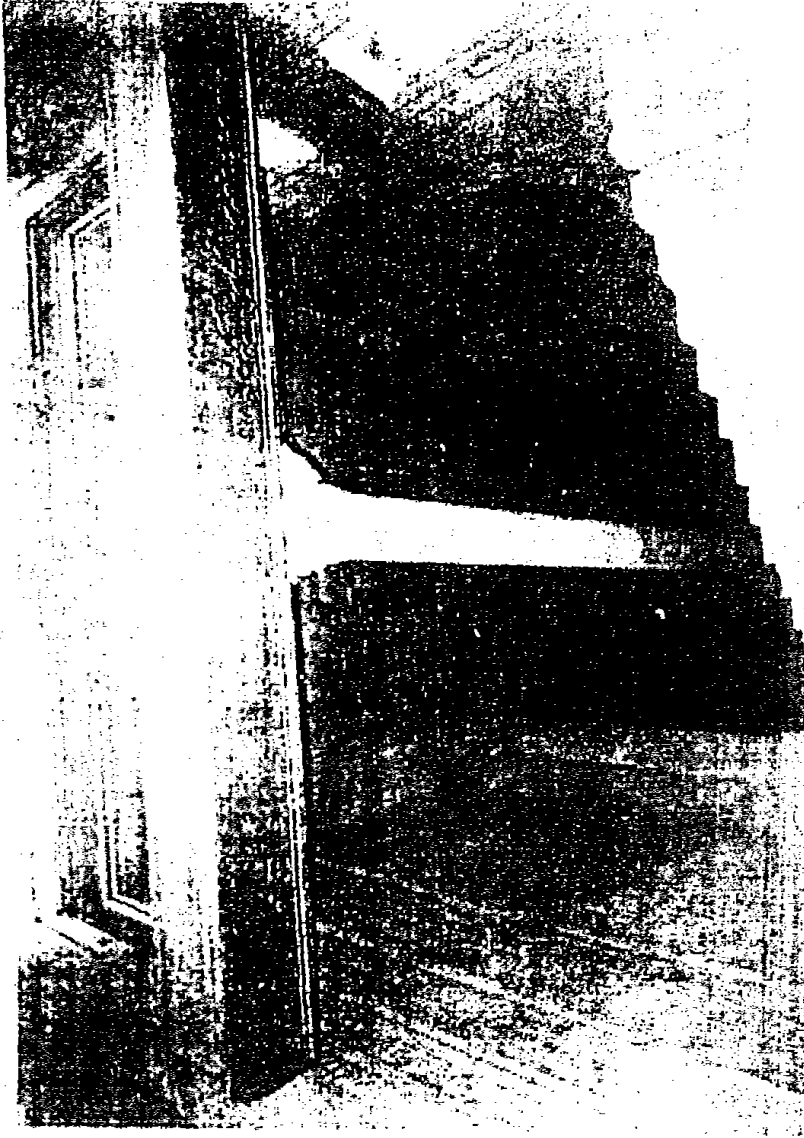


مجلس شورای ملی
کتابخانه



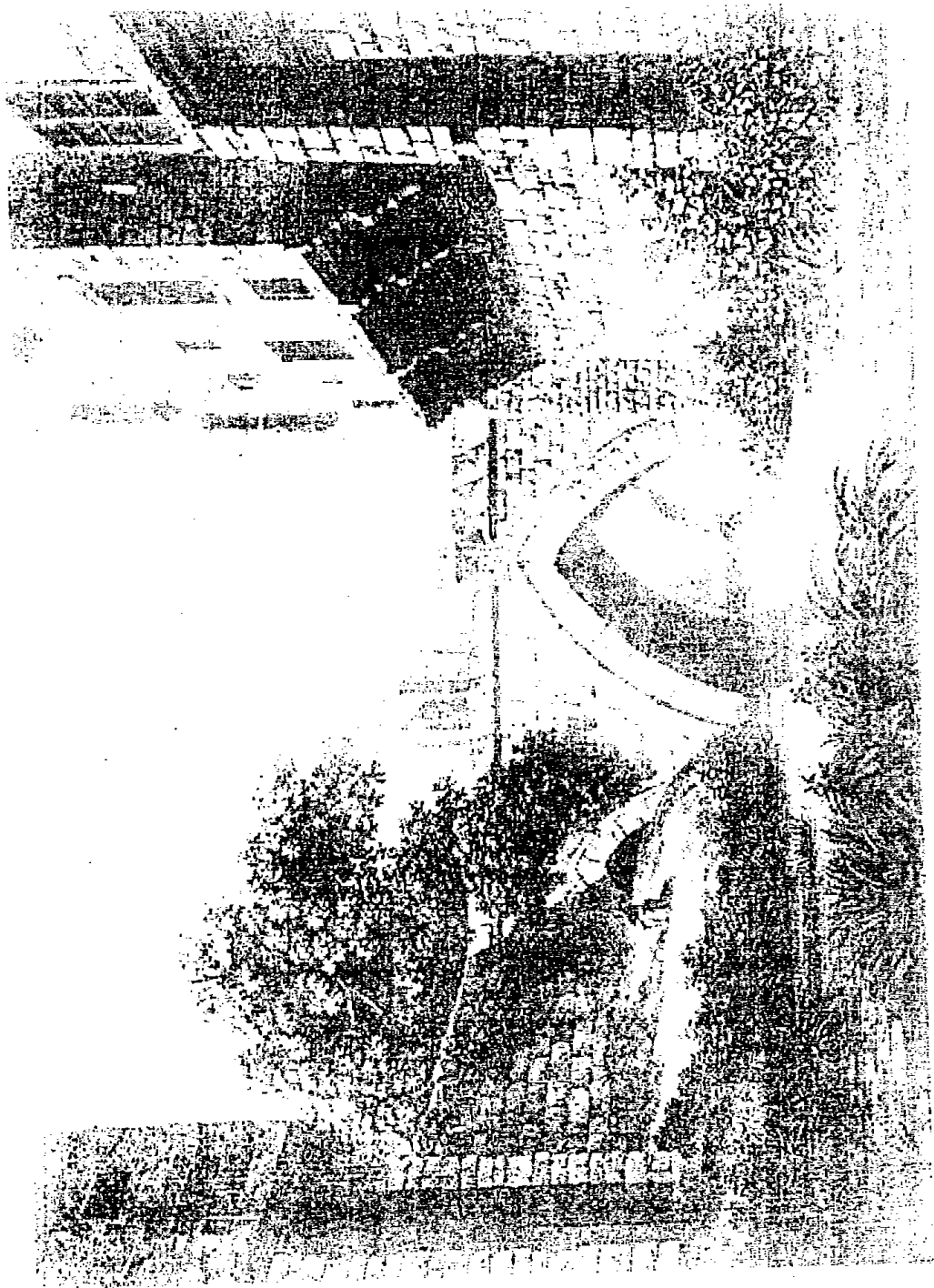
مقياس النيل من الخارج .

نقلا عن أيمن فؤاد سيد: التطور العمراني لمدينة القاهرة

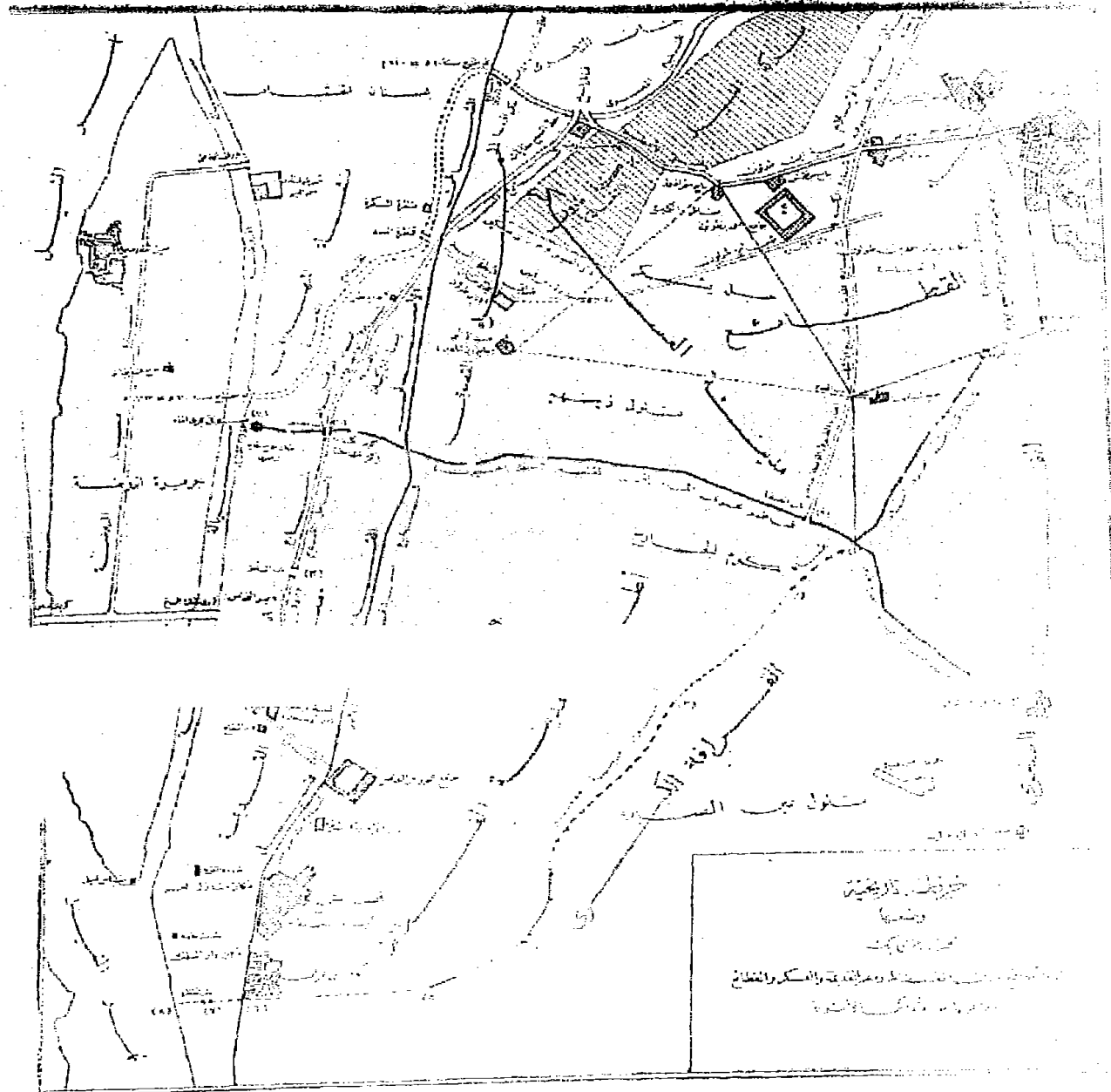


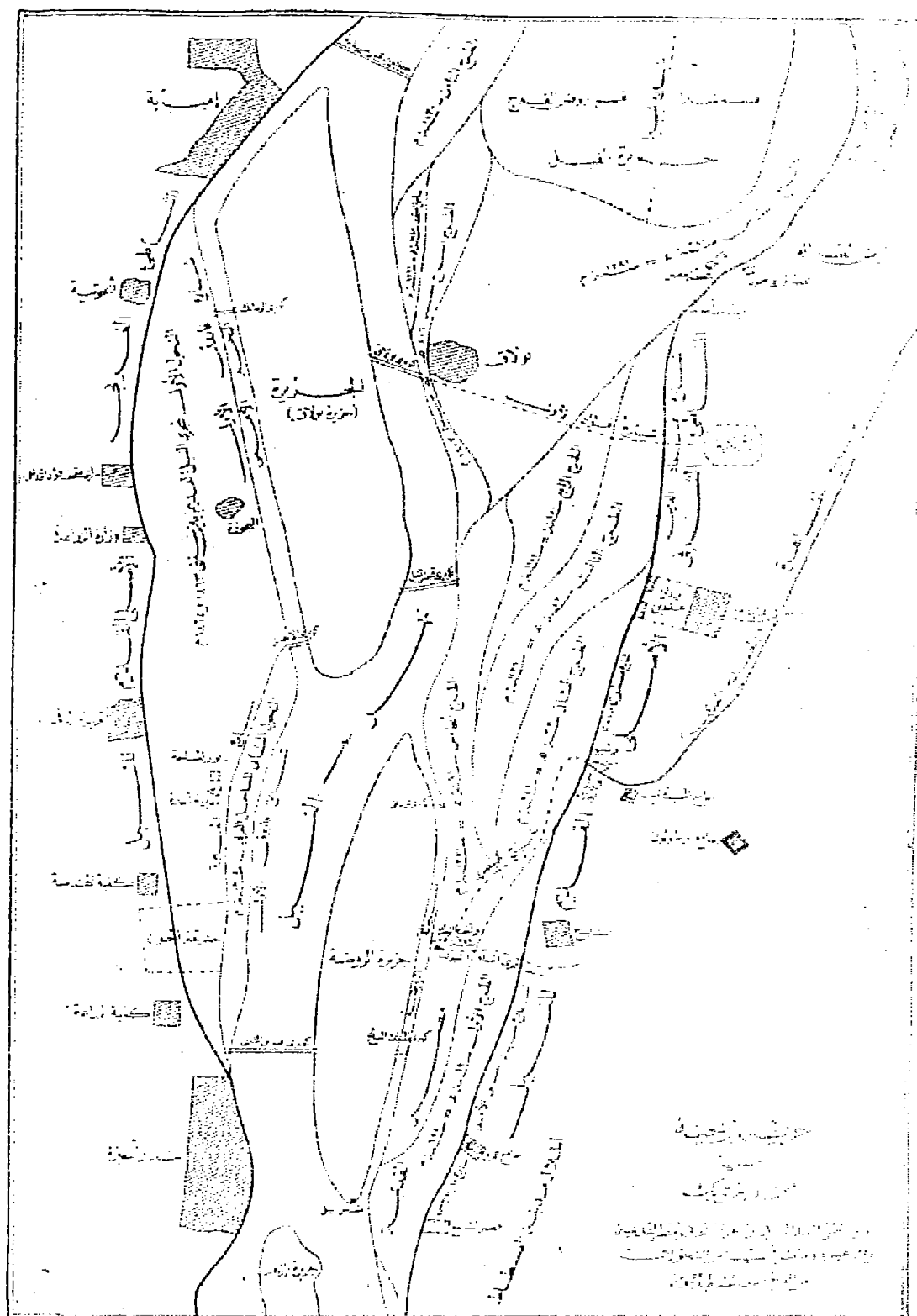
مقياس النيل من الداخل .

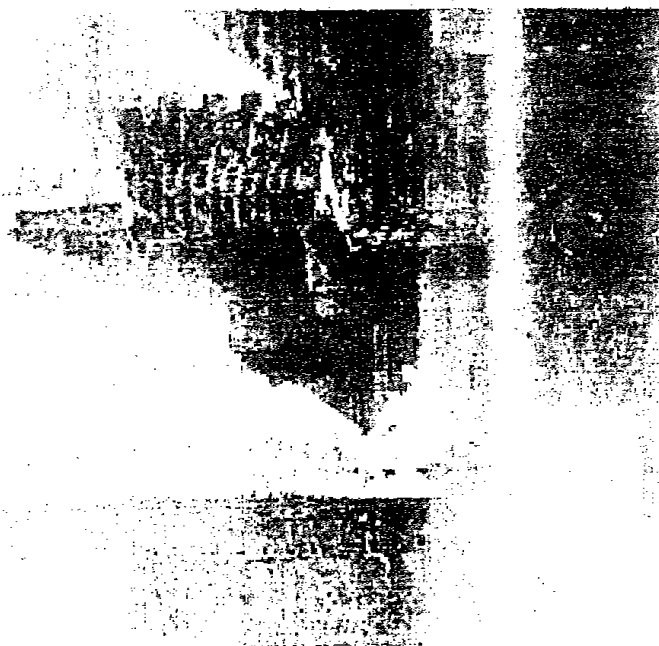
نقلًا عن: أيمن فؤاد سيد: التطور العمراني لمدينة القاهرة



سنگ مرمری







ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

تخصير قطعة أرض لصالح النصارى بحارة قصر الجمع

بسبب تحرير الحروف وتسطير الصنوف بموجب الحجة الشرعية بالجامع المنصورى لدى الحاكم الحنفى ثبت لديه معرفة المعلم إبراهيم ولد الذمى يوحنا الشهير ببداوى النصرانى اليعقوبى المباشر بخدمة المقر الكريم الأمير أيواز بيك أمير اللوا الشريف السلطانى بمصر المحروسة وهو الناظر الشرعى على وقف فقرا الكنيسة المعروفة بالمعلقة الكاينة داخل حارة النصارى بقصر الجمع بمصر القديمة بموجب حجة تقرير فى ذلك المسطرة عن الباب العالى بمصر المحروسة فى عشرى صفر الخير سنة ست وثمانين وألف ومعرفتها القطعة الأرض / التى بحارة النصارى التى كانت أماكن سكن طائفة من النصارى الخربة المستهدمة المسلوبة المنفعة المجاورة للطاحون التى هناك المعدودة من جملة حقوق الكنيسة المذكورة بشهادة كل من الذمى برسوم ولد الذمى منصور وأخيه فضل الله والذمى منصور ولد الذمى منصور وغيرهم والجميع من أهالى الحارة المذكورة وأن الأماكن المذكورة خراب جميعاً وصاروا الآن ضرراً على الجار والمار وفى بقائها على هذا الحال ضرر كبير وأن عمارتها لأجل عمل فيها الشمع السكندرى خير وصواب ليعود نفع ذلك على فقرا الكنيسة المذكورة القاطنين بها والواردين عليها وأن الناظر الشرعى المذكور من ماله وصلب حاله متبرع به لجانب فقرا الكنيسة كما أن ذلك بمبين ومشروح بموجب حجة شوعية مسطرة فى هذه المحكمة مؤرخة فى خامس عشر محرم ١٠٨٦هـ — وأذن مولانا الحاكم الشرعى فى تكملة عمارة الخربة المذكورة

تحريراً فى: ١١ جمادى الأول ١٠٨٨هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س ١٠٤، م ١٨٢٠، ص ص ١٤٧٢، ١٤٧٣

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

تداخل أوقاف المسلمين والنصارى

بعد الإذن الكريم من حضرة مولانا شيخ الإسلام لناييه مولانا الحنبلى أجز يوسف جلبى الرومى الناظر الشرعى على زواية النعمانية وقف إبراهيم النعمانى الكاينة بمصر القديمة بتقريره الشرعى قبل مولانا قاضى القضاة المومى إليه المعلم بشاره ابن ميخائيل بن بشاره النصرانى اليعقوبى المباشر الشرعى على وقف الكنيسة المعروفة بدير أبى سرجة التى بمصر القديمة بظاهر حمام جمدار، فاستأجر منه جميع الأرض الحاملة لبنا الزربية والقلعتين المعدين للحياكة والقاعة المعروفة بالفندق والزربيتين اللتين بهما الخزائن سكن النصارى الكاين ذلك جميعه بظاهر قصر الجمع بمصر القديمة وله شهر بمحله وتعهد بتجديده وزيادة والجارى ذلك فى وقف الزاوية المذكورة وتحت نظر الناظر المذكور لينتفع بشاره بذلك فى محل البنا الجارى فى القصب محل الدير المذكور وفى حفر الأرض الخالية من البناء والجدر ورمى الأساسات والبنا والتعلى على ذلك حسبما أحب وإختار الإنتفاع الشرعى لمدة ثلاثين عقداً متوالية كل عقد منها ثلاث سنوات متوالية لكل عقد منها صيغة وأجرة تميزه لم يكن داخلاً فى عقد ما قبله ولا متصلاً بما بعده بأجرة مبلغها عن كل سنة ١٢٠ نصف يدفعها المستأجر لجهة الوقف المذكور مشتملة الإيجاب والقبول وبالمعرفة والإحاطة معترفاً بشاره بأنها كانت أرضاً خربة مهولة بالأثرية خالية عن السكان سابقاً. فوقع البيورلدى الشريف من طرف الديوان بأن كل من يبنى ويعمر بهذا المكان يكون ملكاً له قصداً لدفع الضرر عن الجيران وعن الذين يمرون بهذا المكان، ثم أن بعض النصارى نطفوا هذه الأرض الخالية وبنوا عليها بيوتاً وعينوا لكنيستهم أجرة البناء ودفعوها لكل من كان قبله ناظراً لوقف الكنيسة وأبرز من يده حجة مطابقة لتقريرم من طرف الديوان كتب فى رجب سنة ١٠٤٦ وذلك بعد عين مولانا شيخ الإسلام نور الله أفندى كشاف الأوقاف يومئذ بالكشف على ذلك وتحريره بحضور المهندسين وجمع غفير من المسلمين، فوجد وقف الزاوية مطابقاً

الحدود التى بكتاب الوقف ووافقتها بإعتراف بشارة وبأن الأرض الحاملة للأبنية جارية فى وقف النعمانية وأن البنا الموضوع على الأرض المذكورة جارى فى وقف الكنيسة المذكورة إعترافاً شرعياً واعترفوا بذلك وبالأجرة المرقومة

تحريراً فى: أواخر صفر ١٠٥٥هـ

مصدر الوثيقة : باب على: س ١٢٤، م ١٥٢٤، ص ٣٢٣

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

حجة تعمير الدريين بحمام جمدار

(منطقة الحارة المستجدة وكفر الشيخ شهاب المجذوب)

بسبب تحرير الحروف بالجامع المنصورى بعد أن ورد البيورلدى الشريف من حضرة مولانا رمضان بيك أمير اللوا الشريف السلطانى وقايم مقام يومئذ بمصر المحمية بنظرة القصة المرفوعة لديه من قبل طايفة التراسين بمصر القديمة الآتى ذكرهم فيه أنه مضمون القصة المذكورة أن الفقرا قاطنين بالكفرين المستجدين بالخلا والكيان بأطراف حمام جمدار بظهر العنبر الشريف قريباً من الجامع الذى هناك الخرب المعروف بالمسلمية وجامع الدبان، وأن اللصوص فى كل يوم يأتون إليهم ويتسلقون عليهم، وقد حصل لهم بذلك غاية الضرر وقصدهم عمارة دربين متقنين لصون أماكنهم من اللصوص المذكورين ويصيرون بذلك آمنين. وأنهم جمعوا من بعضهم أربعة آلاف نصف فضة ليصرفوها فى عمارة ذلك بمعرفة فخر الأعيان الأمير محمد ابن المرحوم سليمان زعيم مصر القديمة حالاً فبرز البيورلدى الشريف المذكور خطاباً لسيدنا ومولانا فخر قضاة الإسلام الحاكم الشرعى الحنفى بما عبارته: " سنكى فضيلتوا نايب مصر القديمة يتوجه ويكشف على ذلك ويعمروا ذلك ولا أحد يتعرض لهم فى ذلك " قوبل ذلك بمزيد الإمتثال وتوجه مولانا الحاكم الشرعى المشار إليه أعلاه هو وشهوده والأمير محمد الصوباشى المرقوم وكشف على محل وضع الدربين المذكورين فوجد أحدهما يوضع من كتف الدرب الذى هناك بموقف الحمارة والحوش الجارى فى تصرف الأستاذ الأعظم العارف بالله الشيخ عبد الرازق أبو العطا بن وفا عمّت بركاتهم المعروف الحوش المذكور بسكن أبو عجاج شيخ طايفة الحمارة وإلى قطعة الأرض الجارية فى تصرف المعلم منصور المعروف بإبن الجزار ومن يشركه فى ذلك ووجد الثنائى برأس الطريق المتوصل منها لجامع سيدنا عمرو بن العاص ويكون وضعه من كتف منزل دويدار الطحان وإلى منزل الحاج عبد الرحمن السملى ويكون وضعهم على حكم البوابة

المذكورة أعلاه وهو في العلو من العتبة ... خمسة أذرع وعرض ذلك من الداخل أربعة أذرع وثلاث ومن الخارج ثلاثة أذرع ونصف ذراع العمل وأن يكون محكمين البناء بالمون المتقنة والدبش وأكتافهما بالحجر الفص النحيت الأحمر مكملين بالأبواب المحكمة بالخشب النقى والمسمار مانعين من اللصوص وغيرهم كشفاً مرعياً بحضور كلاً من الحاج عبد الرحمن السملى المرقوم والحاج عبد الكريم بن عبد الرحمن والمعلم يحيى بن سلطان والمعلم إبراهيم بن محمد شكر وسالم بن نصر أبو عجاج والمعلم خليفة بن دراز الجميع من التراسين وغيرهم القاطنين هناك وإطلاعهم على ذلك وتصديقهم عليه، هذا ما تحرر من أمر ما صدر

تحريراً في: ٢٤ ربيع الثاني ١٠٨٧هـ

مصدر الوثيقة: محكمة مصر القديمة م ١٠٤، م ١٦٠٢، ص ١٣٨٧

ملحق رقم: ٢ العمران فى مصر القديمة خلال القرن ١٧

إزالة أكوام الأثرية بمنطقة أطراف حمام جمدار وتخليصها لمن يمر فيها

سبب تحرير الحروف - بالجامع المنصورى - ورد الإنن الشريف من مولانا الوزير بسبب القصة المرفوعة من قبل فقرا أهالى مصر القديمة فى خدمة العنبر الشريف وغيرهم فى خصوص رغبتهم فى حيازة الكوم التراب الكاين بظهر صور الحارة المعروفة بالعارف بالله تعالى الشيخ شهاب المجذوب من جهة المسلمية الخراب المعوة بجامع الدبان وإلى الجنية المعروفة بالشيخ زيتون سابقاً بطريق العامة بأطراف حمام جمدار بمصر القديمة. وأن كل من حاز فيه شيئاً وعمره يكون ملكاً له ورفع يد من حاز شيئاً ولم يعمره قبل تاريخه ويمكن الراغبين من عمارته على الفور. فبرز الأمر الكريم من الوزير بإجهار النداء بمصر القديمة بما عبارته باللغة التركية المشروحة باللغة العربية " إن كل من رغب فى عمارة شئ من الكوم المذكور فاليحوزه بمعرفته الشرع الشريف والصوباشى بمصر المرقومة وكل من عمر شيئاً على الفور يكون ملكاً له وكل من حاز شيئاً من ذلك ولم يعمر شيئاً فيه ترفع يده عنه وسلم لمن يرغب فى عمارته فوراً ولا أحداً يعارض فى ذلك بخلاف الشرع ولا يتعرض لهم بعد ذلك " ... وأجهر النداء بمسامع العام والخاص ثلاثة أيام متوالية فكان ممن رغب فى حيازة ذلك وعمارته الأمير يوسف جوربجى طايقة عزبان المتحدث على حطب مطبخ الديوان الشريف حالاً وفخر الأعيان الأمير محمد بن الأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالاً القطعة الأرض تجاه وكالة الصولى وغيرها

تحريراً فى: غرة جمادى الأولى ١٠٨٧هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة: س ١٠٤، م ١٦٠٥، ص ١٣٨٨

ملحق رقم: ٣

مراسلة من شيخ الإسلام إلى النواب والقضاة بضرورة الإلتزام والعدل وعدم شرب الدخان داخل المحكمة

وردت مراسلة من حضرة سيدنا ومولانا فخر القضاة شيخ مشايخ الإسلام أسبغ الله عليه جزيل الإنعام مضمونها مفاخر النواب والقضاة والشهود الناهجون مناهج الصواب بمحاكم مصر المانونة المانوسة بندى لعلمهم أن يكونوا على الطريقة الجهيرة المستقيمة ويمشون على الحقيقة المستدومة بالعدل والإنصاف والصدق والإسعاف من غير خلاف ويتركون الشبهات ولا يتبعون السيئات ولا يتعاطون كتابات فى المواد الخمس المستثنى بها كالكشف والتقرير والحكم على الغائب أو تفرد شاهد ويمين والتواجرات الطويلة والفسخ والقسمة والإستبدال فإنهم ممنوعون من ذلك إلا بإذن شريف كما حرمت به العادات ولا يشربون الدخان بداخل المحكمة ولا يتعاطون المهملات فمن تعدى وفعل شئ من ذلك عوتب بغاية العتاب وقوبل بأشد العقاب وطرد وأبعد وحرم من خدمته ومن حذر فقد أنذر والله عليم حكيم من تاريخه.

تحريراً فى: ٨ جمادى الأول ١٠٩٢هـ.

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠٥، م ١٤٠، ص ٥١

ملحق رقم: ٤ (أ)

حادث قتل مقدم درك خط فم الخليج في عهد الصوباشي مصطفى ودواداره الزينى دلاور

حضر لدى الحنفى الأمير مصطفى زعيم مصر القديمة حالاً وبصحبه دوادارة الزينى دلاور، وأخبر مصطفى الصوباشى أن وصل لعلمه أن فى الثلث الأخير من الليلة المسفر صباحها يوم تاريخه حضروا جماعة من اللصوص إلى خط فم الخليج بمصر القديمة الحدود من دركه وتعدوا على مقدم دركه المذكور المدعوا ناصر وقتلوه بالخط المذكور وسأل من مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه أن يتوجه للكشف على ناصر وتم بالفعل وكشفوا عليه ووجدوه ملقى على الأرض على ظهره فوجدوا ضربتان على ضلعه الأيمن وضربة على ضلعه الأيسر بجميع سكين ضربات قطعت الجلد وأسالت الدماء ومات وتم تحرير ذلك يوم الأحد مستهل جمادى الأول ١٠٥٨هـ.

تحريراً فى: الأحد مستهل جمادى أول ١٠٥٨هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٢٧٨ ، ص ص ١٠٣ ، ١٠٤

ملحق رقم: ٤ (ب)

تسليم الدرك بخط السبع سقايات المقدم محمد

حضر بين يدي الحاكم الشرعى الحنفى فخر الأعيان عمدة ذوى المناصب والشان الأمير سليمان زعيم مصر القديمة حالا يسر الله له وصحبته المقدم محمد بن محمد من ناحية تفهنا بإقليم الغربية بالوجه البحرى وأشهد على نفسه المقدم محمد المذكور أعلاه شهوده الإشهاد الشرعى المعتبر بأن يكون صاحب درك السبع سقايات تابع درك مصر القديمة على حدوده السابقة من ابتداء قنطرة الجبص وسبيل المعمار وإلى محل سبيل قناطر السباع وعليه تلقية الدرك المرقوم أعلاه برجال يحفظونه بأسلحتهم وجميع ما يصنع فى زمن ولايته يكون عليه القيام بنظره وعليه إغاثة اللفان وإطفاء الحريق

تحرير فى: الأحد ٢٠ شعبان ١٠٥٩هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٥٧٣ ، ص ٢١٤

ملحق رقم: ٤ (جـ)

حادث سرقة وقيام صاحب الدرك بالمهام المنوط بها

حضر إلى صوباشى مصر القديمة الزينى محرم تابع الأمير حسن الصوباشى بمصر القديمة شخصيتى الحاج سليمان بن على الغزالى وعبد الحق بن زوين بن غراب والحرمة خطيطة ابنة على بن عبد الله وأخبروا مولانا أن الحرمة خطيطة إدعت خلع باب منزلها نهراً وضاع لها كساء صوف ثمنها ٥ دنانير فصاحت فأدركها جاراها عبد الحق المذكور فذكر لها إنه وجد عبداً أسوداً لا يعرفه يحمل المكساء الصوف بالسبع سقايات فهم يقبض عليه ففر هارباً ورجع فحضر صاحب درك السبع سقايات المقدم قبالة وقبض عليهم وأحضرهم للصوباشى المذكور

تحريراً فى: السبت ٢٥ ربيع الأول ١٠٢١هـ

مصدر الوثيقة: محكمة مصر القديمة سجل ٩٨ وثيقة ١٩٤٩ ، ص ٥١٠

ملحق رقم: ٥

حصار الغلال بشونة بمصر القديمة في عهد الأمير يوسف بيك

حضر لدى مولانا الحنفى الأمير يوسف بيك أمير اللوا السلطاني والناظر على الشئون الشريفة السلطانية بمصر القديمة حالاً ومعتمد الدولة لتحصيل الغلال الأمير محمد أفندى أمير العنبر الشريف حالاً وسأل من مولانا المشار إليه أعلاه بأن يتوجه بصحبته هو وشهوده إلى حضرة المشار إليهما أعلاه بسبب الكشف والإخبار، وتوجه هو وشهوده إلى العنبر المرقوم فوجدوا كلاً من المشار إليهما أعلاه وكتخذا البيك والأمير محرم بيك من طائفة الجاويشية بمصر المحمية جالسين بباب الشئون وأخبرا مولانا الحاكم لما صدر من الكشف على الشئون المرقومة وما تحويه من الغلال المتحصل إلى غاية شهر جماد الأول سنة تاريخه وإلى غاية مدة لصرف الجنب العالى الأمير عبدى بيك المتحدث على العنبر الشريف كان وسالا من مولانا الحاكم بأن يستفسر من السادة الكتبة بالعنبر الشريف إلى حقيقة ذلك وكتابة حجة لما يخبرون به من ذلك، وإستفسر من كل من محمد الكتاب المقيد ابن القاضى شمس الدين محمد الكاتب المعتمد بن الشريف عبد الرؤوف الشهير نسبه الكريم بابن العجمى ورفيقهما فى الضبط والكتابة بالعنبر الشريف هو المعلم يوسف الصيرافى على الغلال المتحصلة إلى غاية التاريخ المرقوم أعلاه فأخبروا بأن الباقي بالعنبر الشريف إلى غاية التاريخ المرقوم أعلاه ما جملته من الغلال السلطانية أربعة آلاف إردب وخمسمائة إردب وإثنان وعشرون إردب ونصف إردب وربع إردب وثمان إردب كما هو معين بالمقاطعة الديوانية على ذلك عن ما هو قمح أربعماية إردب وثلاثة أراذب وثلثاى وربع إردب وثمان إردب، وما هو من الشعير ألف إردب واحد وثلثماية إردب وثلاثة عشر إردب وقيراطاً واحداً، وما هو من الفول أربعة وخمسون إردب ونصف إردب، وما هو من الحمص مائة إردب واحدة وإثنان وتسعون إردب، وما هو من الحفافة الفاضل ألف إردب واحدة وستماية إردب وأربعة وستون إردب ونصف إردب وثمان إردب، وما هو من الذرة الفاضل ثمانماية إردب وخمسة وتسعون إردباً

ونصف إردب وربع إردب وهو ما تحرر من نتيجة الكشف وكتب ذلك بطلب من الأمير
البيك والأمير محمد أفندى المشار إليهما أعلاه.

تحريراً فى: الأحد ٢٩ جماد أول ١٠٥٨هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة سجل ١٠١ وثيقة ٣٠٤ ، ص ١١٢

ملحق رقم: ٦**بيع الفول من مصر القديمة إلى جدة بالحجاز الشريفة**

لدى الحنفى اشترى المحترم الحاج أحمد بن المرحوم الحاج محمد بن التراس بالعنبر الشريف بخط مصر القديمة بماله لنفسه من بايعه المحترم الحاج على بن المرحوم نجيم التراس المرقوم أيضاً فباعه جميع إثني عشر جمل من الفول عنها أربعين إردب من الفول الصحيح الموضوع ذلك بمركب النبطى المتوجه فى سنة تاريخه لبندر جدة المعمور بالحجاز الشريف بموجب الطمين المعين به ذلك المؤرخ لغاية شهر جماد الأول سنة تاريخه المعلوم ذلك عندهما والجارى ذلك فى ملك الحاج على نجيم البائع المذكور وحوزته وتصرفه اشتراه صحيح بمبلغ من الذهب الشريفى الجديد السلطانى معاملة تاريخه بمصر المحروسة أربعون شريفاً نصف ذلك حفظاً لأصله عشرون شريفاً ويدفع الباقي من تاريخه وحتى خامس عشر ذى الحجة بالشريفى أو ما يعادلها من القروش فإذا لم يقوم بذلك قبل مضى المدة يعتبر البيع منحللاً غير لازم ولا كان

تحريراً فى: ٢٢ شوال ١٠٨٠هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س ١٠٤، م ١٦، ص ٧

ملحق رقم: ٧

تجارة بين مصر القديمة وبلاد الحجاز من خلال السويس «تجارة بن أخضر»

بين يدى الحاكم الشرعى أقر وإعترف المحترم الحاج على بن جعفر الفيومى المعروف بالمصرى القدسى هو بالواف بمركب الحاج سليمان الشاطبى إقراراً وإعترافاً وهو بالصحة والسلام أن بذمته للمحترم الحاج محمد بن المرحوم محمد بن ناصر المعروف هو بإبى موز التراس بالشئون العامرة بمصر القديمة أربعة قناطير بن أخضر قلب مغربل بالوزن المعتاد نصف ذلك حفظاً لأصله وضبطاً لجملته قنطارين إثنين ترتب ذلك له بذمته بالطريق الشرعى يقوم له بذلك محمولاً من بندر السويس المرقوم فى شهر شعبان أو فى شهر رمضان المعظم قدره سنة تاريخه عند دخول المراكب من بلاد الحجاز الشريف إلى السويس المرقوم إلى خط حمام جمدار بمصر القديمة من غير أجره على المقر له المرقوم أعلاه القيام الشرعى بالطريق الشرعى بإعتراف الحاج على المقر المذكور بذلك يوم تاريخه الإعتراف الشرعى وصدق على ذلك الحاج محمد المقر له المرحوم.

تحريراً فى: ١٩ صفر ١٠٨٠هـ

مصدر الوثيقة : محكمة مصر القديمة س١٠٣، م١٠٨٤، ص ص ٤٠٠، ٤٠١

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق غير المنشورة.

أ. دفاتر الروزنامة والترابيع:

- دفتر مال وارد إلى الخزينة العامة من أقلام سنة ١١١١هـ ، عين ٢٩ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ٦ ، سجل رقم ٢١١١.
- دفتر تربيعة ولاية فيوم وبهتساوية واجب سنة ٩٣٣هـ ، فيوم ناحية رقم ١٢٧
- دفتر مقاطعة إحتساب. عين ١٧ ، مخزن تركي ١ رقم الحفظ النوعي ١٠ ، سجل رقم ٥٢٥٣
- دفتر مال الأسكلات ومقاطعات بنفس المحروسة - قلم شهر ١٠٣٦هـ ، عين ٥٣ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ١ ، مسلسل عمومي ٤١٣٩
- دفتر أصول مال جمارك ومقاطعات ومال أسكلة ومقاطعات - قلم شهر در واجب ١٠٨٨هـ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ٢ ، مسلسل عمومي ٤١٤٠
- دفتر مال أسكلة ومقاطعات - قلم شهر در واجب ١٠٨٩هـ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ٣ ، مسلسل عمومي ٤١٤١
- دفتر أصول مال أسكلة ومقاطعات، عين ٥٣ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ٧ ، مسلسل عمومي ٤١٤٥
- دفتر مقاطعة إحتساب باب الأوجاقات بإسكندرية وبولاق وتوابعها، عين ١٧ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ١٠ ، مسلسل عمومي ٥٢٥٣
- دفتر إيرادات الجمارك (مقاطعات أسكلة وبولاق ومصر القديمة) لسنة ١١٠٩هـ ، عين ٥٣ ، مخزن تركي ١ ، رقم الحفظ النوعي ١١ ، مسلسل عمومي ٤١٤٩

ب. حجج شرعية (الأمراء والسلاطين):

- حجة وقف الشيخ أبي السعود الجارحي بتاريخ ١٤ رجب ٩٢٤هـ - تحت رقم ٢٨٧ بدار الوثائق القومية.

ج. سجلات المحاكم الشرعية:

- محكمة مصر القديمة: سجل (٨٤، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) وتغطي الفترة الزمنية من ٩٣٥هـ/١٥٢٨م إلى ١١٠٨هـ/١٦٩٦م
- محكمة الباب العالي: سجل (٧٤، ٨٥، ٨٧، ١٠٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٣، ١٣٧، ١٦٠، ١٦٥، ١٧٣) وتغطي الفترة الزمنية من ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م وحتى ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م.
- محكمة بولاق: سجل (١٩، ٢٢، ٢٤، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٤٢، ٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥٨) وتغطي الفترة الزمنية من ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م وحتى ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م
- سجلات الدشت: سجل (٤، ١١، ٥٥، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٩، ١٦١، ١٦٦، ١٧٤) وتغطي الفترة الزمنية من ٩٣١هـ/١٥٢٤م وحتى ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م.
- محكمة قناطر السباع: سجل (١٢٦، ١٣٠، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦) وتغطي الفترة الزمنية من ١٠١٥هـ/١٦٠٤م وحتى ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م.
- محكمة البرمشية: سجل (٧١٠، ٧١١، ٧١٤) وتغطي الفترة الزمنية من ١٠٢٥هـ/١٦١٤م وحتى ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م.
- محكمة القسمة العسكرية: سجل (٥٥، ٦٣) ويغطيان الفترة الزمنية من ١٠٥٧هـ/١٦٤٦م وحتى ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م.
- محكمة الزاهد: سجل (٦٨١، ٦٨٢) ويغطيان الفترة الزمنية من ١٠٩٢هـ/١٦٨١م وحتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م.

- محكمة طولون: سجل ٢٠١ لسنة ١٠٥٩هـ/١٦٤٨م.
- محكمة دمياط: سجل ١٠٢ لسنة ١٠٦٢هـ/١٦٥١م.
- محكمة الإسكندرية: سجل ١٤٩ لسنة ١٠٥٢هـ/١٦٤١م.

ثانياً: الوثائق المنشورة.

- قانون نامة مصر، الذى أصدره السلطان سليمان القانونى لحكم مصر، ترجمة أحمد فؤاد متولى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦

ثالثاً: المخطوطات.

- أبو الخير عصام الدين: الشفا فى دواء الوباء. مخطوط بدار الكتب، طب ٩٠٠ ، ميكروفيلم ٣١٢١٢
- أبو الليث السمرقندى: مقدمة فى التصوف، دار الكتب، تصوف ٢٧٦٧، ميكروفيلم ٤٠٢٥٠
- إبراهيم اللقانى: نصيحة الإخوان بإجتنب الدخان، دار الكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم ١٤٩٢٣، ٤١٩٠٤
- أحمد بن سعد الدين العثمانى: ذخيرة الأعلام بتواريخ الخلفاء الأعلام وأمراء مصر وقضاة قضاتها فى الأحكام من فتحها الإسلامى إلى زمن الناظم، دار الكتب، تاريخ ١٠٤، ميكروفيلم ٥١١١١
- بدر الدين الغزى: جواهر الذخائر فى عدد الكبائر والصغائر، دار الكتب، تصوف ٢٧٦١، ميكروفيلم ٣٣٨١٨
- حسن بن عمار بن على الوفائى الشربلى: غنية نوى الأحكام فى بغية درر الأحكام، ج١، ج٢، دار الكتب، فقه حنفى طلعت ٨١١، ٨١٢، ميكروفيلم ٩٢٦٦، ٩٢٦٧
- على الأجهورى: رسالة فى المغارسة، دار الكتب، فقه مالك ٣٦، ميكروفيلم ١٦٧٢٣

- - : أسئلة وردت من المغرب وأجوبتها، دار الكتب، فقه مالك ٣٩،
ميكروفيلم ٤٢٠٢٤
- علاء الدين المكي: عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد، دار الكتب، جغرافيا ٣٤٧٢،
ميكروفيلم ٢٤٥٧٣
- عبد الملك العصامي: رسالة في تحريم الدخان، دار الكتب، فقه مالك ٣٨، ميكروفيلم
٤١٩٠٤
- عبد القادر بن محمد الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة
المكرمة، دار الكتب، تاريخ ١٥٧٠، ميكروفيلم ٣٥٧٤٩
- مجهول: قطعة من تاريخ مصر إلى العثمانيين، تاريخ تيمور ٢٦٤١، ميكروفيلم
٢٧٩٦٢
- مجهول: قوت النفوس في مخاطبة العريس والعروس، دار الكتب، لاهوت طلعت
١٣٦، ميكروفيلم ٢٢٩٥٦
- مجهول: مجموعة من مدائح للسيد المسيح والسيدة العذراء، دار الكتب، لاهوت
٦٩٠، ميكروفيلم ٤٨١٧٤
- مجهول: تاريخ ملوك آل عثمان وولاتهم بمصر إلى ولاية على باشا المتولى عليها،
دار الكتب، تاريخ تيمور ٢٤٠٨ ، ميكروفيلم ٤٩٨٤٧
- - : الروضة المأنوسة في أخبار المحروسة، دار الكتب، تاريخ
تيمور ٢٥٢٤، ميكروفيلم ٣٤٣٢١
- - : قطف الأزهار من الخطط والآثار، دار الكتب، جغرافيا
٤٥٧، ميكروفيلم ٤٥٨٥٢
- محمد بن محمد المهندس الجرجاوي: الكواكب المشرقة في أحكام النكاح والطلاق
والنفقة، دار الكتب، فقه حنفي طلعت ٨٠٥، ميكروفيلم ٩٢٦١
- محمد عريف إسماعيل: تحرير الكلام في مسائل الإلزام، فقه مالك ٢٨١، ميكروفيلم
١٦٨٩٨

- محمد بن عبد الباقي الزرقاني المصري: أسئلة وأجوبة في العقائد والتصوف والأحكام الشرعية، دار الكتب، معارف عامة ٣٠، ميكروفيلم ٤٦٠١٩
- محمد المرعشي: ترتيب العلوم، دار الكتب، معارف عامة ٩٧، ميكروفيلم ٤٥٩٢١
- مرعي بن يوسف الحنبلي: نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلطين، تاريخ تيمور ٣٠٣، ميكروفيلم ١٣٣٠٣

رابعاً: المصادر العربية.

- ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، ١٩٩٨
- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٥، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٦١م.
- إبراهيم بن أبى بكر الصوالحى: تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، المعهد الفرنسى بالقاهرة، ١٩٨٦
- أحمد شلبى ابن عبد الغنى: أوضح الإشارات فىمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨
- استيف: النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية. وصف مصر، ج ٥، ط ١، مكتبة الخانجى ١٩٧٩
- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠
- تقى الدين أحمد بن على المقرئى: المواعظ والإعتبار فى ذكر بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، مكتبة الآداب ١٩٩٦.
- جيرار: وصف مصر. الحياة الإقتصادية والإجتماعية فى ق ١٨، ترجمة زهير الشايب، ج ٤، القاهرة، ١٩٧٨
- جون أنتيس: مذكرات رحالة عن المصريين فى الربع الأخير من ق ١٨ (١٧٧٠-١٧٨٢)، ترجمة سيد الناصرى.

- جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، مكتبة الخانجي، ١٩٩٨
- حسين أفندي الروزنامجي: ترتيب الديار المصرية، مجلة كلية الآداب، مجلد ٤، ج٢، ١٩٣٦
- دى شبرول: دراسة عن عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، وصف مصر، ج١، ترجمة زهير الشايب، مكتبة مدبولي، ١٩٧٩
- صامويل برنار: الحياة الاقتصادية في مصر في ق١٨، وصف مصر، ج٦، ترجمة زهير الشايب، ط١، مدبولي، ١٩٨٠
- عبد الرحمن بن نصر الشيرزى: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط١، دار الثقافة، ١٩٨١
- عبد الغنى بن إسماعيل النابلسي: الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر الحجاز، تحقيق أحمد عبد المجيد، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦
- محمد بن أبى السرور البكرى: الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة، دار الثقافة، ط١، ١٩٩٧
- — : النزعة الزهية في ذكر أخبار مصر والقاهرة المعزية، تحقيق عبد الرازق عيسى، العربى للنشر والطبع، ط١، ١٩٩٨
- محمد الأمين فضل محب الله المحبى: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر، ٤ أجزاء، المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ
- محمد توفيق البكرى الصديق: بيت السادات الوفائية، دار الكتب المصرية، ١٩٧٥
- فولنى: ثلاث أعوام في مصر وبر الشام، ترجمة إدوارد البستانى، منشورات دار المكشوف، ط٢، بيروت، ١٩٤٩
- يوسف بن الوكيل الملوانى: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، ١٩٩٨

خامساً: المصادر الأجنبية.

- **Albert, Jacques:** Etat De L'Egypte, 1643, en Voyages en Egypte Des annees 1634-1636, [IFAO], Le Caire 1974
- **Amarison:** Voyage en Egypte 1697, Imprimé en 1976, Francais.
- **Arocchatta:** Voyage De 1599, Imprimé en 1976, Francais.
- **Belon, Pierre:** Le Voyage en Egypte 1547, Le Caire 1969.
- **Blunt, Henry:** L eVoyage en Egypte, 1634, [IFAO], Le Caire 1974
- **Bremond, Gabriel:** Voyages en Egypte, 1643-1645, [IFAO], Le Caire, 1974
- **Brown, Edward:** Le Voyage en Egypte 1673-1674, [IFAO], Le Caire, 1974.
- **Combe, Etienne:** L'Egypte Ottomane Le Conquete par Selim "1517"
L'Arrivee De Le Ponaparte (1798)
- **Costele, Henry:** Voyage De "1600-1601", Imprimé en 1981, Francais.
- **Fermanel, G. Et Stochove, V:** Voyages en Egypte, 1631, [IFAO], Le Caire, 1975
- **Gonzales, A:** Le Voyage en Egypte, 1665-1666, [IFAO], t.I, Le Caire, 1977.
- **Lichtenstein, H. L. Von:** Voyage De Lichtenstein en 1587, en Voyages en Egypte Des annees 1587-1588 Trad. De L'allemand Par. u. Castel, [IFAO], Le Caire, 1972.
- **M. T. E. Thevenot:** Voyage De L'Event A Pris, 1981
- **Neitzschitz, G:** Voyage en Egypte, 1636, en Voyages en Egypte Des annees 1634-1635 et 1636, [IFAO], Le Caire, 1974.
- **Ovington:** Voyage De "1689", Imprimé en 1981, Francais.

- **Pitts, Goseph:** Voyage De “1685”, Imprimé en 1981, Francais
- **Sandys:** Voyage en Egypte “1611”, Imprimé en 1981, Francais.
- **Vanslb:** D’ Vn Voyage Fait en Egypte en (1672-1673), Imprimé en 1981, Francais.
- **Wild, Johann:** Voyage en Egypte “1610-1616”, Imprimé en 1975, Francais.

خامساً: المعاجم:

- عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٩٩٧
- محمد على الأنسى: الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات، بيروت، ١٩٠٠
- المعجم الوجيز: الطبعة الخاصة بوزارة التربية والتعليم، ١٩٩٣

سادساً: المراجع العربية والمصرية:

- أبو الحمد محمود فرغلى: الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية فى القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠
- أبو اليسر فرج: النيل فى المصادر الإغريقية، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، ١٩٩٥
- أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد فى الجبرتى من الدخيل، القاهرة، ١٩٧٩
- أحمد السيد الصاوى: النقود المتداولة فى مصر العثمانية، القاهرة، ١٩٩١
- أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، [د.ت]
- أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، ١٩٦١
- إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، ج٢، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٤هـ
- السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٠

- أندريه ريمون: فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشليب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٤
- - : المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٩١
- - : القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، ط ١، القاهرة ١٩٩٤
- أيمن فؤاد سيد: التطور العمرانى للقاهرة، مؤسسة الفرقان للتراث.
- - : مسودة كتاب المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى، مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، ١٩٩٥
- - : المدينة الإسلامية والدراسات الحديثة التى تناولتها. بحث فى المجلة التاريخية، العدد ٤٠، عام ١٩٩٧، ١٩٩٩
- توفيق الطويل: التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، جزآن، سلسلة تاريخ المصريين، العدد ٢١، ٢٣، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٨
- جب وبوون: المجتمع الإسلامى والغرب، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، ج ١، دار المعارف، ١٩٧٠
- جرجى زيدان: مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، دار الهلال، العدد ٥١٧، ١٩٩٤
- جمال حمدان: جغرافية المدن، عالم الكتب، ط ٢، القاهرة، ١٩٧٢
- ج. و. مكفرسون: الموالد فى مصر، ترجمة عبد الوهاب بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨
- حسام محمد عبد المعطى: العلاقات المصرية الحجازية فى ق ١٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين رقم ١٤٩، ١٩٩٩
- حسن عثمان: مصر فى العهد العثمانى فى المجل فى التاريخ، ط ١، القاهرة، ١٩٤٢

- خالد عزب: الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية، مقال مطبوع ضمن مقالات الهيئة العامة لقصور الثقافة للإحتفال بمرور ١٤٠٠ سنة على دخول الإسلام مصر، القاهرة، ١٩٩٩
- ستانلى لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن ، على إبراهيم حسن، هيئة الكتاب، ١٩٩٧
- سعاد ماهر: تطور العمائر الإسلامية بتطور وظائفها، مقال بالمجلة التاريخية، مجلد ١٨، ١٩٧١
- سيد الناصرى: الإغريق تاريخهم وحضارتهم، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٧٦
- سيدة إسماعيل الكاشف: دراسات فى النقود الإسلامية، مقال فى المجلة التاريخية، مجلد ٤، ١٩٦٥
- عاصم محمد رزق عبد الرحمن: مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى مجئ الحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٩
- عبد الحميد حامد سليمان: تاريخ الموانى فى العصر العثمانى، عدد ٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥
- - : الملاحه النيلية فى مصر فى العصر العثمانى، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، عدد رقم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠
- - : الرسوم الجمركية على البن فى مصر فى القرنين ١٧، ١٨ الميلاديين، بحث مقدم فى المؤتمر الدولى المنعقد فى الفترة من ١١-١٨ أكتوبر ١٩٩٧، مونتبلية - فرنسا.
- عبد الحميد يونس وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ٤
- عبد الرازق عبد الرازق عيسى: القضاء فى مصر فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين رقم ١١٧، ١٩٩٧
- عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وأثارها، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦

- عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصرى فى القرن الثامن عشر، مكتبة مدبولى، ط٢، ١٩٨٦
- - : فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين، العدد ٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠
- - : المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى، المجلة التاريخية المغربية، الجزائر، ١٩٨٢
- عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦
- عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى حتى حملة بونابرت (١٥١٦-١٧٩٨)، دمشق، ط٢، ١٩٦٨
- عراقى يوسف محمد: الوجود العثمانى فى مصر فى القرنين ١٦، ١٧، ط١، ١٩٩٦
- عفاف مسعد السيد: دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤-١٦٠٩)، تاريخ المصريين رقم ١٧٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
- على بهجت وألبير جبريل: حفريات الفسطاط، دار الكتب، ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م،
- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، ج١، ج٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦
- عماد بدر الدين أبو غازى: تطور الحياة الزراعية زمن المماليك الجراكسة، عين للدراسات والبحوث، ط١، ١٩٩٦
- فتحى محمد مصيلحى: تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى، القاهرة، ١٩٨٨
- كامل صالح نخلة: تاريخ الببوات بطاركة الكرسى الإسكندرى، الحلقة الأولى، ط١، ١٩٥١
- لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشرى، ترجمة محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ط٢، ١٩٠٢

- ليلى عبد اللطيف: الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، القاهرة، ١٩٧٨
- - : المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، دار الكتاب الجامعى، ط١، القاهرة، ١٩٨٧
- - : دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨٠
- محمد السقا: تاريخ الشرائع القديمة فى الشرق والغرب، دار النهضة العربية، ١٩٩٥
- محمد الششتاوى: منتزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، دار الآفاق العربية، ١٩٩٩
- محمد رمزى: القاموس الجغرافى، ٤ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤
- محمد عفيفى: الأوقاف والحياة الإقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين، عدد ٤٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١
- - : الأقباط فى العصر العثمانى، تاريخ المصريين ٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢
- - : تجارة الدخان فى العصر العثمانى، مقال بمجلة كلية الآداب. جامعة القاهرة.
- - : الخطط والحياة الإقتصادية فى حارة اليهود بالقاهرة، مجلة المؤرخ المصرى، العدد ١٠، يناير ١٩٩٣
- - : الرباع فى العصر العثمانى، مقال بمجلة المعهد الفرنسى للآثار الشوقية بالقاهرة، ١٩٩٩
- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، [د.ت.]
- محمد فهمى لهيطة: تاريخ مصر الإقتصادى فى العصر الحديث، دار النهضة المصرية، ١٩٤٥
- محمد محمد الكحلاوى: آثار مصر الإسلامية فى كتابات المغاربة والأندلسيين، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٤

- محمد محمد أمين، ليلى على إبراهيم: المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية (٦٤٨-٩٢٣هـ)، دار النشر بالجامعة الأمريكية، ط١، ١٩٩٠
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الإجتماعية فى مصر "١٢٥٠-١٥١٧م"، دراسة تاريخية وثائقية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٠
- محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنة الإفرنجية والقبطية، تحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، [د.ن]
- محمد مختار: بغية المريد فى شراء الجوارى وتقليب العبيد، القاهرة، ١٩٩٦
- محمد نور فرحات: القضاء الشرعى فى العصر العثمانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨
- مصطفى على السيوفى: تاريخ التجارة الخارجية فى مصر إبان الحكم العثمانى، . رسالة ماجستير بأداب القاهرة عام ١٩٧٢
- نيللى حنا: بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر (دراسة إجتماعية معمارية)، ترجمة حليم طوسون، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩١
- - : تجار القاهرة فى العصر العثمانى (سيرة أبو طاقية)، ترجمة رؤوف عباس حامد، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧
- نيفين مصطفى حسن: رشيد فى العصر العثمانى، دار الثقافة، ١٩٩٩

سابعاً: المراجع الأجنبية.

- Abdel Hamid El Batrik: Egyptien-Yemeni Releation (1819-1840) and Their Implications For British Policy in The Red Sea, London 1958
- Gamal El- din El - Shayyal: Some Aspects of Intellectual And Social Life in Eighteenth-Century Egypt.
- Michel Tuchsherer: La Flotte Imperiale De Suez "1594-1719" Turcica 1997

- Nelly Hanna: An Urban History of Bulaq in The Mamluk and Ottoman Periods. Cairo, 1983
- Nelly Hanna: Construction Work in Ottoman Cairo "1517-1798" Le Caire 1984
- P. Holt: Political and Social Change in Modern Egypt. London. 1958 – Quartiers et Nouveaux Populaires au Caire au XVIII Siecle. Andre. Raymond.

قائمة المحتويات

أولاً: فهرس الخرائط.

- خريطة توضح أماكن الخرائب بمصر القديمة فى ق ١٧ ص ٤٨
- خريطة توضح أماكن العمران بمصر القديمة خلال ق ١٧ ص ٤٩

ثانياً: فهرس الموضوعات.

<u>الموضوع</u>	<u>رقم الصفحة</u>
▪ تقديم	IV-I
▪ تمهيد	٦-١
▪ <u>الفصل الأول:</u>	
مصر القديمة من منظور عمرانى	٤٩-٧
▪ <u>الفصل الثانى:</u>	
النظام الإدارى	٧٧-٥٠
▪ <u>الفصل الثالث:</u>	
الزراعة والصناعة	١٠٦-٧٨
▪ <u>الفصل الرابع:</u>	
مصر القديمة كمركز تجارى	١٦٠-١٠٧
▪ <u>الفصل الخامس:</u>	
الحياة الإجتماعية والصحية	١٩٣-١٦١

- **الفصل السادس:**
- الحياة الدينية والثقافية ١٩٤-٢١٦
- **الخاتمة** ٢١٧-٢١٩
- **ملحق (١): ملحق الأشكال** ٢٢٠-٢٤٠
- **ملحق (٢): العمران في مصر القديمة خلال القرن ١٧** ٢٤١-٢٤٦
- **ملحق (٣): مراسلة من شيخ الإسلام إلى النواب والقضاة بضرورة الإلتزام والعدل وعدم شرب الدخان داخل المحكمة** ٢٤٧
- **ملحق (٤): أ - حادث قتل مقدم درك خط فم الخليج في عهد الصوباشي مصطفى ودوداره الزيني دلاور** ٢٤٨
- **ملحق (٤): ب - تسليم الدرك بخط السبع سقايات للمقدم محمد** ٢٤٩
- **ملحق (٤): ج - حادث سرقة وقيام صاحب الدرك بالمهام المنوط بها...** ٢٥٠
- **ملحق (٥): حصر الغلال بشونة مصر القديمة في عهد الأمير يوسف بيك** ٢٥١-٢٥٢
- **ملحق (٦): بيع الفول من مصر القديمة إلى جدة بالحجاز الشريفة** ٢٥٣
- **ملحق (٧): تجارة بين مصر القديمة وبلاد الحجاز من خلال السويس (تجارة بن أخضر)** ٢٥٤
- **المصادر والمراجع** ٢٥٥-٢٦٨
- **قائمة المحتويات** ٢٦٩-٢٧٠
- **ملخص** ٢٧١-٢٧٦

ملخص الرسالة

مدينة مصر القديمة في القرن السابع عشر الميلادي

تعتبر دراسة المدن الحضارية من الدراسات المفيدة في مجال البحث التاريخي. هذه المدن التي حظيت باهتمام من جانب بعض المهتمين بالتنقيب في هذا المجال وعلى رأسهم عبد الرحمن زكي وأندريه ريمون ومحاولات نيللي حنا، وجاءت القاهرة محط اهتمام هؤلاء في المقام الأول بوصفها العاصمة وكل ما يأتي بعدها بدور في فلکها. واعتبرت مصر القديمة بجانب بولاق متنفساً لها ينظر إليها الكثيرون على أنها حياً عادياً من أحياء القاهرة أصبح مهيض الجناح بعدما كانت منطقته - عندما كانت تسمى القسطاط - تتبوأ دور الزعامة على مصر قاطبة.

وكل من تناولها بالدراسة من قريب أو بعيد نظر إليها على أنها شئ عظيم قد تحطم فراح يرثى مجده الزائل ويتعلق بأهداب الماضي الجميل كي يتحسس طريقه نحو المستقبل، لذلك جاءت الكتابات التي دارت حولها في مجملها فقيرة تفتقد إلى المصداقية يعوزها التنقيب بمعولٍ من حديد من أجل إضافة شئ ذي قيمة تذكر. لذلك وقع اختيارنا على مصر القديمة في القرن السابع عشر لتكون أطروحة للماجستير نكشف من خلالها اللثام عن تلك المدينة التي وقع عليها الغُبن من قِبل البعض والتي اكتنفها الغموض لفتراتٍ طويلة. وجاء تحديد فترة القرن السابع عشر بالذات لأنه حتى هذه اللحظة لم تكن هناك وفرة من الدراسات المستقلة لهذه الحقبة التي تعد من أكثر الحقب في تاريخ مصر غموضاً ، وبالتالي جاءت الصعوبة هنا مزدوجة في دراسة مدينة تعلوها الأتربة في فترة غاية في الغموض، لذلك كان لزاماً علينا التنقيب الدؤوب والتحلي بالصبر لإخراج ما هو جديد، لذا فهي محاولة متواضعة بكل المقاييس.

وقد آثرت في البداية أن ألقى الضوء على مدينة القسطاط أول عواصم مصر الإسلامية منذ النشأة وحتى الأفول، وجاء مدخلنا حول المدينة التي آل أمرها إلى خراب وأصبحت تسمى بالمدينة العتيقة أو مصر العتيقة أو القديمة بعدما سرقت العاصمة الجديدة

لمصر - نعى القاهرة - الأضواء منها، وأصبحت مصر القديمة أرضاً بوراً وخرائب ينعق فيها اليوم والغربان، فأهملها الجميع فترات مديدة من التاريخ وهو الأمر الذى جعل الغموض يسيطر على تاريخها حتى أن جمهرة من الباحثين لا يفضلون التطرق إليها بالحديث من قريب أو بعيد بإعتبار أن سيرتها لا تسمن ولا تغنى من جوع بحجة أن دراستها بمثابة التمسك بأهداب ناقة عجفاء لا تدر لبناً. لذلك كان تعرضى لها فترة القرن السابع عشر بمثابة مغامرة يلاحقها الفشل حيثما نولى وجهنا.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلى مقدمة وستة فصول، فى المقدمة أو التمهيد ألقينا الضوء حول مدينة القسطنطينية كما ذكرت منذ قليل. وفى الفصل الأول - الذى حمل عنوان مصر القديمة من منظور عمرانى - وقد عالج عدة أمور منها وضع مسمى للمدينة حتى لا يحدث اللبس، ثم بعد ذلك عالجت الجوانب العمرانية فيها لنقطع بذلك أصابع الاتهام التى وجهت إليها من حيث كونها خرائب ومأوى لأعمال اللصوصية على مر التاريخ ولم تكن هناك ثمة محاولة للعمران، كذلك تناولت فيه أهم المنشآت الدينية والاجتماعية من مساجد وكنائس وزوايا وأضرحة وحمامات وأحواش ورباع إلخ.

وفى الفصل الثانى ركزت حول النظام الإدارى وما يتضمنه هيكل الجهاز الإدارى من أمير اللوا والقاضى والصوباشى (رئيس جهاز الأمن) ورجاله والمحتسب، وخصصت الجزء الأخير من الفصل لإلقاء الضوء حول النظام المالى والجمركى للمدينة.

وفى الفصل الثالث تناولت الزراعة والصناعة، وفى الزراعة تعرضت للرى وأهم الزراعات وأشكال الحيازة ومدى صلتها بنظام الالتزام رغم أنها مدينة حضرية وليست ريفية، وظهرت بها العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار والزيت والشموع والحياسة والصباغة وغيرها من الصناعات التى تؤكد أنها بكل المقاييس ذات شكل ونظام معين.

أما الفصل الرابع فقد استعرضت فيه التجارة منفردة عن الزراعة والصناعة رغم أنها تمثل معهما محور الحياة الاقتصادية. وبدأ الفصل بالتركيز على كونها مدينة وليست حياً يؤكد ذلك النشاط التجارى الضخم بها مع وجود ميناء مستقل. ربما يتبادر لأذهان البعض تأخر الإشارة الواضحة حول كونها مدينة أم حى ؟ فهذا أمر مقصود بعد تناول الصناعة

والنشاط التجارى بها وإثبات أن الزراعة التى ظهرت بها زراعة بسنتين أى أنها (المدينة المتريفة)، لا تنفى عنها صفة المدينة الحضرية.

وفى الفصل الخامس تناولت الحياة الاجتماعية والصحية بها وقد بدأت بتعدد فئات المجتمع التى شكلت النسيج الاجتماعى لها من أتراك ومماليك ومصريين ورقيق واستطردت إلى الأحوال الشخصية بها من أمور الزواج والطلاق والنفقة، وكذا أمور الصحة فى ضوء ما هو متاح من مادة.

وخصص الفصل الأخير لدراسة النواحي الدينية والثقافية من حيث مظاهر الحياة الدينية لدى المسلمين والنصارى ودور الدولة فى تنظيم شئون الحياة الدينية والأوقاف، وشملت النواحي الثقافية أهم الكتاتيب والمدارس وبعض المهتمين بالثقافة.

أما الخاتمة فقد جاءت لتلخص أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة وليست ملخصاً لها. فتؤكد أن دراسة تاريخ مصر القديمة خلال القرن السابع عشر جاءت على قدر كبير من الأهمية حيث تكشف لنا ذلك من خلال التعمق فى تاريخها، فتثبت هذه الدراسة أنه من الصعب الآن أن نسقط هذه المدينة من ذاكرة التاريخ بعدما كشف النقاب عنها وفرضت نفسها على خريطة العصر العثمانى.

Misr El-Qadimah In The Seventeenth Century

The civilization's cities studying considered from useful studies in the historical researching field.

These cities which obtain with interest from some of people who care with searching in this field. At the head of them Abd-El Rahman Zaki, Andria Rimon and Nilli's Hana tries.

Cairo came at the spot of care them at the first step as the capital, and all of what comes after it turn round on its orbit. The old Egypt was considered beside Boulak a passage for it. A lot of people look at it as it is usual quarter from Cairo quarters which became less important, afterwards its region "when it was called El Fostat" at the top on the leader's role of all of Egypt.

Each one studied it from far or near looked at it as it is a great thing, which was destroyed. He goes to lament its vanishment glory and belong to the beautiful past to know his way towards the future. So all the writing about Cairo came poor and missed the truth and need researching with an axe from beginning to add something with a value to remember. So we choose old Egypt in the seventeenth century to be the subject of Magestaire to discover through it the veil away. This city didn't take what deserve from some historians. This city covered with mystery for a long time. The definition of the seventeenth century came especially because up till now there weren't much of independent studies to this era, which considered the most mystery in Egypt history. As following the difficult comes here as double in studying a city covers with dusts in a period so mystery. For that we should research continuously and praise with patience to get out the newest. Therefore it is a humble try with all measures.

This study divided into an introduction and six chapters, at the introduction where we spot the light around El Fostat City as I mentioned before. At the first chapter which take the title "Old Egypt from prosperity side" this book deals with many subjects like:

Putting a name to the city to prevent any ambiguity, then after that it deals with the prosperity sides to cut the accuse of fingers which sent to it from it is runis and abode for robbery works on the period of the history, there wasn't any tries to prosperity, also I take in this subject the most important religious and social establishments from mosques, churches, small mosques, akhrega, toilets, ahwash and rabbae ... etc.

At the second chapter I concentrate on the administrative system and what includes the administrative set's structure from colonel, judge, El sobashy [the chief of security's administration] and his men and El mohtasseb. I specify the last part from this chapter to spot the light around the financial and custom system for the city.

At the third chapter I take the agriculture and the industry. At the agriculture I exposed to the irrigation and the most important of the plants, the forms of possession and the connector with system of obligation, although it is a civilization city not cultivated. A lot of industries appeared such as crockery, oils, candles, wearing, dyeing and the other industries which confirm that it is a city from all sides and with a special shape and system.

At the fourth chapter I exposed the commercial isolated about the agriculture and industry, although it acts with them the commercial life's axis. The chapter begin with concentrating that it is a city not a quarter, the great commercial activity on it confirm that beside the independent port on it. May be coming early to some bodies' memories that the clear signal comes late about is it a city or a quarter? This subject aims after dealing with the industry and the commercial activity on it and prove that the agriculture which appeared on it is gardens agriculture that it is "cultivated city" and don't deny the quality of the civilizing city.

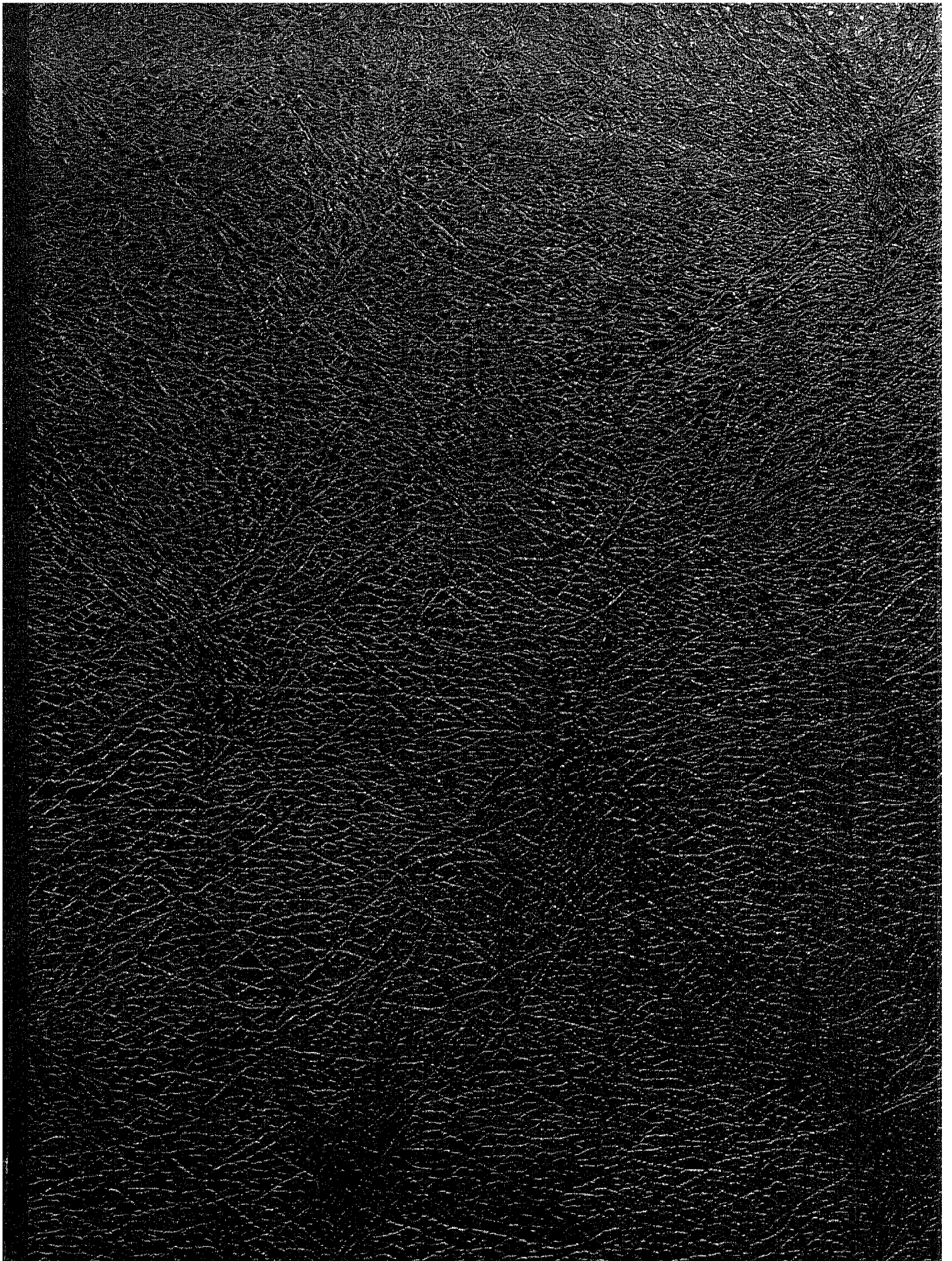
At the fifth chapter I take the social and healthy life on it. I begin with many of the society classes which formed the social wave from Turkish, Memlouks, Egyptians and slaves. I deal with the personal states from marriage, divorce, expense and the health at the light of what allowable from the material.

The last chapter specify to study the religious and cultural sides from the aspects of the religious life at the Moslems and the Christians,

the role of the state at organizing the religious life and the endowments, the cultural sides include the most important of elementary schools, schools and persons who concern with culture.

The conclusion comes to summarize the important results which I reach to them in the study and not to be an extract for it.

The study of old Egypt history during the 17th century comes on a big amount of importance where discover this for us through the penetrate on its history. This study prove that it is difficult now to drop this city from the memory of the history after what had discovered about it and presume itself on the map of Ottoman era.



To: www.al-mostafa.com